برتر اند راسل

نحو عالم أفضل

ترجمة ومراجعة

دريني خشبة

عبد الكريم أحمد

الكتاب: نحو عالم أفضل

الكاتب: برتراند راسل

ترجمة ومراجعة: دريني خشبة، عبد الكريم أحمد

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail: info@bookapa.com**

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

راسل ، برتراند

نحو عالم أفضل / برتراند راسل, ترجمة ومراجعة: دريني خشبة، عبدالكريم أحمد

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢١١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٨ – ٤٠٠ – ٩٩١ – ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٥٠٥ / ٢٠٢١

نحو عالم أفضل

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة الترجمة

ليس في العالم كله من ينكر قيمة آراء راسل الإصلاحية في كل فرع من فروع الحياة، ولاسيما فيما يمس الشئون السياسية، أو شئون التعليم، أو الإصلاح الاجتماعي في جميع نواحيه... وقد يحسب الناس أن راسل هذا فيلسوف هدام... ولد وفي فمه ملعقة من ذهب... فهو ابن لورد واسع الثروة، مات وابنه -هذا الفيلسوف- في الثالثة من عمره- كما توفيت أمه قبل ذلك بسنة تقريبا... لكن الطفل، الذي أصبح أعظم فلاسفة العالم الأحياء، لم يشعر قط بمرارة اليتم، لأنه نشأ في قصر جده الايرل جون راسل... ولما شب الطفل عن الطوق، كان يشرف على الدنيا -وبالأحرى على المجتمع الذي أصبح طبيبه المداوي- من ذروة برجه العاجي... فكيف يتم له تشخيص أمراض هذا المجتمع، بل أمراض الإنسانية كلها بما ورثت من تقاليد وعقائد وآداب وفلسفات، وهو لم يتمرس بآلامها، ولم يشق بما شقيت به من تجارب ومحن؟... على أن هذا اعتراض لا وزن له... لأن الأطباء الذين يعالجون أمراضنا، قد لا يصاب واحد منهم بأي مرض من مئات الأمراض التي يعالج مرضاه منها... وهكذا راسل... الذي ولد سنة ١٨٧٢ وفي فمه ملعقة من ذهب... وراح يؤلف كتبه، ويصف العلاج لكل علة اجتماعية، وهو يشرف على الدنيا من برجه العاجي... لقد ورث عن أبيه حرية الفكر... أبيه الذي عزف عن المعتقدات المسيحية.. وأضرب عن الذهاب إلى الكنيسة، وتحمس هو وزوجته -ليدي راسل وأم الفيلسوف- لكل الآراء التي كانت تزلزل المجتمع في أواخر القرن التاسع عشر، كالدعوة إلى المساواة بين الرجل والمرأة في جميع الحقوق المدنية، وحق المرأة في الانتخاب، وإباحة الطلاق، وحرية الاعتقاد، وضبط

النسل، وإلغاء المدارس التبشيرية... الخ.

وكذلك نشأ راسل الابن... لقد كان يمقت أن تستعبد العقيدة أي إنسان من الناس، ولاسيما هذه العقائد التي يتلقاها الأطفال دون أن يكون لهم رأي خاص فيها، وبالرغم مما تنطوي عليه من الخرافة والشعوذة الفكرية... ولم يجبن راسل أن يصرح بأن الكنيسة هي التي تتعمد ذلك وتشاركها الدولة فيه.. لأنهما يريدان أن يطبعا الناس، كل بالطريقة التي تجعل الناس أدوات طيعة لتنفيذ أهدافهما، وذلك دون أن يقيما أي اعتبار لحرية الفرد، ودون مبالاة بما يودي إليه ذلك من إلغاء شخصيته، ونسخ تفكيره، ومسخ روحه، والقضاء على ملكاته ومواهبه، وهكذا ينشأ المواطنون بلداء الأذهان، مطبوعين على الصورة التي أرادتها لهم الكنيسة وأرادتها لهم الدولة، ثم يتكون الرأي العام بعد ذلك من هؤلاء... والرأي العام في البلاد الديمقراطية هو الذي يتحكم في مصائر هذه البلاد... فماذا تكون النتيجة؟.

فحرية الفكر إذن ظاهرة وراثية في دم هذا الفيلسوف الذي أعدم الملك شارل الثاني أحد أجداده (وليم راسل) لأنه كان من زعماء المطالبة بالإصلاح الدستوري، والوقوف في وجه الطغيان الملكي المستهتر العابث... ومن هنا... هذا العطف الذي لا يزال راسل يشعر به نحو مصر.. فلقد كانت مربيته الألمانية تعيره دائماً بأن الانجليز قد دخلوا مصر بدون وجه حق، وأن وعودهم التي يراسلونها مع الريح، زاعمين أن احتلالهم لمصر هو احتلال مؤقت، وأنهم لابد جالون عنها.. هي وعود كاذبة... كان راسل يثور على مربيته حينما تقول له ذلك، ثم ينفي خلف الوعد عن مواطنيه، ويؤكد أنهم ما داموا قد صرحوا بأنهم جالون عن مصر، فإنهم سيجلون عنها.. وفي ميعاد قريب.. فلما تطاول الزمن، ولم يبر الانجليز بما وعدوا به من الجلاء.. حزن حزناً شديداً على مصر، وعرف

أن مواطنيه كذابون مخادعون، وعزا ذلك إلى الخطأ والانحراف في التربية التي يتلقاها الانجليز في مدارسهم وهم أطفال...

وراسل يطبق ذلك التفكير على جميع المصائب التي تقاسيها البشرية... فهو يعزو أسباب الحروب كلها، لا إلى أسباب اقتصادية كما يفسرها غيره من المفكرين، ولكن إلى سوء مناهج التعليم في مدارس الأمم جميعاً.. تلك المناهج التي تضع خطتها هيئات تختارها الدولة، وتحبسهم في مكاتب وزارات التربية، وتطلب إليهم أن يرسموا خططاً معينة، تطبع لهم الناشئة على طابع معين... ليكونوا جنود الوطن... وليراعوا في هذه الخطط أن يشحنوا رؤوس الأطفال بالزهو الوطني والكبرياء التي تلقنهم أن بلادهم هي أعرق البلاد، وأعظمها، وأن لها من المجد الحربي ما طأطأت له رؤوس الدول في جميع عصور التاريخ... مما تجده مترجما في هذا الكتاب، في فصل التربية.

إن راسل.. الفيلسوف الرياضي المنطقي.. هو خامس الفلاسفة الانجليز التجريبيين.. بل هو أعظمهم.. ولعله أكثرهم إنسانية.. لقد ذهل عندما شبت الحرب العالمية الأولى، وتضعضع قلبه لما قاسته الإنسانية فيها من أهوال... وعجب كيف تجن الإنسانية هذا الجنون فتقترف جرائم القتل بالجملة، وبهذه الصور البشعة، بطوربيد الغواصات، وقنابل الطائرات، ومهاجمة السفن والمدن، وقتل النساء والأطفال والطاعنين في السن والمرضى ومن لا حول لهم ولا جريرة: لقد وضع الفيلسوف قلمه، وخرج من ميدان الفكر المجرد... وخلا إلى نفسه ليضع خطة عملية لوقف هذه المجزرة بعد تشخيص أسبابها، وتشخيص علل البناء الاجتماعي في العالم كله... تلك العلل التي أدت إلى الكارثة العامة... فكان هذا الكتاب... وكان هذا البرنامج الذي خرج به على الشعوب وعلى الحكومات في الأرض قاطبة... وخرج به والحرب العالمية الأولى في

عنفواها، والمذابح البشرية تضرج جنبات البر والبحر والسماء بالدماء البريئة التي سمح سوء التربية بسفكها في توحش وفي جنون... لمجرد إشباع الغرائز البهيمية التي يضللها الزهو والكبرياء... تلك الغرائز التي تركت لها الدول حبلها على غاربها، وتركت لها الكنيسة حبلها على غاربها، حتى أصبحت لها الغلبة على الروح وعلى العقل، فعميت بصائر البشر، وانقلبوا قطعانا من الذئاب والضباع والسباع يفترس بعضهم بعضا، ويسطو بعضهم على بعض، ويريق بعضهم دماء بعض بلا واعز من ضمير، ولا رقيب من خلق... ذاكرا ما تحض عليه بعض الديانات من سفك الدماء، وتلقيبها الله برب الجنود وإله الشعب الواحد المفضل عنده على جميع الشعوب... إلى آخر هذه الأسباب التي خلقت الهوة بين أبناء البشرية، ثم أشعلت نيران الحروب بينهم، ونفخت في أوارها.. من هنا نادى راسل لأول مرة في التاريخ بالحكومة العالمية العادلة، التي يجب أن يتم لها من القوة والسلطان ما يمكن أن تقف بهما في وجه المعتدي في أي صقع من أصقاع العالم... ثم أنحى بالملائمة على بلاده، مصرحا، وسط المعمعة، وعلى صليل السيوف وانفجار القنابل، بأن شطرا كبيرا من مسئولية هذه المجزرة يقع على عاتق انجلترا، التي تريد أن تلتهم العالم كله.. وألا تترك منه لقمة واحدة لألمانيا.. ألمانيا التي لا تقل نشاطا وحيوية عن انجلترا، إن لم تزد عنها..

وذهل الانجليز... وعجبوا كيف يكتب رجل منهم... بل واحد من أبرز مفكريهم... هذا الكلام وينشره في كتاب.. لا يلبث أن يترجم إلى لغات العالم أجمع...؟... ولم يصبروا عليه.. بل عزلوه من منصبه كمحاضر في جامعة أكسفورد، بتهمة الدعوة إلى السلام، وممالأة الأعداء والحض على الثورة الداخلية بإلقاء السلاح... وكانت شهرة راسل قد سبقته إلى أمريكا... بل كان

صيته كواحد من كبار المفكرين الرياضيين المناطقة قد ملأ جامعات الولايات المتحدة كلها... تلك الجامعات التي حزنت أشد الحزن لهذه المعاملة السيئة التي عاملت بها انجلترا أحد أبنائها... بل أعظم هؤلاء الأبناء... وقد عينته جامعة هارفارد أستاذا بها بالفعل.. لكن الحكومة الانجليزية رفضت أن تأذن له بالسفر إلى أمريكا... لا نكاية فيه فقط، بل خوفا من أن ينشر فيها دعايته الواسعة للسلام، وفي وقت كانت انجلترا تركع على قدميها أمام الرئيس ولسن ليزج بأمريكا في الحرب إلى جانب الحلفاء، إنقاذا لهم من بطش الجيوش الألمانية..

على أن كتاب راسل... هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته العربية اليوم فقط... كان قد انتشر في العالم أجمع، وكانت الآراء التي جاءت فيه قد لقيت العناية التي هي جديرة بها من ساسة العالم ومفكريه أجمعين.

ثم وضعت الحرب أوزارها سنة ١٩١٨، واجتمع مؤتمر السلام، وكانت قراراته مهزلة المهازل، فثار راسل... وأخذ يهاجم الجشع الانجليزي، ويدعو إلى السلام الصحيح، بمقالات من نار، ومحاضرات في منتهى الجراءة، فقبضت عليه الحكومة وحاكته، وحكمت عليه بالسجن ستة أشهر... كانت خيراً وبركة على هذا الرجل العظيم... فقد قضاها وهو يؤلف مقدمته في الفلسفة الرياضية **Introduction to Mathematical Philosophy**.. ولما خرج من السجن زار روسيا، وعاد منها ليؤلف كتابه عن البلشفية عملا ونظرا... ثم سافر إلى الصين ليحاضر في جامعاتها بدعوة منها.. وهناك سر سرورا عظيما من طيبة نفوس الصينيين ونبل أخلاقهم.. لكنه حزن عندما رأى الحكومة الصينية تضطر إلى الأخذ (بنجاسات الغرب!) وأسلحته لتقاوم أطماعه! فعاد من الصين بعد أن كاد يموت فيها بالتهاب الرئة.

ثم دخل البرلمان الانجليزي... عضوا عن حزب العمال، سنتين ١٩٢٢،

١٩٢٣... ثم توفى أخوه فورث عنه لقب ايرل سنة ١٩٣١.. وهو طوال هذه السنين يؤلف الكتب العظيمة في الفلسفة الرياضية وغيرها... الكتب التي سيخلد بها اسمه، وإن لم يذكرها الساسة ورجال التربية وعلماء الاجتماع بجانب كتبه الجريئة التي يجفل منها الشياطين بسبب ما فيها من أفكار تقدمية لم يكن للعالم بها عهد من قبل.

ولقد أصبح يهتم بشئون التربية منذ أن صار والدا... وآراؤه فيها تقوم على نقد النظريات المختلفة، ثم تقرير مبادئ صريحة، كان يشتط فيها أول الأمر، إذ كان يدعو إلى الحرية المطلقة ينعم بها التلاميذ في جميع مراحل التعليم... والحرية المطلقة لا تعني شيئاً إلا الفوضى... وقد عاد أخيراً يعترف للمدارس بشيء من قسر التلاميذ على قدر من النظام، القائم مع ذاك على احترام شخصية المدرس والمدرسة، لا على تقديس ما يلقى على التلاميذ من آراء... بشرط أن يكون المدرس مستأهلاً لهذا الاحترام.

على أن الساسة والمصلحين لا ينسون هذا الكتاب بخاصة... وقد كان ذكرهم إياه بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، وحينما أخذوا يفكرون في تنفيذ اقتراحه بإنشاء عصبة الأمم.. فأنشأوها على نفس الأسس التي أشار بها، اللهم إلا فكرة أن يكون للعصبة قوة مسلحة، لأنهم لم يعرفوا كيف ينشئون هذه القوة... على أننا نعلم من تاريخ العصبة أنها أخفقت إخفاقاً ذريعا.. لأن شهوات الدول الكبرى تلاعبت بها، واتخذتها مطية لتحقيق أغراضها، مما دعا ألمانيا إلى احتقارها، والانسحاب منها... والعجيب أن جميع الأسباب التي ذكرها راسل، وحذر العالم من أنها هي التي تدفع به إلى الحرب... هي التي أشعلت نيران الحرب العالمية الثانية... وقد ذكرت الدول الكبرى كتاب راسل هذا مرة ثانية، فعادت إليه تدرسه في إمعان هذه المرة أيضاً... فلما

أنشئت هيئة الأمم المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان هذا الكتاب أشبه ببرنامج لها.. في كل شيء.. حتى في المساواة التامة بين الرجل والمرأة.. فلقد أقاموا مجلس الأمن على ما يقرب من الأسس التي اقترحها راسل، وأخذوا يعالجون مواضع الخلل في بنائهم الاجتماعي، وأباحوا الطلاق وإن جعلوه مدنيا بعيدا عن الدين، وعملوا على معونة الطبقات الممتازة من أهل الفكر مخافة أن تنقرض لخوف أبنائها من الزواج بسبب عجزهم المادي عن مقوماته، وإشفاقهم –في حالة الزواج– من كثرة النسل خوفا من كثرة الإنفاق وقلة الموارد، وأنشأوا البنك الدولي لإقراض الأمم المحتاجة أو المتخلفة، لتنفيذ الإصلاحات العمرانية الكبرى في مختلف بقاع الأرض، حينما تعجز الأمم منفردة عن تنفيذها، وأخذوا يعالجون عيوب التربية في الأمم الراقية والأمم المتخلفة على السواء، وأخذت تجارب التربية الأساسية تجرى في كثير من بقاع العالم.. ومن جملتها مصر. وأخذت مؤسسة اليونسكو تبث أضواء الثقافة وتنشر نور العرفان على أسس عالمية تهدف إلى التبشير بالإخاء الإنساني بين أهل الأرض جميعاً... الخ...

ولكن!.. هل عقلت الأمم الكبرى؟! وهل اتعظت من المجزرتين السابقتين! وهل كانت هيئة الأمم مبصرة يوم وافقت على قيام إسرائيل؟ ومحق الشعب العربي من فلسطين؟ وهل يصدر مجلس الأمن في جميع قراراته عن عدالة، وفي بعد عن مناورات الدول الكبرى؟ وهل خلا الطريق من الشوك، وسلمت النفوس من الدنايا؟ وإذا كانت الدول الكبرى لا تزال تدرس ما كتبه راسل في هذا الكتاب، مما سجنته انجلترا الاستعمارية من أجله، فهل جميع ما أشار به هو الصواب المطلق؟ وهل ما يشير به من قصر الميراث على البطن الأولى من الورثة رأي سليم؟ وهل ما كتبه في أمور الزواج وما إليه من الصلات الجنسية شيء يسيغه العقل؟ وهل قيام أسطول عالمي وجيش عالمي اقتراح عملي مأمون

المغبة بعد أن أقرت الدول قيام إسرائيل بتلك العقلية البغيضة الخالية من المنطق والعدالة وبعد النظر!..

وبعد أن رفض مجلس الأمن نظر قضية الجزائر الباسلة التي هبت تناضل الاستعمار الفرنسي البغيض، فسلطت عليها فرنسا أسلحتها التي عجزت عن رد الجحافل الهتلرية، فلما أخفقت هذه الأسلحة في إطفاء جذوة الوطنية الجزائرية، راحت فرنسا، مهد الحرية، تسلط أسلحة حلف الأطلنطي على الأحرار الجزائريين، وتحصد بها أرواح الأبرياء من الأطفال والنساء والعجائز... وهيئة الأمم تتفرج و... تسكت... ومجلس الأمن العاجز الأصم الأبكم... الألعوبة... ينظر مذهولا... ثم يرفض النظر في قضية من أهم القضايا التي أنشئ للنظر فيها... لأنها قضية حرية شعب، له حقوقه الإنسانية، كما لشعوب العالم جميعا حقوقها.

لنترك راسل يجيب... ولنترك القارئ ينظر فيما يشير به في هذا الكتاب.

المترجمان

تقديم

كتبت المحاضرات التالية في عام ١٩١٥ وألقيتها في أوائل عام ١٩١٦، وكنت آمل أن أعيد كتابتها بإفاضة بحيث تصبح أكثر ملائمة للموضوع الذي تعالجه لولا أعمال كانت أولى بالإنجاز استغرقت معظم وقتي وصرفتني عن ذلك الأمل الذي أرى أن فرصة انجازه لا تزال بعيدة التحقيق.

والمقصود من هذه المحاضرات هو اقتراح فلسفة سياسية تقوم على ما اعتقده من أن "النزعات[1]" أبعد أثرا في تكييف حياة الإنسان مما قد يقصده عن وعي وتفكير. ومعظم "النزعات" نوعان: نزعات اقتنائية وأخرى إنشائية. فإذا كانت "النزعة" تهدف إلى اقتناء شيء أو الاحتفاظ بشيء لا يمكن أن تكون ملكيته مشتركة فهي نزعة اقتنائية، وإذا كانت النزعة ترمي إلى خلق شيء ثمين من معرفة أو فن أو خير مثلا –وجميعها أشياء ليس فيها ملكية خاصة– فهي نزعة إنشائية. وعندي أن أسمي أنواع الحياة هي التي تقوم في غالب أمرها على النزعات الإنشائية، وأسوؤها ما يقوم على حب التملك. والأنظمة السياسية ذات أثر عظيم في ميول الناس، ولهذا وجب تكييفها بحيث ترتقي بالنزعات الإنشائية على حساب النزعات الاقتنائية. فالدولة والحرب والملكية هي الرموز السياسية الكبرى التي تتمثل فيها النزعات الاقتنائية. أما التعليم والزواج والدين فيجب أن تتمثل فيها النزعات الإنشائية، ولو أنها الآن تؤدي ذلك بصورة قاصرة تماما، أن تحرير النشاط الإنشائي ينبغي أن يكون أساس الإصلاح في شئون السياسة وفي شئون الاقتصاد على السواء، وهذه العقيدة التي أؤمن بها هي التي حدت بي إلى كتابة هذه المحاضرات.

---

(1) **Impulse** تترجم هذه الكلمة عادة إما بدافع أو باعث ولكن السياق هنا يعني نزعة ففضلناها..

الفصل الأول

أساس النمو

يكان من أثر الحرب أو كل أولئك الذين لديهم استعداد لتقبل الأفكار والآراء الجديدة قد تطورت اعتقاداتهم وآمالهم السابقة تطورا يتوقف كنهه على طبيعة كل منهم وظروفه، وعندي أن أهم ما نخرج به من دروس هذه الحرب(١) هو وجهة نظر معينة في مصادر التصرفات البشرية وماهية هذه المصادر، وما عسى أن تصير إليه مستقبلا في الحدود المعقولة؛ ويخيل إلي أن وجهة النظر هذه يمكن –إذا كانت صحيحة– أن تكون أساساً لفلسفة أكثر قدرة على الثبات في أوقات الشدة مما أسفرت عنه سياسة الأحرار(٢) التقليدية.

وعلى الرغم من أن محاضرة واحدة فقط من هذه المحاضرات هي التي تعالج موضوع الحرب إلا أنها جميعاً نبتت من فكرة في أسباب التصرفات البشرية أوحت بها الحرب. وقد حدا بي إلى تدوين هذه المقالات أملي في أن أرى أوربا يوما وقد تأصلت فيها أمثال تلك النظم السياسية الواردة في تلك المحاضرات بحيث تجعل الناس ينفرون من الحرب. وهو أمل اعتقد اعتقادا جازما أنه ممكن التحقيق، وأن تطلب هذا منا جهودا ضخمة لهدم الحياة الاقتصادية والحياة السياسية ثم إعادة بنائهما من جديد.

والشخص الذي يقف بمنأى عن مضطرب المعتقدات والشهوات التي تجعل

---

(١) يعني الحرب الكبرى الأولى.

(٢) Traditaional Liberalism.

الحرب تبدو ضرورية، يجد نفسه في عزلة لا معدي عنها.. عزلة هي الانفصال الذي لا يكاد يطاق عن نشاط الحياة العامة. ففي نفس اللحظة التي كانت فيها الطامة الشاملة تثير في النفس أشد ألوان الألم، كان هذا الألم ذاته يرغم الإنسان على أن ينأى نفسه عن هذه الموجة من الانتحار التي اجتاحت أوربا. أن تشوفنا الذي لا طائل وراءه إلى إنقاذ البشرية من هذا الدمار الذي تسارع نحوه ليقضي علينا بالوقوف في وجه التيار، وما يتبع ذلك من عداء الناس لنا واتهامهم إيانا بتحجر الإحساس، وفقداننا القدرة على اكتساب ثقة الغير. أنه ليستحيل علينا أن نمنع الناس من الشعور بالعداء بالفهم الصحيح وما ينشأ عنه من مشاركة الغير في عواطفهم، أما إذا أعوزنا ذلك الفهم وتلك المشاركة، فمحال أن نجد علاجا للشرور التي يعانيها العالم.

وثمة رأيان في الحرب يبدو لي أنهما غير سليمين: أحدهما هو ذلك الرأي المألوف في بلادنا، والذي يعزو الحرب إلى ما فطر عليه الألمان من شرح، والثاني هو ما يذهب إليه معظم دعاة السلم من أن الحرب نتيجة من نتائج التعقيدات الدبلوماسية وأطماع الحكومات، وأحسب أن كلا الرأيين أبعد من أن يحددا لنا مدى تأصل الحرب في طبيعتنا البشرية العادية، فالألمان وأولئك الذين تتكون منهم الحكومات هم، إذا حكمنا بمستواهم العام، بشر عاديون يخضعون للانفعالات نفسها التي يخضع لها غيرهم، ولا يختلفون عن سواهم إلا في الظروف المحيطة بهم، كما أن غير الألمان، ومن ليسوا دبلوماسيين، يتقبلون الحرب بسهولة وفي إذعان، ويسلمون بأسباب لقيامها غير صحيحة ولا كافية وما كان هذا أمراً ممكنا لو أن هؤلاء الناس كانوا ينفرون من الحرب حقيقة؛ أن الأشياء غير الصحيحة التي يصدقها الناس، والأشياء الصحيحة التي لا يصدقونها، لهي دليل واضح على اتجاه نزعاتهم، ولا أقصد هنا نزعاتهم كأفراد بل

نزعاتهم كجماعات– إذ أن النزعة معدية. فنحن كثيرا ما نؤمن بما لا يقوم على صحته دليل أو برهان، لأن طبيعتنا تشتهي –على غير وعي منا– أنواعا معينة من النشاط لا تستساغ عقلا إلا إذا اعتقدنا صحة أشياء لا يقوم على صحتها برهان. أن هذه المعتقدات التي لا أساس لها هي القربان الذي تقدمه النزعة إلى العقل، وهكذا يؤمن العقل بالمعتقدات المتضاربة، وأن تشابهت، وهي المعتقدات التي تجعل الناس هنا وفي ألمانيا يؤمنون بأن واجبهم يقتضيهم إشعال نار الحرب.

ولعل أول ما يتبادر إلى ذهن من يسلم بصحة هذا التفسير، أن من الخير للبشر لو أننا حكمنا عقولنا أكثر مما نفعل الآن، فإن الحرب –في نظر الذين يؤمنون بأن شرها المستطير لابد أن يصيب جميع المتحاربين بأضرار لا يتصور مداها– تبدو جنونا مطبقا ولوثة جماعية تنسى الناس كل ما تعلموه في وقت السلم. فلو أن الناس سيطروا على نزعاتهم ولم يسمحوا لانفعالاتهم بأن تهمين على عقولهم، لوقاهم ذلك من التفكير فيما يقود إلى الحرب، ولأمكنهم تسوية نزاعاتهم بالطرق الودية. أن هذا كله صحيح، ولكنه وحده غير كاف.

إن أولئك الذين تحولت لديهم الرغبة في الوصول إلى المعرفة الصحيحة فصارت انفعالا، هم وحدهم القادرون على ضبط مشاعرهم والتحكم في نزعاتهم التي تقود إلى المذابح البشرية. إذ لا يستطيع الوقوف على وجه انفعال إلا انفعال آخر، ولا يحد من نزعة أو رغبة إلا نزعة مضادة.

فالعقل –كما يبشر به الأخلاقيون التقليديون– سلبي قصير الأمد، قاصر عن أن يمهد السبيل لحياة رغدة. ولهذا لا يستطيع العقل وحده أن يمنع الحرب. بل أن الأمر في حاجة إلى أكثر من ذلك، في حاجة إلى خلق مجموعة حية إيجابية من النزعات والشهوات مضادة للنزعات والشهوات التي تقود إلى الحرب. أن

السبيل الذي تسلكه النزعة هو الذي يجب أن يتغير، وليس الطريق الذي يسلكه التفكير الواعي فحسب.

وتنبثق جميع أنواع النشاط الإنساني من مصدرين: النزعة والرغبة. والدور الذي تقوم به الرغبة في حياة الإنسان مسلم به بما فيه الكفاية. فعندما يجد الناس أنهم لا ينالون من الحياة ما يرضيهم كل الرضا، وأنهم يعجزون عن الحصول في الحال على ما يرضيهم، فإنهم يتصورون أشياء يعتقدون أن تحقيقها يجلب لهم السعادة. ولابد لتحقيق الرغبة من فترة من الزمن تمضي بين الشعور بالحاجة إلى الشيء المرغوب فيه وفرصة الحصول عليه. هذا وقد تكون الأفعال التي توحي بها الرغبة مؤلمة في حد ذاتها، وقد يكون الوقت الذي يمر قبل تحقيق الرغبة طويلاً، وقد يكون الشيء المرغوب فيه خارج نطاق حياتنا، بل ربما كان بعد انتهائها. والإرادة –كقوة موجهة– تهدف أول ما تهدف إلى متابعة تنفيذ الرغبة، التي قد تكون بعيدة أو قريبة المنال، على الرغم من أن بعض الأفعال التي يتطلبها تحقيق الرغبة تكون مؤلمة، وعلى الرغم أيضاً من الرغبات المؤقتة والنزعات المخالفة التي قد تغرى بالتحول عن تحقيق الرغبة الأصلية. كل هذا أمر عادي معروف، وتقوم فلسفة الحكم التقليدية كلها تقريبا حتى الآن على الرغبة بوصفها مصدر التصرفات البشرية.

ولكن الرغبات لا تتحكم إلا في جزء من النشاط الإنساني، وهو الجزء الواعي الواضح المتمدين، وليس الجزء الأكثر أهمية. أما الجزء الغريزي من طبيعتنا فتتحكم فيه نزعات تدفعنا نحو أفعال بذاتها، لا رغبات. فالطفل يجري ويصيح ليس لأنه يتوقع تحقيق رغبة أو فائدة، ولكن لأن نزعة لديه تدفعه إلى الجري والصياح بالذات؛ والكلاب تنبح في ضوء القمر لا لأنها ترجو من وراء ذلك مصلحة، ولكن لأنها تشعر بنزعة تدفعها إلى ذلك. فنحن عندما نقوم

ببعض الأفعال كالأكل والشرب والزواج والمشاجرة والتفاخر لا نقصد من ورائها غرضا ما، بل هي النزعات تدفعنا إلى ذلك دفعا. أن أولئك الذين يعتقدون أن الإنسان حيوان عاقل سيقولون أنه إنما ينزع إلى المباهاة ليرفع من شأنه في نظر الآخرين؛ ولكن معظمنا يستطيع أن يتذكر مناسبات نزع فيها إلى المباهاة رغم يقينه أنه سيقابل بالاحتقار من أجلها. أن الأعمال الغريزية تحقق عادة بعض النتائج التي يستريح إليها الرجل الطبيعي، ولكنه لا يقوم بهذه الأعمال رغبة في هذه النتيجة، إذ أن هذه الأعمال تدفع إليها نزعات كثيراً ما تكون قوية إلى درجة تدفعنا إلى التصرف تصرفا معينا حتى لو كانت النتائج المرغوب فيها غير ممكنة التحقيق عادة.. ويحب الرجل أن يتصور أنه يحكم عقله في تصرفاته أكثر مما يفعل الطفل أو الكلب، وهو يخفي عن نفسه –على غير وعي منه– الدور الكبير الذي تلعبه "النزعات" في حياته، ويتبع في ذلك خطة تكاد تكون واحدة في جميع الحالات. "فالنزعة" إذا لم يترك لها العنان في اللحظة التي تجيش فيها، نشأت في النفس رغبة تحل محلها لتحقيق النتائج التي كانت النزعة تهدف إليها. فإذا كانت هذه النتائج ضارة، نشأ صراع بين "النزعة" والبصيرة. وقد تنتصر البصيرة إذا كانت النزعة ضعيفة. وهذا ليس بتحكيم العقل. وإذا كانت "النزعة" قوية، فإما أن يموه الإنسان على البصيرة، ومن ثم يتجاهل العواقب الضارة، أو يتحمل النتائج أياً كانت، إذا كان مفطوراً على الشجاعة.

ولكن مثل هذه الشجاعة وهذا الاندفاع في النزعة أمر نادر، فمعظم الناس عندما تشتد فيهم النزعات ينجحون في إقناع أنفسهم عن طريق الانتخاب اللاشعوري للانتباه عادة بأن عواقب تحقيق نزعاتهم غير ضارة. وقد قامت مذاهب فلسفية وأخلاقية كاملة على هذا التمويه. وهي مذاهب ليست في

الواقع إلا ثمرة لتفكير طغت عليه النزعة فجعلت منه مطية، بحيث تجعل لها مبررا فتصير أشبه بالتصرفات المبنية على العقل. إذ أن التفكير السليم الوحيد هو ما ينبثق من نزعة حب الاستطلاع التي تؤدي إلى الرغبة في المعرفة والفهم. ولكن معظم ما نعتقد أنه عمل ذهني مجرد ليس في الواقع سوى إيجاد نزعات لا تمت إلى المعرفة بصلة، وهو ليس سوى وسيلة نقنع بها أنفسنا أننا إذا أذعنا لهذه النزعة فلن نصاب بخيبة أمل أو نعمل شرا.

وعندما نكبت نزعة ما فإننا نشعر بانزعاج، بل ربما شعرنا بألم شديد. وقد نسمح بتحقيق النزعة لنتخلص من هذا الألم، وعندئذ يصبح تصرفنا مبنيا على غرض. ولكن الألم لا يوجد إلا بسبب النزعة، والنزعة موجهة نحو تصرف ما، وليس نحو التخلص من الألم الناشئ عن كبتها. فالنزعة نفسها تظل بدون غرض، أما غرض التخلص من الألم فهو لم يوجد إلا نتيجة للكبت المؤقت.

وتلعب النزعات دوراً أكبر مما تلعبه الرغبات كمصدر لنشاطنا.. ولا شك في أن للرغبات قسطا في توجيه هذا النشاط، ولكنه ليس كبيراً كما يبدو، فالنزعة عادة تجر وراءها سلسلة من الرغبات الوهمية التابعة لها، وهذه الرغبات تجعل الشخص يعتقد أنه إنما يهدف إلى تحقيق نتائج بذاتها، والواقع أن تحقيق هذه النتائج هو استجابة للنزعة التي لا دافع لها خارج ذاتها. فالإنسان قد يؤلف كتابا أو يرسم صورة، معتقدا أنه إنما يفعل ذلك رغبة منه فيما قد يصيبه من ثناء، ولكنه سرعان ما يفقد اهتمامه بما أتم، ليبدأ عملاً جديداً، إذا كان عمله الأول لم يفلح في إشباع النزعة الإنشائية لديه.

وما ينطبق على الإنشاء الفني هو نفسه ما ينطبق على جميع تصرفاتنا الحيوية، فالنزعات المباشرة هي التي تحركنا، أما الرغبات فليست إلا ستارا للنزعات.

وللرغبة، باعتبارها نقيضا للنزعة، نصيب كبير متزايد في تنظيم حياة الناس، فالنزعة فوضوية لا هدف لها، وليس من اليسير إخضاعها لنظام معين. وقد يمكن التجاوز عنها في الأطفال والفنانين، ولكن الشخص الذي يريد أن يتسم بالوقار لا يستطيع أن يترك لنزعاته العنان. ومعظم الأعمال التي يؤجر عليها الإنسان تدفع إليها الرغبة، لا النزعة، وقد يكون العمل في ذاته مرهقا مملا، ولكن الأجر مرغوب فيه. وألوان النشاط الجدي التي تملأ ساعات العمل عند الإنسان تتحكم فيها غالبا الأغراض، لا النزعات، وذلك إلا في حالات نادرة لبعض سعداء الحظ. وبما أن مكانة النزعة في الحياة الراضية غير معترف بها فقلما يعترض أحد على ذلك.

وتبدو النزعة –لمن لا يشترك فيها فعلا أو بخياله– كحالة من حالات الجنون. فالنزعات أولا وقبل كل شيء عمياء لا تأبه للنتائج ولا تقيم وزنا لها. وقد يبدو هذا الاختلاف في وجهات النظر مسألة مبدأ أخلاقي أو مذهب عقلي، بينما هو في الحقيقة ناشئ عن اختلاف النزعات. وطالما بقى هذا الاختلاف فلن تتلاقى وجهات النظر. فكل أولئك الذين يعيشون حياة نشيطة قوية ينشأ لديهم نوع من النزعات يبدو لغيرهم جنونا. والنزعات العمياء قد تؤدي بصاحبها إلى الهلاك في بعض الأحيان، ولكنها أحيانا تؤدي إلى أجمل ما تحويه الحياة. فالنزعات العمياء هي سبب الحرب، ولكنها أيضا مصدر العلم والفن والحب. فليس المطلوب هو إضعاف النزعات، ولكن توجيهها التوجيه الصحيح نحو الحياة والنمو، لا نحو الدمار والانحلال.

إن تحكم الإرادة المطلق في النزعات، وهو ما يبشر به الأخلاقيون أحياناً، والذي تكرهنا عليه الحاجة الاقتصادية في معظم الأحوال، ليس في الواقع أمرا مرغوبا فيه. فالحياة التي تتحكم فيها الأغراض والرغبات فقط، وتكبت

النزعات، لهي حياة جافة، تنقصها الحيوية، وتترك الشخص في نهاية الأمر غير مكترث حتى بالأهداف والرغبات التي أراد أن يحققها. وعندما يعيش شعب بأسره على هذا الأسلوب، فإنه يتحول إلى شعب ضعيف، ويفقد القدرة على تمييز العقبات التي تحول دون تحقيق رغباته، والتغلب عليها ويعمل التصنيع والتنظيم باستمرار على إرغام الشعوب المتمدينة على أن تحيا أكثر فأكثر حياة توجهها الأغراض دون النزعات. وتكون نتيجة مثل هذه الحياة، أن تصبح بمضي الزمن جرداء خاوية، أو أن تنشأ نزعات جديدة غير تلك التي تعودت الإرادة كبحها، أو غير تلك التي يستطيع أن يدركها العقل الواعي، وهذه النزعات الجديدة خليقة بأن تكون أسوأ أثرا من تلك التي كبتت. فالمغالاة في أخذ النفس بالنظام الشديد كثيراً ما ينجم عنها نزعات تدفع للقسوة والتدمير، وبخاصة إذا كان هذا النظام تفرضه قوة خارجة عن الشخص؛ وهذا هو أحد الأسباب في أن الروح العسكرية تترك أثرا سيئاً في الشعوب. فالنزعات التلقائية إذا لم تجد متنفسا، كانت نتيجتها على الدوام تقريبا إما قضاء على الحيوية، أو نشوء نزعات اعتدائية وضد الحياة.

ونزعات الشخص لا تحددها طبيعته منذ ميلاده، ولكنها تتأثر إلى حد بعيد بطريقة حياته والظروف المحيطة به. لذلك يجب دراسة طبيعة تأثر النزعات بهذه العوامل، وأن تؤخذ نتائج هذه الدراسة بعين الاعتبار عند الحكم على آثار النظم السياسية والاجتماعية، ومقدار صلاحيتها.

والحرب لا تنشأ عن رغبة أو تعقل، بل تنشأ في غالب الأمر عن النزعات. فهناك نزعة اعتداء، ونزعة مقاومة الاعتداء. وقد تتفق إحداهما أحيانا وما يمليه العقل، ولكنهما والعقل على طرفي نقيض في حالات كثيرة. وينشأ مع كل نزعة مجموعة من المعتقدات المصاحبة لها. ونستطيع أن نرى المعتقدات التي تصاحب

نزعة الاعتداء في برنهاردي **Bernhardi** وفي عقائد الفاتحين المسلمين الأوائل[1]. وترى على شكل أوضح في سفر يوشع. فهناك أولا ذلك الاعتقاد في التفوق الأسمى للمجموعة التي ينتمي إليها الشخص، ويقينه أنها هي الشعب المختار. وهذا يبرر ما يشعر به من أن ما يصيب شعبه من خير أو شر هو وجده الجدير بالاهتمام الحقيقي، وأن باقي العالم ليس إلا ميدانا يعرض فيه الشعب المختار قوته. ونجد هذا الاتجاه في الشئون السياسية الحديثة، فمثلا في مذهب التوسع الاستعماري (الامبرياليزم). تقف أوربا كلها هذا الموقف من أفريقيا وآسيا، ويقفه الألمان من باقي شعوب أوربا نفسها.

وتسير جنبا إلى جنب مع نزعة الاعتداء، نزعة أخرى هي نزعة أخرى هي نزعة مقاومة الاعتداء، ونجد هذه النزعة ممثلة بوضوح في شعور الإسرائيليين نحو سكان فلسطين القدماء، وشعور أوربا في القرون الوسطى نحو المسلمين. وينشأ عن هذه النزعة اعتقاد في أن أولئك الذين يخشى اعتداؤهم قد فطروا على الشر الذي لا مثيل له، واعتقاد فيما للعادات القومية التي يقضي عليها هؤلاء المعتدون إذا أتيح لهم النصر من قيمة عظمى. فعندما اندلعت الحرب في أوربا بدأ الرجعيون في انجلترا وفرنسا يتحدثون عن الديمقراطية على الرغم من أنها حتى هذه اللحظة التي قامت فيها الحرب كانوا يحاربون الديمقراطية بكل قواهم. وهم ليسوا منافقين فيما يقولون، فنزعة مقاومة اعتداء ألمانيا جعلتهم يقدرون كل ما يخشى عليه من هجوم الألمان. فهم قد بدأوا يحبون الديمقراطية لأنهم

---

(1) لم يكن الذي دفع المسلمين في صدر الإسلام إلى فتح فارس والشام ومصر، وبعد ذلك ما وراء هذه الأقطار، هو نزعة الاعتداء التي اتهمهم بها المؤلف العظيم، ولكن ذلك كان لتامين الدولة الإسلامية التي أنشأها الرسول (ﷺ) وما بلغ خليفته أبا بكر وعمر من استعداد الفرس والروم للقضاء عليها قبل أن تقضي عليهم.. ومن هنا كان الفتح الذي خلص الشعوب المفتوحة من مظالم لا ينكرها المؤرخون (المترجمان).

يكرهون الألمان، واعتقدوا أنهم إنما يكرهون الألمان لحبهم الديمقراطية.

وقد سادت النزعتان المتلازمتان، نزعة الاعتداء ونزعة مقاومة الاعتداء، في جميع الدول التي اشتركت في الحرب، أما أولئك الذين لم تسيطر عليهم إحدى هاتين النزعتين فيمكن تقسيمهم على وجه التقريب إلى فئات ثلاث. فهناك أولا أولئك الذين يشعرون بالكراهية ضد الدولة التي تحكمهم، وهذه الفئة تشمل الأرلنديين والبولنديين والفنلنديين واليهود وأفراد الشعوب المحكومة الأخرى. ونستطيع أن نسقط هؤلاء الناس من حسابنا فيما يتعلق بالموضوع الذي نعالجه، إذ أن لديهم نفس النزعات التي لدى المتحاربين، ولا يختلفون إلا في الظروف المحيطة بهم.

وتتكون الفئة الثانية ممن لا يظاهرون الحرب من أولئك الذين استكانت نزعاتهم. ويفترض أنصار الحرب أن جميع دعاة السلام -باستثناء من يعملون لحساب ألمانيا- ينتمون إلى هذه الفئة. فالاعتقاد السائد هو أن دعاة السلام قوم عديمو الإحساس ولا حمية لديهم، فهم يستطيعون أن ينظروا إلى الأمور ويناقشوها عقلياً في هدوء وكأنما الأمر لا يهمهم، بينما إخوانهم يجودون بأرواحهم في سبيل الوطن. ومن الجائز أن يصدق هذا على بعض دعاة السلام السلبيين الذين يقتصرون على الامتناع عن الاشتراك في المجهود الحربي. وأنا أعتقد أن أنصار الحرب على حق في التنديد بمثل هؤلاء الناس. فعلى الرغم من كل الدمار الذي تسببه النزعات التي تؤدي إلى الحرب، فإن مجال الأمل أوسع أمام شعب لديه هذه النزعات منه أمام شعب ماتت لديه كل النزعات. إن النزعة هيا لصورة التي تتجلى فيها الحياة، وطالما كانت موجودة فهناك أمل في أن يتجه التطور نحو الحياة، بدلاً من أن يتجه نحو الفناء، ولكن انعدام النزعات هو الفناء ذاته، ولا يمكن أن تنشأ حياة جديدة من العدم.

أما دعاة السلام العاملون فليسوا من هذه الفئة، فهم قوم لا تنقصهم النزعات الدافعة، ولكن نزعاتهم تدفع إلى النفور من الحرب، نزعات فيها من القوة ما يكفي للتغلب على نزعة الحرب. أن الرجل الذي يقذف بنفسه معترضا تيار الشعور الوطني، الرجل الذي يدافع عن قضية يخيل للناس أن لا رجاء فيها، ويعرض نفسه لقدح الناس فيه ويقاوم عدوى الشعور الجماعي، ليس رجلا تنقصه الحمية. إن النزعة التي تدفع إلى تجنب معاداة الرأي العام هي من أقوى النزعات في الطبيعة البشرية، ولا يتغلب عليها إلا نزعة مباشرة قوية لا تعرف حسابا للعواقب. أن التفكير الهادئ لا يستطيع وحده أن يدفع إلى عمل مثل هذا.

ويمكن تقسيم النزعات إلى نوعين، نزعات تعمل للحياة، وأخرى تؤدي إلى الفناء. والنزعات التي تدفع إلى الحرب هي من بين النزعات التي تؤدي إلى الفناء. وأي نزعة من تلك التي تعمل للحياة، إذا بلغت حدا كافيا من القوة، تدفع الشخص إلى أن يقف ضد الحرب. وبعض هذه النزعات لا يمكن قويا إلا لدى من بلغوا شأوا بعيدا من الرقي، وبعضها يشترك فيه جميع البشر. ومن رقي النزعات التي تعمل للحياة تلك التي تدفع نحو الفن والعلم، فكثير من الفنانين ظلوا بمنأى تماما عن شهوة الحرب، ولم يكن هذا ضعفا منهم ولكن لأن غريزة الخلق والسعي نحو تحقيق المثل، تجعلهم أحرص من أن يجرفهم تيار الشهوة الوطنية، فلا يستجيبوا للأساطير التي تختفي خلفها نزعة الاعتداء. وكذلك القلائل الذين تهيمن عليهم النزعة العلمية، فقد تنبهوا إلى الخرافات التي يسوقها كل من الطرفين المتحاربين لتأييد وجهة نظره، وقادهم الفهم الصحيح إلى الوقوف على الحياد. ولكن هذه النزعات، التي لا توجد إلا عند صفوة من الناس- لا تكفي وحدها لخلق قوة شعبية تستطيع تغيير العالم.

وهناك ثلاث قوى لا تحتاج إلى مواهب عقلية ممتازة تعمل إلى جانب الحياة، وليست هذه القوى نادرة الوجود في الوقت الحاضر، وقد تصبح أكثر شيوعا في ظل نظم اجتماعية أفضل. وهذه القوى هي الحب، وغريزة الإنشاء، والشعور ببهجة الحياة، والقوى الثلاث تكبحها وتضعفها في الوقت الحاضر الظروف التي يعيش فيها الناس، يستوي في ذلك سيء الحظ منهم، وغالبية القادرية فيهم. فنظمنا تقوم على الجور والسلطة، ونحن إنما نتغاضى عن وجود ألوان العسف والجور، التي نستفيد منها، لأننا نخلي قلوبنا من الرحمة، ونعمي عقولنا عن الحقيقة. أن الفكرة التقليدية عن مقومات النجاح تؤدي بمعظم الناس إلى حياة يضحون فيها بأكثر النزعات حيوية، فتفقد الحياة بهجتها، ويصبحون مرهقين فاتري الهمة، فنظامنا الاقتصادي يقضي على جميع الناس تقريبا بأن يكرسوا أنفسهم لخدمة أهداف غيرهم، ويجعلهم يشعرون بالعجز، غير قادرين على الحصول إلا على النزر اليسير من السرور الذي لا فضل لهم فيه، وكل هذه الأشياء تقضي على حيوية الجماعة، وعلى أتساع الأفق الوجداني للفرد وقدرته على مواجهة الدنيا في عزة. وكل هذه الأشياء لا ضرورة تحتم وجودها، ويمكن القضاء عليها بالحكمة والشجاعة، فإذا قضى عليها تغيرت النزعات في الناس تغير كليا، وسار الجنس البشري نحو آفاق جديدة من السعادة والحيوية. والغرض من هذه المحاضرات هو العمل على تحقيق هذه الغاية.

أن نزعات الشخص ورغباته، من حيث هي عوامل أساسية في حياته، ليست منفصلة عن بعضها، فهي تنبعث جميعا من مصدر أساسي للنمو، وهذا المصدر هو ضرورة غريزية ملحة توجهها وجهة معينة، كما تتجه الأشجار نحو الضوء. وطالما ظلت هذه الحركة الغريزية تسير نحو هذا الهدف

لا يعترضها عائق، فإن ما قد يحدث من عثرات ليس كارثة أساسية، ولا ينشأ عنه التشويه الذي ينجم عن وجود عائق يحول دون النمو الطبيعي للشخص. ويجب علينا أن ندرك بخيالنا ذلك المصدر الأساسي المستقر في صميم كل كائن بشري، إذا أردنا أن نفهم الإنسان فهما أساسه البصيرة، ويختلف هذا المصدر من شخص إلى آخر، ويحدد لكل شخص الناحية التي يستطيع أن يتفوق فيها. وخير ما يمكن أن تفعله النظم الاجتماعية للفرد هو أن تترك نموه حرا نشيطاً، فهي لا تستطيع أن تفرض عليها أن ينمو على نمط شخص آخر. ويوجد في الإنسان بعض النزعات والرغبات التي لا تنبعث عن المصدر الأساسي مثل الميل نحو المخدرات، ويجب أخذ النفس بالشدة والقضاء على مثل هذه النزعات إذا بلغت حد الضرر. وهناك نزعات أخرى مبعثها المصدر الأساسي عند بعض الأشخاص، ولكنها ضارة بنمو الآخرين، وهذه أيضاً يجب أن تكبح لمصلحة الغير، ولكن غالبا ما يكون السبب في نشوء هذه النزعات هو أن أصحابها اعترض نموهم الطبيعي عائق، وهي قلما توجد عند من لا يحول شيء دون نموهم.

والأشخاص مثل الأشجار، يفتقر نموهم إلى التربة الصالحة، وإلى قدر كاف من الحرية، والنظم السياسية تستطيع أن تساعد أو تعرقل هين العاملين لدى الإنسان، ولو أن تهيئة التربة والحرية اللازمتين لنمو الإنسان أصعب بكثير من تهيئة التربة والحرية اللازمتين لنمو الشجرة. ولا يمكن تحديد المدى الكامل للنمو الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان إذا تهيأت له الظروف، فالأمر معقد محير للفهم، وليس من سبيل إلى إدراكه إلا عن طريق الإحساس به بواسطة وجدان رقيق، وفهمه بصورة ما عن طريق التخيل، فهي لا تعتمد على البيئة المادية فحسب، بل هي لا تعتمد على هذه البيئة بصفة أساسية، بل تعتمد على

المعتقدات والوجدان، والفرص المتاحة لمزاولة النشاط، وعلى كل ما يتعلق بحياة الجماعة. وكلما كان حظ الإنسان من المدنية والتقدم أكثر، زادت عوامل نموه تعقيدا، وزاد تأثر هذه العوامل بالحالة العامة للجماعة التي يعيش فيها. فحاجات الشخص ورغباته –إذا كان واسع الأفق عميق الإدراك– لا تقتصر على ما يتعلق بشخصه فقط، فإن ما يصيب الجماعة التي ينتمي إليها من إخفاق أو نجاح يصبح إخفاقا أو نجاحا شخصيا له، يعوق الأول نموه، ويغذيه الثاني.

وتعرقل بعض النظم الموروثة عن عصر أكثر بساطة مصدر النمو عند معظم الناس في العصر الحاضر. فقد نشأت إمكانيات جديدة للنمو عن تقدم الفكر والمعرفة، وعن زيادة التحكم في القوى المادية، وقد أدت هذه الإمكانيات إلى ظهور مطالب جديدة يجب العمل على إشباعها، إذا أردنا ألا يتوقف نمو أصحاب هذه المطالب، لقد قل الإذعان للقيود التي لا مناص منها، كما قل الأمل في حياة طيبة طالما بقيت هذه القيود. فإن النظم التي تمنح بعض الطبقات فرصاً أوسع من غيرها لم تعد الطبقات الأخرى الأقل حظا تعتبرها نظما عادلة، على الرغم من أن الطبقات المحظوظة لم تزل تدافع عنها بكل قواها، ومن هنا ينشأ صراع عالمي تجند فيه السلطة والتقاليد ضد الحرية والعدل. وتفقد المبادئ الأخلاقية المعترف بها أثرها على الطبقات الثائرة لأن هذه المبادئ جزء من التقاليد التي تحاربها هذه الطبقات. وقد أصبح التعاون مستحيلاً بين المدافعين عن القديم، والداعين إلى الجديد. واعترى كل العلاقات بين الناس انفصام في الصميم لا ينفك يتزايد يوما بعد يوم بشكل ملحوظ. وقد ازداد عجز الناس –بسبب انشغالهم بمعركة الحرية– عن تحطيم الحواجز التي تقيمها (الأنا)، وتحقيق النمو الذي ينشأ عن اتحاد حيوي حقيقي.

وترجع نظمنا كلها إلى مصدر تاريخي واحد هو (السلطة)، فالسلطان المطلق الذي كان يتمتع به الحاكم الشرقي المستبد كان يقابله من الناحية المدنية الإله الواحد الذي لا حد لقدرته والذي كان تمجيده هو غاية ما يهدف إليه الناس، والذي لا حق لإنسان قبله.

وقد آل هذا السلطان إلى الإمبراطور والبابا، وإلى ملوك العصور الوسطى، وإلى نبلاء النظام الإقطاعي، بل إلى أب وزوج في علاقته مع أولاده وزوجته. وتجسد السلطان الإلهي في سلطان الكنيسة، وقامت الدولة والقانون على سلطة الملك، ونشأت الملكية الفردية في الأراضي من سلطة سادة الإقطاع المنتصرين، وتحكمت في الأسرة سلطة رب العائلة الذي محته القوانين الرومانية مختلف الحقوق.

وما كانت النظم السائدة في العصور الوسطى لتسمح إلا لنفر ضئيل من المحظوظين أن ينموا بحرية، وكانت الغالبية العظمى لا تعيش إلا لخدمة هذا النفر القليل. وقد ظل مجتمع العصور الوسطى متماسكا وليس في أساسه ما يقوضه، وذلك طالما كان احترام السلطة حقيقيا صادرا من الأعماق، يشعر به كل فرد من الخاضعين لهذه السلطة، إذ كان ما يبدو من إذعان الناس لا يتعارض وشعورهم الداخلي بالحرية، لأنه كان إذعانا عن طواعية وطيب خاطر، والسبب في هذا أن نظم المسيحية الغربية استندت فيما استندت إليه إلى نظرية كان الإيمان بصحتها أكثر من الإيمان بأية نظرية تساق للدفاع عن نظمنا الحالية.

وقد انهارت الأسس التي قامت عليها الحياة في العصور الوسطى لأنها عجزت عن أن توفر للناس ما يطلبون من عدالة وحرية. ولما تجاوز الحكام حدود سلطاتهم النظرية، اضطر ضحاياهم –تحت ضغط الاضطهاد– إلى أن يتذكروا أن لهم هم أيضاً حقوقا، وأن ليس هناك ما يبرر أن تصبح حياتهم وقفا

على خدمة هذا النفر القليل من الحكام. وقد ظهر بالتدريج أن الناس يسيئون استعمال السلطة غالبا إذا وقعت في أيديهم، وأن السلطة عند ممارستها تصبح استبدادا. ولما أبى أصحاب السلطان على الناس ما طلبوه من عدالة، تفرق الناس شيعا، تقاتل كل منها في سبيل حقوقها هي وحدها، فلم تكن تؤلف مجتمعا أصيلا، يؤلف بينه هدف حيوي مشترك. وعدم وجود هذا الهدف المشترك أصبح مصدرا من مصادر الشفاء. وأحد الأسباب التي حدت بكثير من الناس إلى الترحيب بنشوب الحرب الحالية[1] أنها جعلت من كل شعب مرة أخرى مجتمعا واحدا يجمعه هدف مشترك. وقد أدت الحرب إلى ذلك بعد أن قضت -إلى وقت ما- على تباشير هدف مشترك للعالم المتمدين أجمع، إلا أن هذه التباشير كانت لا تزال ضعيفة إلى حد أن القضاء عليها لم يترك أثراً شديدا إلا في نفر قليل. وقد ابتهج الناس بهذا الشعور الجديد بوحدة مجتمعهم أكثر مما أسفوا للتباعد الذي قام بينهم وبين أعدائهم.

إن القتال في سبيل الحرية اقتضى أن يكون الناس أقسى قلوبا وأكثر تباعدا عن بعضهم، ولا ينتظر أن يزول هذا الأثر تماما في المستقبل، وإذا أردنا أن ينمو مجتمع تدب فيه الحياة فلا مناص من أن نغير نظمنا من أساسها بحيث تتضمن احترام الفرد وحقوقه، الأمر الذي يتطلبه الشعور الحديث. فقد ألغت إمبراطورية العصور الوسطى وكنيستها الفرد تماما. وكان يوجد هراطقة، ولكنهم كانوا معرضين للإبادة بلا رحمة وبلا شيء من وخز الضمير الذي كان يصاحب حركات الاضطهاد التي جاءت بعد ذلك، وقد كان هؤلاء الهراطقة -مثل مضطهديهم- يعتقدون أنه يجب ألا يكون في العالم سوى دين واحد، وكان الخلاف بينهم ينحصر في نوع هذا الدين فقط. ثم جاءت النهضة فقوضت

---

(1) الحرب العالمية الأولى.

نظرية العصور الوسطى من أساسها لدى نفر قليل من رجال الفن والأدب، ولكنها لم تقدم بدلا منها سوى الشك وبلبلة الأفكار. وقد أحدث الثلمة الخطيرة الأولى في هذه النظرية ما نادى به مارتن لوثر من أن رجال الدين غير معصومين من الخطأ، وأن لكل فرد الحق في أن يحكم عقله فيما يؤمن به. وكانت النتيجة الحتمية لهذا الرأي أن نشأ مع مضي الوقت الاعتقاد بأحقية الشخص في اختيار عقيدته الدينية دون تدخل من أي سلطة، وهكذا بدأت معركة الحرية في ميدان الدين، وفي هذا الميدان كان انتصار الحرية أتم منه في أي ميدان آخر[1].

إننا نستطيع أن نرى في جميع مجالي الحياة تطورا أساسه الفردية والمطلقة، وهو تطور يهدف إلى الكفاح الذي يؤدي إلى الإصلاح الشامل، كما هو المأمول. فهناك مطالب يتقدم بها بعض الناس باسم العدالة، ويقاومها بعضهم باسم التقاليد والحقوق المكتسبة، وكلا الجانبين يعتقد عن إيمان أنه أحق بالنصر، إذ يوجد في فكرنا نظريتان عن كيفية تنظيم المجتمع، وكل شخص يختار –على غير وعي منه– النظرية التي تتفق وظروفه. ولأن المعركة طويلة وشاقة ينسى الناس تدريجيا النظريات، ولا يبقى في النهاية سوى تأكيد الذات، وعندما ينال المظلوم حريته يصبح ظالما كسادته السابقين.

ويرى هذا بصورة غير واضحة في حالة ما يسمى بالقومية. فالقومية من الناحية النظرية هي المذهب القائل بأن الأفراد المتشابهين في التقاليد، المتقاربين في المشاعر يكونون بالطبيعة جماعات تسمى "شعوبا"، كل منها تتولى أموره حكومة مركزية واحدة. وهذا المذهب مقبول من الناحية النظرية. ولكنا عند

---

(1) كتب هذا قبل أن يصبح اعتناق المسيحية جريمة تعاقب بالأشغال الشاقة لمدة عشر سنوات، وذلك بمقتضى المادة الثانية من قانون الخدمة العسكرية (هذه الحاشية أضيفت سنة ١٩١٦..).

التطبيق نرى شيئا آخر. فيقول "القومي المضطهد" أنا أنتمي بمشاعري وتقاليدي إلى شعب أ، ولكني تحت حكم حكومة يتولى مقاليدها شعب ب. وليس في هذا شيء من العدالة، وذلك ليس فقط لأنه يتنافى ومذهب "القومية" ولكن لأن شعب أ الذي أنتمي إليه أفضل وأكثر تقدما ومدنية من شعب ب المتأخر الرجعي الهمجي، ولذلك يجب أن يسمو شعب أ ويزدري شعب ب" ولا شك أن أفراد شعب ب لن يعيروا أذنا صاغية لمطالب العدالة المجردة إذا كانت هذه المطالب مصحوبة بعداء وازدراء، ثم لا يلبث شعب أ أن يسترد حريته كنتيجة من نتائج الحرب. ولكن الطاقة والشعور بعزة النفس اللذين استطاعا استخلاص الحرية يكونان قد ولدا قوة دافعة غالبا ما تستمر مؤدية إلى محاولة الفتح الخارجي، أو إلى رفض رد الحرية إلى شعب أصغر. لقد كان الانجليز يقولون عن الارلنديين: ماذا؟ هل تقولون أن شعب ج الذي هو جزء من دولتنا له قبلنا نفس الحقوق التي كانت لنا قبل شعب ب؟ أن هذا تخريف. أنه شعب فظ مشاغب، لا يستطيع حكم نفسه، وهو في حاجة إلى يد قوية تتولى أمره حتى لا يصبح مصدر تهديد لجميع جيرانه". وهذا ما يقوله الألمان والروس عن البولنديين. وهو ما يقوله النمسويون عن المجر. وهو ما يقوله المجريون عن الصربيين. وهو ما يقوله الصربيون عن أهالي مقدونيا. وهكذا فإن "القومية" – المذهب المقبول من الناحية النظرية– تؤدي في حركة طبيعية إلى الاضطهاد والحروب والفتح، فبمجرد أن حررت فرنسا نفسها من الانجليز في القرن الخامس عشر بدأت فورا في غزو إيطاليا، وما أن تحررت أسبانيا من الحكم العربي حتى اشتبكت مع فرنسا في نضال استمر أكثر من مائة سنة، وذلك من أجل السيادة على أوربا. أما ألمانيا فلها حالة تبعث على الاهتمام في هذا المجال. ففي أوائل القرن الثامن عشر كانت الثقافة الألمانية فرنسية بحتة، إذ كانت اللغة الفرنسية هي لغة البلاط الألماني، وهي اللغة التي كتب بها ليبنتز

فلسفته، وهي اللغة السائدة التي كانت تكتب بها العلوم والآداب الرفيعة، فلم يكن هناك أثر يذكر لوعي قومي، ثم جاء بعد ذلك عدد من الرجال النابهين الذين خلقوا شعورا باحترام النفس في ألمانيا وذلك بما أنتجوه من شعر وموسيقى وفلسفة وعلوم. ولكن القومية الألمانية لم تظهر من الناحية السياسية حتى غزا نابليون ألمانيا، وحتى ثورة الألمان ضده سنة ١٨١٣. وبعد قرون كانت خلالها كل القلاقل التي حدثت في أوربا تبدأ باجتياح فرنسا أو السويد أو روسيا لألمانيا، اكتشف الألمان أنهم إذا اتحدوا وبذلوا مجهودا كافيا استطاعوا صد الجيوش المغيرة عن بلادهم. ولكن المجهود الذي بذلوه كا أكبر من أن يقف عندما استنفد أغراضه الدفاعية البحتة بعد أن هزم نابليون. والآن –وبعد مرور مائة سنة– لم تفقد الحركة شيئا من قوة اندفاعها، غير أنها تحولت إلى الاعتداء والغرور، ولا يمكن الحدس عما إذا كنا على وشك أن نشهد نهايتها الآن.

ولو كان لدى الناس أي شعور قوي بوجود الإخاء بين الشعوب لكانت القومية وحدها كافية لأن يعرف كل شعب حدوده. ولكن لأن شعورهم بوحدة الكيان لا يتعدى حدود مجتمعهم الخاص، فلا شي سوى القوة يضطر كل شعب إلى احترام حقوق الشعوب الأخرى حتى في الوقت الذي يطالب فيه هذا الشعب غيره باحترامهم حقوقه المماثلة.

ومن المنتظر، بمضي الزمن، أن يحدث تطور في النضال بين العمل ورأس المال، وهو النضال الذي بدأ منذ نشأة النظام الصناعي، وأن يحدث تطور مماثل له في النضال الذي لا يزال في مهده، بين الرجال والنساء.

ولابد لنا من مبدأ عام جديد يؤمن به الجميع مخلصين يهدف إلى تحقيق العدالة، وذلك إذا أردنا أن تسوى هذه الخلافات كلها، فهذه الحال من الشد والجذب، الناشئة عن "تأكيد الذات" المتبادل لا يمكن أن تنتهي إلى إقامة

العدالة إلا إذا تعادلت القوى مصادفة. فليس هناك فائدة ترجى من وراء أي محاولة لتدعيم النظم التي تقوم على السلطة، حيث أن جميع هذه النظم لابد أن ينشأ عنها ظلم، والظلم إذا نشأ لا يمكن أن يستمر دون أن يلحق أضراراً جسيمة بكل ممن يدافعون عنه ومن يقاومونه. وهذه الأضرار تجعل الإنسان أكثر قسوة إذ يعمل على أن تصبح جدران "الأنا" أقوى فتحيلها سجنا بدلا من أن تكون متنفسا. أن نمو الفرد الذي يسير في طريقه الطبيعي دون عائق يعتمد على صلات عديدة مع الآخرين، وهي صلات يجب أن تأخذ طابع التعاون الحر، لا صفة الخدمة الإجبارية. لقد كان التعاون يأخذ طابع الإذعان وعدم المساواة في الوقت الذي كان يسود فيه الإيمان بالسلطة، أما الآن فلا مناص من التعاون والمساواة المتبادلة. فجميع الأنظمة ينبغي أن تعتمد ما أمكن على الاتحاد القائم على الرغم، لا على قوة القانون والسلطة التقليدية التي يتمتع بها أصحاب السلطان، وذلك إذا كنا نريد ألا نقف في سبيل النمو الطبيعي للفرد. وليس من بين نظمنا الحالية نظام يستطيع أن يظل على قيد الحياة دون تغيير أساسي شامل إذا طبقنا المبدأ السابق. وهذا التغيير واجب تمليه الضرورة حتى لا يتفكك العالم فيصبح وحدات منفصلة كل منها في حرب مع كل الوحدات الأخرى.

أن المصدرين الأساسيين للعلاقات الطيبة بين الأفراد هما الميل الغريزي والغرض المشترك. وقد يبدو الغرض المشترك أكثر المصدرين أهمية من الناحية السياسية، ولكن الغرض المشترك في الواقع يكون نتيجة لميل غريزي أو نفور غريزي مشترك لا سبب لهما. أن الجماعات البيولوجية –من العائلة إلى الشعب– تعتمد في تكوينها، إلى حد قد يزيد أو ينقص، على الميل الغريزي، ثم تقوم الأغراض المشترك على هذا الأساس.

والميل الغريزي هو الشعور الذي يجعلنا نجد سرورا وبهجة في صحبة شخص آخر، ونرغب في التحدث إليه، والعمل واللعب معه. وغاية ما يصل إليه هذا الميل هو الحب بين الرجل والمرأة، وهو، حتى في أضعف صوره، ذو أهمية من الناحية السياسية. ووجود شخص ممن يثيرون في النفس نفورا غريزيا يجعل الإنسان أكثر إقبالا على أي شخص آخر من الموجودين، فإن المسيحي الذي لا يحب اليهود يقبل على أي مسيحي آخر في حضرة اليهودي. وفي الصين أو في غابات أفريقيا يبتهج الرجل الأبيض لوجود أي رجل ابيض آخر ويرحب به. فإن النفور الغريزي المشترك هو أكثر المصادر المألوفة التي ينشأ عنها ميل غريزي.

ويختلف الأشخاص اختلافا شديدا في تعدد ميولهم الغريزية وعمقها، بل أن الشخص الواحد قد يختلف إلى حد كبير في الأوقات المختلفة. ونستطيع أن نأخذ كارليل ووالت هويتمان كطرفي نقيض في هذا المضمار فكارليل كان يشمئز –على الأقل في الفترة الأخيرة من حياته– من معظم الناس، إذ كانوا يوحون إليه بنفور غريزي يجعله يجد سرورا في أن يتخيلهم وقد طاحت المقصلة برؤوسهم أو أفنتهم الحرب. وقد أدى به هذا الشعور إلى الإقلال من شأن معظم الناس، ولم يكن يبعث في نفسه السرور إلا أولئك الذين اشتهروا بأنهم قضوا على حياة أفواج كثيرة من البشر، مثل فردريك الأكبر والدكتور فرانسيا(١) والحاكم آير(٢). كما أدى به الشعور نفسه إلى الشغف بالحرب وبالعنف، واحتقار

(١) دكتور فرانسيا– دكتاتور باراجواي، عرف عنه استعمال القسوة الشديدة مع معارضيه والتنكيل بهم لأوهى الأسباب.

(٢) الحاكم آير– حاكم جامايكا، اشتهر عنه العنف في معاملة الزنوج. وقد ثار ضده الرأي العام في انجلترا. وحوكم بتهمة استعمال القسوة الشديدة للقضاء على ثورة قام بها أهالي جامايكا. ودافع عنه كار ليل وبريء. ولكنه أرغم على الاستقالة.

الضعيف والمضطهد مثل "الحائكات الثلاثون الألف الحزينات" اللائي كن موضع تهكمه الدائم. وتكاد تكون آراؤه الأخلاقية والسياسية في أخريات أيامه من آثار شعوره بالكراهية للجنس البشري بأكمله.

أما والت هويتمان[1] فقد كان –على النقيض من ذلك– ودودا، يحمل في نفسه شعورا طيباً نحو الغالبية العظمى من الناس. وكانت فهارسه الشعرية الغربية تبدو له مثيرة للاهتمام لأنه كان يتخيل كل قطعة منها صورة إنسانية تبعث البهجة في النفس. لقد كان هويتمان يجد في كل الناس تقريباً ما يدعو إلى الابتهاج، وبالأحرى ذلك النوع من الابتهاج الذي لا يحسه أغلب الناس إلا أمام الأشياء التي بلغت من الجمال حد الروعة. وقد نشأ لديه من حبه للناس تفاؤل، وإيمان بالديمقراطية، واعتقاد راسخ بأنهم يستطيعون أن يعيشوا معا في سلام ومحبة. وكانت فلسفته وآراؤه السياسية مبنية على شعوره الغريزي نحو العامة رجالا ونساء.

وليس ثمة سبب موضوعي يبرر اعتبار أحد هذين الشعورين أساساً معقولاً أكثر من الآخر. فإذا حدث أن وجد أي إنسان يرى أن الناس يبعثون على الاشمئزاز، فليس ثمة ما يمكن أن نسوقه لنقنعه بأنه عل خطأ. ولكن رغباته هو نفسه ورغبات الآخرين حرية بأن تجد ما يحققها لو كان أشبه بوالت هويتمان منه بكارليل. وأن عالما كل أهله مثل هويتمان ليكونن أسعد حالا وأقدر على تحقيق أهدافه من عالم سكانه مثل كارليل. ولهذا ينبغي لنا، ما استطعنا، أن نستكثر من الميل الغريزي بين الناس، والإقلال من نفورهم الغريزي. ولعل هذا هو أهم

---

[1] والف هويتمان– شاعر وصحفي أمريكي، يعتبره بعض النقاد أبلغ أديب أنجبته الولايات المتحدة، وضع ديوانا عبارة عن فهرس شعري يصور فيه شخصيات من قابلهم أثناء تجواله في كندا والولايات المتحدة. وعرف عنه حبه الشديد للناس وولعه بمساعدتهم. تطوع للترفيه عن الجرحى من جنود الشمال والجنوب على السواء في الحرب الأهلية الأمريكية..

العوامل التي يجب أن نعمل حسابها عندما نحكم على صلاحية الأنظمة السياسية.

والمصدر الثاني لتوطيد العلاقات الطيبة بين الناس هو الغرض المشترك، خاصة إذا كان غرضاً لا يمكن تحقيقه إلا بالتعاون. فإن كثيرا من المنظمات، مثل النقابات والأحزاب السياسية يكاد الغرض المشترك وحده هو الذي يؤلف بين أعضائها، ومهما حدث بعد ذلك من تآلف غريزي بينهم، فهو ناتج من هذا الغرض، وليس سببا له. والمنظمات الاقتصادية، كشركات السكك الحديدية مثلا، تقوم من أجل غرض معين، ولكن هذا الغرض لا يلزم أن يوجد في الواقع إلا لدى المشرفين عليها، أما العامل العادي فلا داعي لأن يكون له غرض ما، سوى ما يبتغيه من الحصول على أجره. وهذا نقص في نظام المنشئات الاقتصادية يجب علاجه. وهذا العلاج هو أحد الأهداف التي يرمي إليها النظام النقابي.

ويقوم الزواج –أو يجب أن يقوم– على الميل الغريزي، ولكن متى وجد الأطفال– أو الرغبة في إنجاب الأطفال– ازدادت الرابطة الزوجية قوة بوجود عامل آخر هو الغرض المشترك. وهذا بخاصة ما يميز الزواج من العلاقات غير الشرعية التي لا يقصد من ورائها إنجاب الأطفال. وكثيرا ما يستمر الغرض المشترك، ويظل رباطا قويا يربط ما بين الزوجين، بعد أن يكون الميل الغريزي قد تلاشى.

والأمة، حينما تكون أمة حقيقية، لا أمة ملفقة، تقوم على قدر ضئيل من الميل الغريزي بين المواطنين، وقدر كبير من النفور الغريزي المشترك من الأجانب. فعندما يعود الانجليزي من أوربا إلى دوفر أو فولكستون، يشعر بشيء محبب إليه في عادات وفي تصرفات مواطنيه المألوفة لديه. فالحمالون

الذين يبدو عليهم عدم الاهتمام، وصيحات بائعي الجرائد، والنساء اللاتي يقدمن الشاي الرديء في المحال العامة، كل هؤلاء يدخلون إلى قلبه شعورا دافئا، ويبدون في نظره طبيعيين، أقرب إلى ما يجب أن يكون عليه الإنسان مما يبدو الأجانب بما لهم من تصرفات غريبة. فهو على استعداد لأن يصدق أن كل الانجليز ناس طيبون ودودون، بينما كثير من الأجانب قوم تملأ رؤوسهم الأفكار الخبيثة. وأمثال هذه المشاعر هي التي تجعل من السهل تنظيم الشعب وجعله وحدة ذات حكومة، وعندما يحدث ذلك يتكون الغرض المشترك كما هو الحال في الزواج. أن الأجانب يودون لو غزوا بلادنا وأن يعيثوا فيها فسادا، وأن يبيدونا في ميادين القتال ويذلوا كبرياءنا. وأولئك الذين يتعاونون معنا على اتقاء هذه الكارثة هم أصدقاؤنا، ومعاونتهم لنا تضاعف من ميلنا الغريزي نحوهم، لكن الأغراض المشتركة ليست المصدر الوحيد لحب الوطن. فحلفاؤنا مهما طال العهد بتعاونهم معنا– لا يثيرون فينا من المشاعر ما يثيره مواطنونا. إذ أن الميل الغريزي الذي ينشأ إلى حد كبير عن تشابه العادات والتقاليد، عامل جوهري في تكوين الشعور الوطني، بل هو في الواقع الأساس الذي يبنى عليه هذا الشعور كله.

فإذا كنا نريد أن نجعل من البيئة عاملا يساعد النمو الطبيعي للناس، لا أن نقيم في سبيله العقبات، وإذا كنا نريد تحقيق أكبر قدر ممكن من رغباتهم ومطالبهم، فيجب أن تتضمن الأنظمة السياسية –ما أمكن– أهدافا مشتركة، وأن تعمل على تشجيع الميل الغريزي، وهذان الهدفان مرتبطان، فليس هناك ما يقضي على الميل الغريزي مثل غرض حال دون تحقيقه حائل، أو مثل رغبة لم تتحقق، كما أنه ليس هناك ما يسهل التعاون لتنفيذ الأغراض المشتركة مثل الميل الغريزي. والإنسان إذا لم يعق نموه الطبيعي عائق يظل احترامه لنفسه سليما،

ويصبح أقل ميلا إلى اعتبار الناس أعداء ولكنه عندما يعترض نموه عائق –لسبب ما– أو يضطر لأن ينمو نموا مشوها وغير طبيعي، فستبدو أمامه البيئة في هيئة عدو ويمتلئ حقدا وسيفقد الشعور ببهجة الحياة ويحل الشر في نفسه محل المودة. أن الحقد الذي يملأ نفس الأحدب والمشوه هو مضرب الأمثال. ونجد نفس الحقد يملأ نفوس الذين أصابهم تشويه في نواح أقل ظهورا. والحرية الحقيقية إذا أمكن تحقيقها، تساعد كثيرا على القضاء على الكراهية.

وهناك اعتقاد شائع بأن كل ما هو غريزي فينا لا يمكن تغييره، ويجب أن يقبل على علاته، وأن يستغل أحسن ما فيه بقدر الإمكان. وهذا غير الواقع تماما. فلا شك أن هناك مزاجا أصيلا في كل منا يختلف باختلاف الأشخاص، وهو يتفاعل مع الظروف الخارجية مكونا شخصية الإنسان. ولكن حتى الجزء الغريزي فينا قابل للتشكيل، فقد تغيره الاعتقادات، أو الظروف المادية، وقد تغيره الظروف الاجتماعية والنظم القائمة، فغالبا ما يكون للهولندي نفس المزاج الأصيل الذي للألماني، ولكن غرائزهم تختلف تماما بعد أن يبلغا مبلغ الرجال بسبب أن الهولندي ليس لديه الروح العسكري والشعور بالكبرياء لدولة كبرى مثل الألماني. وكذلك من الواضح أن الغرائز لدى العزاب تختلف اختلافا عميقا عنها لدى المتزوجين. أن كل الغرائز تقريبا قابلة للتشكيل في قوالب مختلفة بحسب المتنفس الذي يتهيأ لكل منها. ونفس الغريزة التي تؤدي إلى الخلف الفني والعقلي قد تؤدي –إذا اختلفت الظروف– إلى حب القتال. فلا معنى لأن نعتبر تصرفا معينا أو اعتقادا معينا غير قابل للتغيير لمجرد أن الدافع إليه غريزة من الغرائز. وينطبق هذا الميل الغريزي والنفور الغريزي لدى الناس، كما ينطبق على جميع الغرائز الأخرى. فمن الطبيعي أن يحب الإنسان –مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات الأخرى– أفرادا من نوعه وأن يكره آخرين. ولكن

نسبة الميل والنفور تعتمد على الظروف، وكثيرا ما تكون هذه الظروف تافهة في حد ذاتها، فأكثر ما كان من كراهية كارليل للناس كان سببه سوء الهضم، والراجح أن نظرته نحو العالم كانت تتغير تماما لو أنه اتبع نظاما صحيا ملائما. هذا وعيب استعمال العقاب كوسيلة من وسائل علاج النزعات التي يرغب المجتمع في كبتها، هو أنه لا يصنع شيئاً للقضاء على النزعة، ولكنه يحاول منعها من الظهور بالاستعانة عليها بعامل المصلحة الشخصية. ولعل كل ما تفعله هذه الطريقة -ما دامت تقضي على النزعات- هو أنها تدفعها إلى البحث عن متنفسات أخرى عندما ينجح العقاب في كبتها أما إذا كانت النزعات قوية، فإن عامل المصلحة الشخصية وحده غالبا ما يخفق في كبتها تماما، إذ أن هذا العامل دافع ضعيف إلا عند من يتمتعون بتعقل غير عادي، أو من لا يستسلمون لانفعالاتهم. والناس يظنون أنه دافع أقوى مما هو في الواقع، لأن أمزجتنا تجعلنا نخدع أنفسنا عن مصلحتنا، ثم تدفعنا إلى التصديق بأن مصلحتنا الشخصية لا تتعارض والتصرف الذي تدفعنا إليه النزعة أو الرغبة.

وهكذا يتبين أن الاعتقاد الشائع بأن الطبيعة البشرية لا تقبل التغيير هو اعتقاد باطل. فكلنا نعلم أن طباعنا وطباع معارفنا تتأثر إلى حد كبير بتغير الظروف. وما يصدق على الأفراد في هذا الصدد يصدق أيضاً على الشعوب. أن الأسباب الأساسية للتغيرات التي تحدث للطبيعة البشرية العادية ترجع عادة إلى ظروف مادية بحتة -كتغير الطقس- أو إلى التغير في درجة سيطرة الإنسان على العالم المادي. أما التغيرات الناشئة عن ازدياد تحكم الإنسان في العالم المادي بسبب الاختراعات والعلوم فلها أهمية كبيرة في الوقت الحاضر. فهي قد أحدثت تحولاً كبيراً في حياة الناس اليومية عن طريق "الثورة الصناعية"، كما غيرت بنيان المجتمع كله بما أحدثته من قيام المؤسسات الاقتصادية الضخمة.

ولقد أصبحت الاعتقادات السائدة بين الناس، وهي نتيجة الغرائز والظروف، مختلفة اختلافا كبيرا عما كانت عليه في القرن الثامن عشر. ولكن نظمنا لم تصبح بعد ملائمة لا للغرائز التي تطورت نتيجة للظروف الجديدة، ولا لمعتقداتنا الحقيقية، فالنظم لها حياة خاصة بها، وهي في كثير من الأحيان تظل قائمة حتى بعد زوال الظروف التي جعلتها قالبا مناسبا للغريزة. وهذا ينطبق بدرجات مختلفة على معظم النظم التي ورثناها عن الماضي: مثل الدولة، والملكية الخاصة، ونظام الأسرة، والمذاهب الدينية، والجيوش والأساطيل. فجميع هذه النظم أصبحت إلى حد ما لا تحتمل، كما أصبحت من بعض نواحيها في عداء مع الحياة.

ومن الضروري في كل محاولة جدية لإعادة بناء النظام السياسي، أن نتبين الاحتياجات الحيوية للأفراد العاديين. وقد جرى المشتغلون بالأمور السياسية على أن احتياجاتنا الاقتصادية هي وحدها الجديرة باهتمامهم من سائر الاحتياجات. وهذا رأي قاصر كل القصور عن تفسير حادث مثل الحرب الحالية، وتفسيرها على أساس الدافع الاقتصادية وهمي إلى حد بعيد، ولهذا يجب البحث عن أسبابها الحقيقية خارج النطاق الاقتصادي. أن الإنسان ليغفل عن الحاجات التي لا يتطلب إشباعها عادة بذل مجهود واع، ونتيجة هذا أن تنشأ نظرية في الحاجات الإنسانية بسيطة أكثر مما يجب. أن التصنيع كان سببا جوهريا في أن كثيرا من حاجات الناس، التي كانت فيما مضى تشبع دون حاجة إلى مجهود، أصبحت الآن لا تجد سبيلا إلى التحقيق عند أكثر الأشخاص. وعلى الرغم من ذلك تظل النظرية القديمة غير السلمية، عن الحاجات البشرية قائمة، جاعلة الناس يغضون عن الأصل الذي يرجع إليه عدم الاكتفاء الذي ظهر بعد التصنيع، مخترعين لذلك أسبابا ونظريات غير صحيحة، ويخيل إلي أن

الاشتراكية كعلاج للحالة التي وصل إليها المجتمع قد أخطأت السبيل ما دامت مستعدة لأن تفترض أن وجود أحوال اقتصادية أحسن من الأحوال السابقة سيجعل الناس سعداء. أن الناس ليسوا في حاجة فقط إلى عروض مادية أكثر مما لديهم، ولكنهم في حاجة إلى قدر أكبر من الحرية، ومن حق الفرد في توجيه نفسه، وإلى مجال أوسع لملكاتهم الإنشائية، وإلى فرص أكبر للتمتع ببهجة الحياة، وتعاون اختياري أكثر، واضطرار لخدمة مصالح غيرهم أقل. فهذا كله يجب أن تساعد نظم المستقبل على توفيره، إذا كنا نريد أن تؤتي الزيادة في معارفنا وزيادة سيطرتنا على الطبيعة كلها في إقامة حياة أفضل.

الفصل الثاني

الدولة

كان معظم المفكرين الأحرار في السنين الأخيرة يحبذون أن يزداد سلطان الدولة، متأثرين في ذلك بالمذهب الاشتراكي، بيد أنهم كانوا يتفاوتون في عداوتهم لسلطان الملكية الخاصة، على أن النقابيين (السندكاليين) كانوا في الوقت نفسه يناصبون كلا من الدولة والملكية الخاصة العداء، وأعتقد أن النقابيين يكادون يكونون أقرب إلى الصواب من الاشتراكيين في هذا الصدد، فهم يرون أن كلا من الملكية الخاصة والدولة، وهما أعظم النظم سلطانا في العالم الحديث، قد صارتا خطرا على الحياة بسبب تفاقم سلطانهما، وأنهما جميعا تسرعان بالعالم المتمدين إلى فقدان حيويته، الأمر الذي أخذت تزداد الشكوى في العالم المتمدين من شره؛ والنظامان مرتبطان كل منهما بالآخر ارتباطا وثيقا، إلا أنني أريد أن أتكلم الآن عن الدولة فحسب. وسأحاول أن أبرهن على ما في كثير من سلطاتها من تضخم، وقلة جدوى، وضرر، وعلى المدى العظيم الذي يمكن اختزال هذه السلطات إليه، دون أن تفقد الدولة ما هو نافع من وجوه نشاطها، غير أنني أعترف بأن الاختصاصات التي تضطلع بها الدولة في نواح معينة يجب أن تزداد لا أن تنقص.

وبعض أعمال الدولة، كإدارة البريد، والتعليم الأولى مثلا، يمكن أن تنهض بها هيئات خاصة، بحيث لا تأخذ الدولة على عاتقها من هذه الأعمال إلا ملاحظة حسن سير أحوالها وملاءمتها، إلا أن ثمة شئونا أخرى، كالقضاء والبوليس (الشرطة)، والجيش، والأسطول، هي أدخل بالضرورة في اختصاص

الدولة، ومن العسير أن نتصور اضطلاع هيئات خاصة بهذه الشئون طالما صح أن تكون ثمة دولة على الإطلاق. أن وجه الخلاف بين المذهب الاشتراكي والمذهب الفردي يدور حول الأعمال غير الجوهرية التي يرغب الاشتراكيون في زيادة عددها، في حين يميل الفرديون إلى تضييق مداها. أما الأعمال الجوهرية التي يتفق الاشتراكيون والفرديون على السواء في أن تضطلع بها الدولة فهي التي أريد أن أتناولها بالنقد هنا، وذلك مذ كانت الأعمال الأخرى، غير الجوهرية، لا تبدو في نظري محلا للاعتراض في ذاتها.

أن لباب الحكم هو أن تكون الدولة مستودعا لقوة مواطنيها متجمعة، وهذه القوة تأخذ صورتين، إحداهما داخلية، والأخرى خارجية، فالداخلية هي القضاء والبوليس، والخارجية هي سلطة إعلان الحرب، ممثلة في الجيش والأسطول. والدولة تقوم على اتحاد جميع الأهالي في رقعة معينة من الأرض، مستعملين قوتهم المتحدة بما يتلاءم وما تأمر به الهيئة الحاكمة. والدولة المتمدينة لا تستعمل القوة ضد مواطنيها إلا في حدود تتفق وقواعد وضعت من قبل، وهي القواعد التي يتألف منها القانون الجنائي. أما استخدام القوة ضد الأجانب فلا ينظمه أي تشريع، وهو يجري –إلا في حالات استثنائية قليلة– وفقا لبعض المصالح الوطنية، الحقيقية أو الوهمية.

ولا يمكن أن يكون ثمة أي شك في أن القوة المستعملة وفقاً للقانون أقل ضرراً من القوة التي تصرفها الأهواء، ولو أننا استطعنا أن نبث في نفوس الناس قدرا من الولاء للقانون الدولي يكفي لتنظيم علاقات الدول بعضها ببعض، لأمكن أن نسمو فوق حالتنا الراهنة سموا عظيما. أن الفوضى الجاهلية التي تسبق القانون شر من القانون. بيد أنني أؤمن بأن ثمة طورا يعلو على القانون إلى حد ما وفي وسعنا أن نبلغه، وهو الطور الذي يمكننا فيه الاحتفاظ بالمزايا التي

يضمنها لنا القانون، دون أن نفقد حريتنا، ومن غير أن تحيق بنا الأضرار التي يجعلها القانون والبوليس شيئا لا محيص منه، وربما كان من الضروري الاحتياط لهذا بمصدر ما من مصادر القوة، على أن استخدام القوة في صورة حقيقية قد يصبح جد نادر، والقدر الذي نحتاجه من هذه القوة قد يكون جد قليل. والفوضى التي تسبق القانون لا تتيح الحرية إلا للأقوياء. أما الحالة التي يجب أن نهدف إليها فتتيح الحرية، بقدر الإمكان، لكل فرد من الأفراد، وهذه الحالة ستحقق لنا ذلك بحصر الظروف التي تستخدم فيها القوة في أضيق نطاق ممكن، وليس بمنع قيام القوة المنظمة منعا باتا.

والدولة مطلقة السلطان أبدا، إلا إذا خشيت فتنة تنشب ضدها في الداخل، أو حينما تخشى هزيمة في الحرب تصيبها في الخارج. وذلك أن الدولة تستطيع من الوجهة العملية، الاستيلاء على أملاك الناس بفرض الضرائب، كما تستطيع سن قوانين الزواج والميراث، ومعاقبة من يجهرون بآراء لا ترضى عنها، والحكم بالإعدام على من يحاولون ضم إقليم يقطنونه إلى دولة أخرى، وأمر جميع الذكور ذوي اللياقة الجسمانية، بخوض غمار الوغى حينما ترى أن الحرب شيء مرغوب فيه. وفي كثير من الأمور تعتبر معارضة أغراض الدولة وآرائها عملا إجراميا. ولعل أمريكا وانجلترا كانتا أكثر الدول حرية في العالم قبل الحرب، إلا أن الأمريكيين كانوا لا يسمحون لأي مهاجر بأن تطأ قدمه أرض أمريكا حتى يقر بأنه لا يؤمن بالفوضوية ولا بتعدد الزوجات، بينما كان الانجليز في السنين الأخيرة يقذفون في غياهب السجن بمن يجهرون بمخالفتهم للديانة المسيحية[1]، أو بموافقتهم على تعاليم المسيح[2]. وفي أثناء الحرب يكون كل

(1) محاكمات التجديف.

(2) محاكمات السند كاليين (ويجب إضافة عقاب المعترضين ذوي الضمائر اليوم).

نقد لسياسة الدولة الخارجية عملا إجراميا. وقد يحدث أن الأغلبية –وبالأحرى أولئك القابضين على أزمة الأمور– ترى أن أشياء بعينها مرغوب فيها، وعندئذ يصبح الذين لا يعدون هذه الأشياء مرغوبا فيها عرضة للنكال وألوان من العقاب لا تختلف عما كان المجدفون لا يقاسونه في الأزمنة الخوالي، وهذا القدر من الطغيان الذي يمارسه الطغاة على هذا النحو يحجبه عن الأنظار ما يصيبه هؤلاء الطغاة من النجاح. أن قليلا من الناس يعدون التعرض للاضطهاد الذي لا يكاد أحد يشك في كونه اضطهادا محكم الحلقات وله نتائجه، شيئا لا ضير في احتماله.

ولعل الخدمة العسكرية العامة هي أبلغ مثل لما وصل إليه سلطان الدولة والصورة الواضحة للفرق بين موقف الدولة من مواطنيها، وموقفها من مواطني الدول الأخرى. فالحكومة تنزل أصرم القصاص، وبلا محابة، بأولئك الذين يقتلون إخوانهم في الوطن، وبأولئك الذين يرفضون قتل الأجانب على السواء، وعلى العموم فالجريمة الثانية تعد أشنع الجريمتين، والحرب ظاهرة من الظواهر المألوفة، والناس يخفقون في إدراك وجه غرابتها، لكنها تبدو شيئا طبيعيا ومألوفا في نظر الذين يقفون في غمار الغرائز التي تؤدي إلى نشوب الحرب، أما الذين يقفون بمنأى عن غمارها، فلا يألفونها إلا بعد زمن طويل. وعجيب ألا تجد غالبية الناس محيصا من الصبر على نظام يرغمهم على الاستسلام لجميع الأهوال في حومة الحرب، في أية لحظة تدعوهم فيها حكومتهم. فهذا فنان فرنسي، لا شأن له بالشئون السياسية، ولا يهمه شيء غير تصاويره، يجد نفسه مدعوا فجأة لتصويب الرصاص إلى صدور الألمان الذين يؤكد له أصدقاؤه بأنهم عار على بني الإنسان... وبمثل هذا يدعى موسيقار ألماني وهو لا يدري لماذا، ليرمى بالرصاص هذا الفرنسي الذين يزعمون أنه خؤون غدار.. فلأي سبب لا

يستطيع الرجلان إعلان حيادهما المتبادل؟ لماذا لا يدعان الحرب لمن يرغبان فيها ويتسببان في نشوبها؟ غير أن الرجلين لو أعلنا هذا الحياد المتبادل لرماهما أهل بلادهما بالرصاص. ولكي يتجنبا هذا المصير فهما يحاولان أن يعدم كل منهما صاحبه، وإذا خسر العالم الفنان، ولم يخسر الموسيقار فإن ألمانيا تختال طربا، فإذا خسر العالم الموسيقار، ولم يخسر الفنان، فإن فرنسا هي التي تتيه حبورا، أما خسارة المدنية التي تتساوى في الحالتين، سواء قتل الألماني أو الفرنسي، فلا يكاد يذكرها أحد.

وهذه هي السياسة الجنونية التي لا يمكن أن تصدر إلا عن مجاذيب مستشفى بدلام! فلو أن الفنان والموسيقار قد سمح لهما باعتزال الحرب، لما أصاب بني الإنسان إلا الخير الكامل غير المنقوص. فسلطان الدولة الذي يجعل هذا مستحيلا هو شر محض، شر يشبه سلطان الكنيسة التي كانت فيما سلف تحكم بالإعدام على من تخالف عقيدته السنة. على أنه إذا تأسست، ولو في زمن السلم، عصبة قوامها أعضاء متساوو العدد من الفرنسيين والألمان، يتعهدون بألا يشتركوا في حرب، لاضطهدتهم الدولتان الفرنسية والألمانية اضطهادا وحشيا، لا يقل في إحداهما عن الأخرى. أن الديمقراطيات الحديثة تفرض على مواطنيها الطاعة العمياء، والرغبة التي لا حد لها في القتل والموت، بالقدر الذي كان مفروضا على الانكشاريين من جنود سلاطين العصور الوسطى، أو على رجال البوليس السري من حاشية طغاة الشرق[1].

وقد يظهر ما لسلطان الدولة من أثر عن طريق الرأي العام –كما يحدث

(1) الأغلبية في البلد الديمقراطي هي التي يجب أن تحكم بالرغم من كل شيء، ومن هنا تضطر الأقلية إلى الاستسلام بكل ما في وسعها من سماحة وسمة صدر، عن وسمنسر غازت– التجنيد الإلزامي– ديسمبر– ٢٩– ١٩١٥.

في انجلترا في كثير من الأحيان- أكثر مما يظهر عن طريق القانون، وتستطيع الدولة أن تخلق رأياً عاما بما للصحافة والخطابة من تأثير، والرأي العام القائم على الجور والاستبداد عدو شديد للحرية لا يقل خطرا عن القوانين الاستبدادية. وإذا وجد الشاب الذي يرفض الذهاب إلى الحرب أنه قد فصل لهذا السبب من وظيفته، وأنه أصبح موضع الزراية من أهل بلده، وأن جميع أصدقائه يتنكرون له، وأنه كلما لقي امرأة ممن عسى أن يكون الحب قد عقد بين قلبيهما من قبل وجدها تشيح عنه، وتسخر به، أن هذا الشاب سوف يشعر بأن وبال ما يلقاه من ذلك كله شيء صعب الاحتمال، شيء يشبه الحكم بالإعدام[1]. أن المجتمع الحر لا يفتقر إلى حرية القانون فحسب، أنه

---

(1) كان المستر رجنولد كمب، وكيل النائب العام في وست مدلسكس، يقوم بالتحقيق في حادث انتحار كان المنتحر فيه شابا في الرابعة والثلاثين من عمره، اسمه رتشارد تشارلس روبرتس، وصناعته سائق سيارة أجرة من جهة شبردس بش، وقد أقدم على الانتحار بسبب ما انتابه من الهم حينما لم يقبل في صفوف الجيش، وما أدى إليه هذا الفصل من تعيير النساء والجنود المتطوعين له.

وقد سجل المستر كمب هذا ملاحظات قوية عن مسلك هؤلاء الساقطات، وبالأحرى نساء جماعة الهويت فذر (الريشة البيضاء) فقد روت أرملة المنتحر أنه حاول الانخراط في صفوف الجيش في أكتوبر، لكن طلبه رفض بحجة أنه ضعيف القلب، وأن هذا وحده قد أحزنه وأورثه الهم لأنه تخيل أنه سوف يفقد رخصته بسبب ضعف قلبه، وزاد في بلواه مرض أحد أطفاله.

وذكر جندي من أقربائه أن حياة المتوفى قد غدت تعاسة كاملة بسبب أولئك النسوة اللائي رحن يعيرنه ويرمينه بالجبن لأنه لم يلتحق بالجيش، وقد وجه إليه بعضهن قبيل وفاته بأيام قليلة عبارات أثارته وصدمت نفسه.

وقد ذكر وكيل النائب العام في شيء من الحماسة أن مسلك أمثال هؤلاء النسوة كان مسلكا شنيعا، وأنه لعمل فاضح أن يسمح للنساء اللائي لا يعرفن شيئا عن ظروف أحد من الناس، بالتقلب في المحافل ليجعلن حياة هذا الواحد الذي قد حاول أن يقوم بواجبه جحيما لا تطاق بما يشعن عنه من شائعات، ومما يدعو للأسف أنهن لم يكن يستطعن أن يصنعن شيئا أحسن من هذا، فهذا مثل لرجل من الناس دفعت به طغمة من النساء البلهاوات إلى براثن الموت وقد تمنى كمب لو عمل شيء ليقف مثل هذا السلوك عند حده (الديلي نيوز ١٦ يوليو سنة ١٩١٥).

يفتقر إلى رأي عام مسماح، وإلى التجرد من هذا التدخل الغريزي في شئون جيراننا، ذاك التدخل الذي ينزلق بالصالحين، في غير وعي، وفي صورة التأييد لمستوى أخلاقي رفيع، إلى طبائع الاستبداد والظلم. أن ظننا السيئ بالآخرين لا ينهض سببا صالحا في ذاته لأن نحسب أنفسنا قوما صالحين، وما دام الناس يجهلون هذا، وما دامت الدولة تستطيع أن تصنع (تفبرك!) الرأي العام، إلا في الأحوال النادرة التي تكون فيها الدولة دولة ثورية، فإن الواجب أن يعتبر الرأي العام جزءا ثابتاً من سلطان الدولة.

أما سلطان الدولة خارج حدود بلادها فمنشؤه أصلا الحرب أو التهديد بالحرب، وبعض هذا السلطان مستمد من قدرتها على إقناع رعاياها بأن يقرضوا أموالهم أو بألا يقرضوها، إلا أن هذا أمر غير ذي بال إذا قيس إلى سلطانها المستمد من الجيوش والأساطيل، ونشاط الدولة الخارجي، باستثناء ظروف يمكن غصن الطرف عنها لندرتها، هو نشاط أناني. وتتلطف الأنانية أحياناً بحاجة الدولة إلى المحافظة على صلات المودة بينها وبين الدول الأخرى، إلا أن هذا يكيف الوسائل المستعملة فحسب، ولا يكيف الغايات المنشودة، إذ الغايات المنشودة، إذا استثنينا منها الدفاع ضد الدول الأخرى، هي، من جهة، فرص لاستغلال البلاد الضعيفة غير المتمدينة، استغلالا ناجحا، ثم هي من جهة أخرى ذاك السلطان وهذا الاعتبار اللذان تعدهما الدولة أكثر جلالا وأقل أهمية من المال. ففي سبيل هذه الأشياء لا تتردد أيما دولة من قتل عدد لا يحصى من الأجانب، ممن لا تتلاءم سعادتهم والاستغلال أو الاستعباد، كما لا تتردد في تدمير البلاد التي تظن أن نشر الرعب في أرجائها أمر ضروري، وبصرف النظر عن الحرب الحاضرة، نجد أن كثيرا من الدول الصغرى، وجميع

الدول العظمى[1]، ما عدا النمسا قد أقدمت على مثل هذه الأفعال. أما عدم إقدام النمسا عليها فقد كان أمرا خارجا عن إرادتها، لأن الفرص لم تسمح به!

لماذا يستسلم الناس عن طواعية لسلطان الدولة؟ أن ثمة أسبابا شتى لهذا الاستسلام، بعضها قديم، وبعضها حديث العهد جدا، وعظيم الأهمية.

أما السبب القديم لطاعة الناس للحكومة فهو الولاء الشخصي لصاحب السلطان. لقد نشأت الدول الأوربية في ظل النظام الإقطاعي، وكانت هذه الدول أصلا، هي تلك الأقاليم المتعددة التي يملكها زعماء الإقطاع، ولكن علة هذه الطاعة قد انتهى أمرها، والراجح أنها لا شأن لها اليوم إلا في اليابان، وهي أقل شأنا في روسيا.

وقد ظل الشعور القبلي، الذي كان يصحب دائما الولاء لصاحب السلطان، قويا كما كان شأنه دائما، وهو اليوم السند الأساسي لسلطان الدولة، وكل إنسان تقريبا يدرك بأنه لابد له، لكي يكون إنسانا سعيدا، من أن يشعر بأنه عضو في جماعة تتجدد الحياة فيها بالصداقات والخصومات، جماعة مترابطة فيما بينها للدفاع عن نفسها أو لمهاجمة أعدائها. ولكن هذه الجماعات نوعان، منها ما هو بالضرورة امتدادات للأسرة، ومنها ما يقوم على عرض روحي مشترك... وتدخل الأمم في عداد النوع الأول، وتدخل الطوائف الدينية في النوع الثاني، ومن شأن الجماعات القومية أن تضعف أحياناً حينما تكون معتقداتهم متغلغلة في نفوسهم كما حدث في الحروب الدينية بعد عهد الإصلاح، وفي مثل هذه الأوقات تكون العقيدة المشتركة أقوى من القومية المشتركة، وبقيام المذهب الاشتراكي في العالم الحديث وقع شيء من هذا القبيل،

([1]) أقدمت عليه انجلترا في جنوب أفريقيا، وأمريكا في الفلبين، وفرنسا في مراكش وإيطاليا في طرابلس، وألمانيا في أفريقيا الجنوبية الغربية، وروسيا في إيران ومنشوريا واليابان في منشوريا.

وإن يكن في نطاق أقل بكثير، فأولئك الذين لا يؤمنون بمبدأ الملكية الخاصة، ويحسون بأن الرأسماليين هم أعداؤهم الحقيقيون، تقوم بينهم رابطة تسمو فوق الانقسامات القومية– وهذه العقيدة المشتركة وإن لم تكن من القوة بحيث تكفي لمقاومة المشاعر التي أثارتها الحرب الحاضرة، قد جعلت هذه المشاعر أقل مرارة بين الاشتراكيين مما هي بين غيرهم، وقد أبقت على هذا الأمل الذي راود النفوس بإعادة بناء مجتمع أوربي حينما تضع الحرب أوزارها، على أننا، في الغالب، نجد أن تفشي كفر الناس بمعتقداتهم كان انتصارا للشعور القبلي، كما جعل القومية أقوى منها في أي عهد من عهود التاريخ. وقد وجد قليلون من المسيحيين المخلصين، وقليلون من الاشتراكيين المخلصين، في عقائدهم قوة في وسعها مقاومة هجمات العاطفة القومية، إلا أن هؤلاء كانوا من القلة بحيث لم يستطيعوا التأثير في مجرى الحوادث، بل كانوا أضعف من أن يسببوا لحكوماتهم قلقا ذا بال.

أن الشعور القبلي بخاصة هو الذي تتولد عنه وحدة دولية قومية، ولكن ليس هذا الشعور القبلي وحده هو الذي تتولد عنه قوة هذه الدولة، أن قوتها قبل كل شيء نتيجة لنوعين من الخوف، كلاهما معقول: الخوف من الجريمة والفوضى في الداخل، ثم الخوف من الاعتداء الذي يأتي من الخارج.

أن النظام الداخلي لمجتمع متمدين عمل عظيم، وأهم العوامل التي يقوم عليها هو سلطان الدولة المتزايد، وليس خليقا أن يظل المواطنون المحبون للسلم مهددين بالسرقة وبالقتل، وتكاد الحياة المتمدينة تصبح من المحال، إذا كان في وسع المغامرين من الناس أن يؤلفوا الجيوش الخاصة بقصد السلب. وقد وقعت أحداث مثل هذه في العصور الوسطى، ولم يتخلص الناس من شرها إلا بعد نضال طويل. ويحسب الكثيرون، ولاسيما الأغنياء الذين تعود عليهم القوانين

والنظام بأعظم النفع –أن أي انتقاص في سلطان الدولة ربما ردنا إلى حالة من الفوضى العامة، وهم يعدون الإضرابات نذر شؤم للفساد والانحلال، ويهلعون من المنظمات التي من قبيل مؤتمر العمل العام، وعمال العالم الدوليين– وهم كذلك يذكرون الثورة الفرنسية فيشعرون برغبة ليست غير طبيعية للاحتفاظ برؤوسهم فوق رقابهم، ويجزعون بخاصة من أية نظرية سياسية يستشف منها أنها تلتمس الأعذار للجرائم الخاصة التي من قبيل حوادث التخريب الانتقامية والاغتيال السياسي، وهم لا يرون ما يحميهم من هذه الشرور وسوى تأييد سلطان الدولة، والإيمان بأن كل مقاومة للدولة تعد من الأعمال الإجرامية.

والخوف من الخطر في الداخل يزيده الخوف من الخطر في الخارج، وكل دولة معرضة على الدوام لخطر الغزو الخارجي، ولم يوفق الناس بعد للطريقة التي يقللون بها من شأن هذا الخطر إلا الاستزادة من السلاح، بيد أن الأسلحة التي يقصد بها دفع الغزو في ظاهر الأمر قد تستخدم للغزو كذلك؛ وهكذا يكون للوسائل التي تتخذ لدفع الغزو أثرها في زيادة خطر هذا الغزو، وأثرها في زيادة قوى الحرب التخريبية زيادة بالغة حينما تنشب هذه الحرب بالفعل، وبهذا يسود حكم الإرهاب، وتنال الدولة شيئا من سمات **Comite du Salut Public** (لجنة الأمن العام).

والشعور القبلي الذي تتطور منه الدولة هو شيء طبيعي، والخوف الذي يشد من ساعة الدولة خوف معقول في ظل الظروف الحالية، وبالإضافة إلى هذين العاملين، نجد مصدرا ثالثا من مصادر القوة في الدولة القومية، هو الوطنية في مظهرها الديني.

والوطنية شعور معقد أيما تعقيد، يتكون من الغرائز الفطرية، ومن المعتقدات الراسخة في الذهن، فثمة حب الوطن والأسرة والأصدقاء، ذلك الحب الذي

يثير اهتمامنا بخاصة للمحافظة على بلادنا من الغزو، وثمة هذه الغريزة الرقيقة التي تجعلنا نؤثر المواطنين على الأجانب، ثم تلك الكبرياء المرتبطة بنجاح المجتمع الذي ننتمي إليه، أن ثمة اعتقادا توحي به إلينا هذه الكبرياء ويؤيده التاريخ، هو أن أمة الواحد منا تمثل تقاليد عظيمة، وأنها رمز للمثل التي لابد منها للنوع الإنسان، إلا أن هناك عنصرا آخر، فضلا عن ذلك كله، أكثر نبلا، وأشد تعرضا للهجوم العلني، هو عنصر العبادة، عنصر التضحية الصادقة، عنصر اندماج حياة الفرد وهو راضي النفس في حياة الأمة، وهذا العنصر الديني من عناصر الوطنية، عنصر جوهري لقوة الدولة مذ كان يسجل أحسن ما تنطوي عليه صدور الذين يؤمنون بالفداء القومي.

والعنصر الديني من عناصر الوطنية يقويه التعليم، ولاسيما العلم بتاريخ بلاد الإنسان وآدابها، بشرط ألا يكون هذا مصحوبا بعلم غريزي عن تاريخ بلاد أخرى وآدابها، وفي كل بلد متمدين ينصب كل ما يثقف به الصغار على محاسن أمتهم، ومعايب الأمم الأخرى، ويحدث أن يعتقد الناس قاطبة أن أمة الإنسان نظرا إلى فضلها الذي لا يسمو عليه فضل، تستحق منه العون فيما تخوضه من المعارك، أياً كان الداعي الذي نشبت من أجله، وتبلغ هذه العقيدة من الأصالة والعمق وأنها تجعل الناس يحتملون خسائر الحرب ومتاعبها وويلاتها بالصبر البالغ، وبنفس يكاد يملؤها الرضا.. وهي كجميع الديانات التي يؤمن بها أصحابها إيماناً خالصاً، تضفي على الحياة مظهرا أساسه الغريزة، لكنه مظهر يسمو بالحياة ويجعل الناس يكرسونها لغاية أعظم من أية غاية شخصية، إلا أنها تشتمل على غايات كثيرة شخصية كأنها ذائبة فيها.

والوطنية إذا اتخذت دينا كانت غير وافية بالمرأم بسبب ما تفتقر إليه من الشمول، وذاك أن الصالح الذي تهدف إليه ليس إلا صالح الأمة التي ينتمي

إليها الإنسان فحسب، وليس صالح النوع الإنساني جميعه، والرغائب التي تثيرها في نفس الرجل الإنجليزي ليست هي نفس الرغائب التي تثيرها في نفس الرجل الألماني، وقد يكون لعالم الذي يملؤه وطنيون عالما تملؤه المنازعات، وكلما تأصلت جذور الوطنية في أمة من الأمم اشتد فيها روح عدم المبالاة، الذي يصل إلى حد التعصب، بما تتعرض له الأمم الأخرى من الضرر؛ وعندما يحين للناس أن يتعلموا تقديم صالح مجموعة أكبر منهم عددا على صالحهم الخاص، لا يكون ثمة سبب متين لوقوفهم من النوع الإنساني كله غير ذاك الموقف، أنه هو المزيج من الكبرياء القومية التي تجعل من اليسير بمكان لنزعات الناس نحو التضحية في وقت القيام بها، أن تقف بهم جامدين عند حدود بلادهم، أن هذا المزيج هو الذي يسمم الوطنية، ويجعلها أدنى بوصفها دينا، من العقائد التي تهدف إلى خلاص الناس جميعا، أننا لا نستطيع إلا أن نضمر من المحبة لبلادنا أكثر مما نضمره للأمم الأخرى، وليس ثمة من سبب يحملنا على أن نحب غيرنا من الأمم جميعا بدرجة متساوية.. وهذه نفسها هي حالنا مع الأفراد، إذ لا يمكن أن نسوي في حبنا لهم جميعا، بيد أن أية ديانة سديدة سوف تؤدي بنا إلى التلطيف من عدم المساواة في محبتنا للناس، بحبنا للعدالة، وبجعل أهدافنا أهدافا عالمية بتحقيق أغراض البشر المشتركة، ولقد أثرت المسيحية في اليهودية هذا التأثير الذي يجب أن يحدث مثله في أي دين قومي خالص، قبل أن يمكن تطهيره من الشر.

وللوطنية من الناحية العملية أعداء آخرون كثيرون تناوشهم ويناوشونها؛ فمذهب العالمية، أو مذهب القائلين بأن يكون العالم كله عشيرة واحدة لا يمكن أن يقف عن الانتشار طالما أن الناس يحصلون على معرفة أكثر عن البلاد الأجنبية عن طريق التعليم والأسفار، وثمة كذلك نوع من الفردية لا ينفك ينمو،

لون من ألوان الإدراك مؤداه أن كل إنسان يجب أن يتحرر ما وسعه التحرر ليختار غاياته بنفسه، وألا يجبر بفعل حادث جغرافي على الجري وراء غايات فرضها عليه المجتمع، فالاشتراكية والحركة النقابية، والحركات المضادة للرأسمالية هي فيما تقصد إليه على العموم حركات معادية للوطنية لهذا أنها تجعل الناس يدركون أن هذا اللون من ألوان الدولة في العصر الحالي يهتم أكبر الاهتمام بحماية امتيازات الأغنياء، وأن الكثير من ألوان الاصطدام بين الدول له أسبابه في المصالح المالية لطبقة القلة البلوتقراطية، أعني طبقة الأغنياء المتسلطين على الحكم، وقد يكون هذا اللون من ألوان المقاومة شيئا مؤقتاً، أو مجرد حادث طارئ في نضال العمال للحصول على السلطان، فأستراليا مثلا حيث يجد حزب العمال فوزه مضمونا، ممتلئة بالوطنيين والعسكريين الذين يجعلون دأبهم منع العمال الأجانب من أن يشاركوهم خيرات موقفهم الممتاز، وليس من غير المحتمل أن تتطور انجلترا، فتكون بلدا قوميا مثل استراليا، إذا أصبحت دولة اشتراكية، بيد أن الراجح أن مثل هذه القومية ستكون قومية دفاعية خالصة، أن مشروعات الاعتداء الأجنبي التي تتسبب عنها خسارة عظيمة في المال وفي الأرواح في الأمم التي تأخذ بهذه السياسة لا يكاد يهتم بها إلا أولئك الذين ألهبت غرائز التملك فيهم تلك القوة التي يستمدونها من الملكية الخاصة ومن نظم الدولة الرأسمالية.

إن الشر الذي يجلبه على العالم الحديث سلطان الدولة المفرط في التضخم شر عظيم، وقل أن يفطن إليه أحد منا.

وأكبر الأضرار التي تلحقها بالعالم دولة من الدول هو الارتقاء بكفاياتها الحربية فوق كفايات غيرها، فإذا كانت جميع الدول تزيد قوتها، فإن ميزان القوى يبقى غير متغير، ولن يكون لأية دولة من الدول فرصة الانتصار على

غيرها بأكثر مما كان لها من قبل، ومتى وجدت وسائل الاعتداء، حتى لو كان الغرض الأساسي منها دفاعيا في الأصل، فمن المحتمل أن ينشأ عن وجودها إغراء باستعمالها في الحال أو فيما بعد، للتدليل على البطش والغلب، وبهذا تكون الوسائل التي زادت في أمن الدولة داخل حدودها قد زادت في الخطر المتربص بالعالم في كل مكان. أن الغرض الجوهري للحكم هو إخماد روح العنف داخل البلاد، وتيسيره خارجها. أن الدولة تخلق تقسيما مصطنعا اصطناعا كليا لبني الإنسان ولواجباتنا نحوهم، فنحن مقيدون بالقانون نحو هذه الجماعة، أما نحو أولاء فنحن نسير في توجس قطاع الطرق.. أن الدولة تصبح شرا بكثرة ما تقيمه من الحواجز بينها وبين غيرها من الدول، وهي حينما تشرع في حرب عدوانية تصبح عصابة تقوم على السلب والنهب، فالنظام الحالي نظام غير معقول، ما دام أن الفوضى الداخلية والخارجية لابد أن تكون كلتاهما صوابا أو أن تكون كلتاهما خطأ، والناس يؤيدون هذا النظام ظنا منهم بأنه هو السبيل الوحيد لسلامتهم طالما أن غيرهم يستصوبونه ولأنه يضمن لهم لذاذات الظفر والتسلط التي لا يمكنهم الحصول عليها في مجتمع صالح. فإذا كف الناس عن الجري وراء هذه اللذاذات، أو إذا أصبح من غير الممكن الحصول عليها، لأمكن أن يكون مشروع تأمين سلامة البلاد من الغزو شيئا غير عسير.

وإذا ضربنا عن الحرب صفحا، وجدنا أن الدولة الحديثة العظيمة شيء ضار بسبب تضخمها وما ينتج عن هذا التضخم من إحساس الأفراد بالعجز، فالمواطن الذي لا يسيغ الغايات التي تجري الدولة وراءها، لا يمكنه أن يقنع الدولة باتخاذ غايات أخرى، هي في نظره خير من تلك الأهداف، إلا إذا كان ذا مواهب نادرة، ونحن نلاحظ، حتى في الدول الديمقراطية أن معظم الأمور يبت

فيها نفر قليل من الموظفين والرجال البارزين، بل أن المسائل القليلة المتروكة للتصويت العام تبت فيها سيكلوجية الجماهير المتفشية لا الابتكار الفردي، وكان أولى أن يبت فيها أصحاب الأصوات الانتخابية بعد عرضها عليهم خارج البرلمان، وهذا ملاحظ بخاصة في بلاد كالولايات المتحدة، حيث نجد الناس بالرغم من ديمقراطيتهم يعجزون عجزا شديدا عن تفهم المسائل ذات التبعات الكبرى، وفي بلاد مترامية الأطراف كهذه نرى أن إرادة الشعب تشبه إحدى القوى الطبيعية، وتكاد تكون مثلها في عدم خضوعها لرجل واحد، أياً كان هذا الرجل، وهذه ظاهرة يكون من نتيجتها في جميع الدول الكبرى، وليس في الولايات المتحدة فحسب، قيام حالة من فتور الهمم وتثبيط العزائم اللذين يذكراننا بمثل هذه الحالة في الإمبراطورية الرومانية. والدول الحديثة على خلاف ما كانت عليه دول المدن الصغيرة في اليونان القديمة وفي إيطاليا في العصور الوسطى، لا تكاد تسمح بعرض المسائل الهامة على أفراد الشعب ليبتوا فيها بأنفسهم، بل هي تخفق في تنمية أي لون من ألوان المقدرة في معظم الناس للهيمنة على مصائرهم السياسية، والقلة من الرجال الذين يصلون إلى السلطان في هذه الدول هم رجال من ذوي المطامع غير العادية ومن الظامئين إلى السيطرة فضلا عن مهارتهم في ختل من يفاوضونهم والاحتيال عليهم، أما بقية الناس فيؤثرون البعد لعلمهم بعجزهم.

ولا يزال في أذهان البعض أثر عجيب من آثار الفكرة الملكية القديمة عن الدولة، فهم يعتقدون أن ثمة شيئاً من الشر في جنوح أي طائفة من طوائف الأهالي إلى التمرد وشق عصا الطاعة، فإذا رغبت أيرلنده وبولنده في الاستقلال بدا لهم وجوب مقاومة هذه الرغبة بكل ما فيهم من جهد، والحكم على أي إنسان يحاول القيام بها "بالخيانة العظمى" والمثال الوحيد الذي لا تنطبق عليه

تلك الملاحظة، والذي يمكنني تذكره هو انفصال النرويج من السويد، وهو هذا الانفصال الذي نال استحسان العالم، ولم ينسج على منواله أحد، ففي الحالات الأخرى لم يكن شيء يحمل الدولة على النزول عن شيء من أراضيها إلا الهزيمة في الحرب، وهذا اتجاه مسلم به، إلا أنه ليس الاتجاه الذي يمكن التسليم به إذا كانت الدولة تهدف إلى أهداف أحسن، أما السبب في التسليم به فهو أن الغاية الأساسية لجميع الدول العظمى تقريبا هي القوة وبخاصة القوة في الحرب، والقوة في الحرب تزداد بوجود بعض أجزاء من الدولة لا يميل أهلها إلى بقائهم أعضاء فيها، فإذا كانت منفعة المواطنين هي الغاية التي تنشدها الدولة، كان من الممكن ترك مسألة استبقاء هذا الجزء من أجزاء الدولة أو فصله ليكون دولة مستقلة، ليبت فيها أهل هذا الجزء بمحض حريتهم، ولو أن الناس أخذوا بهذا المبدأ لأمكنهم أن يتجنبوا أحد أسباب الحرب الأساسية، ولأمكنهم القضاء على عنصر من أشد عناصر الطغيان في الدولة.

والمصدر الأول من مصادر الضرر الذي تتسبب فيه الدولة هو أن تكون القوة غايتها الكبرى، وليس هذا هو الحال في أمريكا، لأن أمريكا آمنة من الاعتداء(١) إلا أنه هو الحال في جميع الأمم الأخرى التي تهدف الدولة فيها إلى أن يكون لها أعظم قدر ممكن من مقومات القوة الخارجية، وفي سبيل هذه الغاية تنتقص حرية الأهالي، وينكل أشد التنكيل بمن يقومون بالدعاوة ضد الاستعداد العسكري، ولهذا الوضع جذوره من الكبرياء والخوف، الكبرياء التي تأبى أن تأخذ بأسباب السلام، والخوف الذي يوجس من عواقب الكبرياء الأجنبية التي تتعارض وكبرياءنا نحن، والظاهر أنه عرض من أعراض التاريخ أن يتحكم هذان الشعوران اللذان لا يمكن بأية حال أن يستنفدا مشاعر الرجل العادي

(١) كتب هذا الكلام سنة ١٩١٥ (؟).

السياسية، في سياسة الدولة الخارجية تحكما تاما على هذه الصورة، فلو لم تكن هذه الكبرياء لما كان ثمة سبب لهذا الخوف: خوف إحدى الدول بسبب ما تتوهمه من زهو دولة أخرى وكبرياء السيطرة، وبالأحرى عدم الرغبة في حسم المنازعات بأية وسيلة إلا وسيلة العنف، أو التهديد باستعمال العنف، هي عادة من عادات العقل التي تشجع القوة على وجودها تشجيعا كبيرا، وهؤلاء الذين تعودوا زمنا طويلا على استخدام القوة يصبحون أوتقراطيين وميالين للشغب، ولا يطيقون أن يروا نظراءهم إلا منافسين لهم. ومما اكتسب سوء الأحدوثة بين الناس أن الاجتماعات التي يعقدها نظار المدارس من شأنها أن تنتهي إلى الاختلافات الشنيعة أكثر مما يحدث في الهيئات الأخرى المشابهة لها: وذلك أن كلا من هؤلاء النظار يحاول أن يعامل أعضاء الاجتماع كما يعامل تلاميذ مدرسته، فإذا تبرموا بمثل هذه المعاملة، ضاق هو بتبرمهم. أن الذين تعودوا أن يكونوا من أهل السلطان لا يصلحون بحال لمهمة المفاوضات التي يجب أن يسودها روح الود، ولكنا نرى أن العلاقات الرسمية للدولة تكون بخاصة في أيدي هذا النفر الذي اجتمع له قدر كبير من السلطان في بلاده، وهذا بالطبع، أكثر حدوثا في البلاد التي يكون المسيطر على مقاليد الأمور فيها بالفعل ملكا، ويقل أثر هذا حيثما وجدت أقلية حاكمة من أصحاب النفوذ، ثم يقل أكثر في البلاد التي تخطو بقدر ما نحو الديمقراطية الصحيحة، لكنه صحيح إلى حد كبير جدا في جميع البلاد، لأن رؤساء الوزارات ووزراء الخارجية هم بالضرورة رجال قائمون بالحكم. وأول خطوة لعلاج تلك الحال هي أن يهتم المواطن العادي بالشئون الخارجية اهتماما بالغ، وأن يصر على وجوب عدم السماح للكبرياء القومية بأن تعرض مصالحه الأخرى للخطر، فالمواطن العادي حينما يستثار في أثناء الحرب يكون راغبا في التضحية بكل شيء في سبيل هذه الكبرياء القومية لكنه يكون أكثر استعدادا من حكامه في أيام السلم للأخذ بفكرة أن

المشكلات الخارجية، مثلها مثل المشكلات الخاصة، يجب أن تسوى بالطرق الودية، وفقاً للمبادئ القويمة، وليس عن طريق استعمال القوة الغشوم، أو التهديد باستعمال تلك القوة.

ويمكننا أن نلاحظ بكل وضوح أثر التحيز الشخصي الذي ينتاب تلك الفئة التي تتألف منها الحكومات بالفعل، في منازعات العمل. فالنقابيون الفرنسيون يؤكدون أن الدولة هي بكل بساطة ثمرة من ثمار الرأسمالية، وبالأحرى جزء من الأسلحة التي يستخدمها رأس المال في نضاله مع العمال، وثمة شواهد كثيرة تؤيد هذا الرأي، حتى في البلاد الديمقراطية، فمن الأمور العادية في أثناء الاضطرابات تسليط رجال الجيش على المضربين لكبح جماحهم، وبالرغم من أن أصحاب العمل أقل من العمال بكثير، ومهمة كبح جماحهم أيسر بكثير كذلك، فإن هؤلاء الجنود لا يستخدمون ضدهم على الإطلاق، وحينما تشل اضطرابات العمال صناعة بلد من البلاد، فإن المسئولية تقع على عاتق هذا النفر الذي يتهمونه بالمروق من الوطنية، في حين لا يوجهون شيئا من تلك المسئولية إلى السادة.. وإن كان واضحاً أن المسئولية تقع على عاتق الفريقين. أما السبب الأكبر لهذا المسلك الذي تسلكه الحكومات فهو أن الرجال الذين تتألف منهم ينتمون، بنجاحهم، وإن لم يكن بمنشئهم، إلى نفس الطبقة التي ينمي إليها أسباب العمل، وتتحد محاباتهم وشركاؤهم في جعلهم ينظرون إلى إضرابات العمال وامتناعهم عن العمل بالعين التي ينظر بها الأغنياء إليها. وفي البلد الديمقراطي يصحح الرأي العام، والحاجة إلى استرضاء الأعوان السياسيين، جانبا من هذه المؤثرات البلوتقراطية (الخاصة بحكومة الأغنياء) إلا أن التصحيح يظل جزئياً دائما، والمؤثرات نفسها التي تغير وجهات نظر الحكومة في المسائل العمالية هي التي تغير آراءها أيضا في الشئون الخارجية. ومما يزيد الطين بلة أن

الوسائل التي تتهيأ للمواطن العادي أقل بكثير من أن تسمح له بتكوين رأي مستقل.

والقوة المفرطة التي تبلغها الدولة عن طريق الاستبداد الداخلي أحيانا، وعن طريق الحرب والخوف من الحرب في الغالب، هي أحد الأسباب الكبرى لتعاسة العالم الحديث، كما أنها أحد العوامل الأساسية لوهن العزيمة الذي يحول بين الناس وبين الوصول إلى تمام قواهم الذهنية، ولابد من الوصول إلى وسيلة لعلاج هذه القوة المفرطة إذا أردنا ألا يتسرب اليأس إلى نفوس الناس كما حدث في الإمبراطورية الرومانية.

وللدولة غاية هي على العموم غاية طيبة، وتلك هي إحلال القانون محل القوة في علاقات الناس بعضهم ببعض، ولكن هذه الغاية لا يمكن تحقيقها على الوجه الأكمل إلا عن طريق دولة عالمية لا يمكن إخضاع العلاقات الدولية بدونها للقانون. وبالرغم من كون القانون خيرا من القوة، فإنه إلى الآن ليس الوسيلة المثلى لحسم المنازعات. أن القانون جامد شديد الجمود، وطالما رأيناه يؤيد ما هو في سبيله إلى الفناء، وقلما نراه يؤيد ما هو في طريق النماء. وطالما أن السلطة المطلقة من الوجهة النظرية هي للقانون، فلا جرم يكون القانون عرضة للتعديل بين الحين والحين، بالثورة في الداخل، والحرب في الخارج، ولا يمكن تفادي ذلك بغير الاستعداد المستديم لتغيير القانون تغييرا يتلاءم وميزان القوى في الوقت الحاضر، فإذا لم يفعل العالم ذلك فستصبح البواعث الملجئة إلى استعمال القوة شيئا لا يمكن مقاومته، إن حالا وإن مستقبلا. وسيكون من اختصاص الدولة العالمية، أو اتحاد الدول، إذا أريد أن يكون اتحادا ناجحا، أن يحسم في أمور العالم لا عن طريق المبادئ القانونية التي يمكن تطبيقها. في محكمة العدل بلاهاي، ولكن، بقدر المستطاع، على هدى النتيجة التي كانت تصل

إليها لو أن هذه الأمور حسمت بالحرب: يجب أن تكون وظيفة السلطة جعل الالتجاء إلى القوة غير ضروري، وليس إهدار قرارات مضادة للقرارات التي يمكن الوصول إليها بالقوة.

وقد يحسب البعض أن هذا الرأي مناف للأخلاق. وربما احتج البعض بأن غاية الحضارة هي كفالة العدالة، وليس إتاحة النصر للأقوياء. ولكن حينما يسمح لهذا التناقض بأن يقع، ينسى الناس أن محبة العدالة قد تكون هي نفسها سببا في استعمال القوة. فإذا أردنا وضع تشريع للحسم في موضوع مختلف عليه، بنفس الطريقة التي كان يحسم بها لو أننا التجأنا إلى القوة، لوجب علينا أن نضع العدالة نصب أعيننا عند وضع هذا التشريع، بشرط أن يكون الحق في جانب واحد بصورة صارخة بحيث يجعل الأطراف التي لا دخل لها في الموضوع ترغب في دخول المعركة. إن رجلا قويا إذا هاجم رجلا ضعيفا في أحد شوارع لندن، فإن ميزان القوة يميل إلى جانب الرجل الضعيف، وذلك لأن المارة سيتقدمون لحمايته، ولو لم يتدخل رجال البوليس. أن كلامنا عن النضال بين القوة والحق، وتمنينا في الوقت نفسه أن ينتصر الحق، ليس إلا رياء وانحرافا منا عن الجادة. أن النضال إذا كان ناشبا حقا بين القوة وبين الحق، فمعنى هذا أن ينهزم الحق. والذي يرمي إليه من طرف خفي القائلون بأن الحق هو القوة هو أن الجانب الأقوى ليس قويا إلا لضعف مفهوم الحق في أذهان الناس. غير أن مفهوم الحق في أذهان الناس مفهوم شخصي بحت، ثم هو عامل من العوامل التي تقضي بترجيح القوة. وليس مناط الرغبة في أي تشريع هو وجوب الحسم في الأمور بمقتضى ما يفهمه الناس عن الحق، ولكن أن يحسم فيها بالطريقة التي نشعر أنها تجعل الالتجاء إلى القوة غير ضروري.

والآن، وقد تكلمت عما لا ينبغي للدولة أن تضطلع به، فلأتكلم عما

ينبغي لها أن تقوم به من مهام:

ففضلاً عن الحرب، وحفظ النظام الداخلي، نجد للدولة وظائف إيجابية أخرى معينة تقوم بها، ووظائف أخرى معينة يجب أن تقوم بها.

ويمكننا أن نضع مبدأين فيما يتعلق بهذه الوظائف الإيجابية:

أولاً: أن ثمة أمورا يتوقف صالح المجتمع كله على أن يصل جميع أفراده إلى حد أدنى معين منها عملا لا نظرا فحسب، وفي أحوال كهذه، يكون للدولة الحق في الإصرار على بلوغ هذا الحد.

ثانيا: هناك طرق تجعل ألوانا مختلفة من المظالم في حيز المستطاع، وذلك لإصرار الدولة على الاكتفاء بتنفيذ القانون، دون أن تفعل شيئا آخر مع أنها مظالم كان يمكن ألا تقع بعامل الخوف مما تثيره من غضب من تقع عليهم. والدولة هي التي ينبغي -بقدر المستطاع- أن تكون المانعة من وقوع هذه المظالم.

وأعظم الأمثلة وضوحا على أن الصالح العام يتوقف في أمر ما من الأمور على بلوغنا فيه حدا أدنى، هو الإجراءات الصحية ومنع الأمراض المعدية، فإن حالة واحدة من حالات الطاعون قد ينشأ عنها كارثة لمجتمع بأسره، إن هي أهملت. ولا يستطيع أحد أن يؤيد تأييدا معقولا، بحجة المبادئ العامة للحرية، وجوب ترك شخص مصاب بالطاعون هو وشأنه، لينشر العدوى في أوسع نطاق. ومثل هذا ينطبق على موضوع المجاري والتبليغ عن الحميات، وما إليها من الأمور الأخرى، والتدخل في حرية الآخرين يظل شرا، ولكنه- في بعض الأمور يكون كما لا يخفى شرا أقل شأنا من انتشار مرض يمكن أن تجلبه علنيا تلك الحرية، ولعل استئصال الملاريا والحمى الصفراء بإبادة البعوض هو أبرز

الأمثلة على ما يمكن أداؤه من الخير بهذه الطريقة، ولكن حينما يكون الخير تافها أو مشكوكا فيه، والقدر الذي نتدخل به في حرية الناس كبيرا، يصبح أفضل لنا أن نتحمل قدرا معينا من المرض الذي قد يمكن اجتنابه، من أن نقاسي هذا الاستبداد العلمي.

ويدخل التعليم الإلزامي تحت العنوان نفسه الذي تدخل تحته الإجراءات الصحية. فوجود الطبقات الجاهلة في مجموع أهل البلاد خطر على المجتمع: لأن وجود نسبة ضخمة من الأميين يوجب على الجهاز الحكومي كله أن يعمل حساب ذلك، وقد يكون قيام الديمقراطية في صورتها الحديثة، في أمة من الأمم، مستحيلا استحالة تامة لجهل الكثيرين من الرجال بالقراءة. بيد أن الأمر لا يستلزم التعميم في هذه الحالة كما يستلزمه في مسألة الإجراءات الصحية، وقد كان الأولى أن يسمح للغجر الذين جعلت السلطات التعليمية أسلوب حياتهم ضربا من المحال تقريبا، بأن يشذوا على تلك القاعدة شذوذا كليا، إلا أننا إذا صرفنا النظر عن هذه الحالات الاستثنائية التي لا تكاد تكون لها أية قيمة فإننا لا يمكن أن ندحض الأدلة على أهمية التعليم الإلزامي.

والذي تصنعه الدولة للعناية بالأطفال في زمننا، أقل، وليس أكثر، مما ينبغي لها أن تفعل، فالأطفال لا قدرة لهم على العناية بمصالحهم الخاصة، ومسئولية الوالدين يعتورها النقص من نواح عدة، وواضح أن الدولة وحدها هي التي يمكنها أن تتمسك بتزويد الأطفال بقدر معين من المعرفة والصحة، وهو القدر الذي يرضي ضمير المجتمع في الوقت الحاضر.

وتشجيع البحث العلمي موضوع آخر، يدخل بلا شك في اختصاصات الدولة، لأن منافع المكتشفات تعود بالخير على المجتمع، بينما الأبحاث باهظة النفقات، ولن تؤدي إلى أية نتيجة إذا ترك القيام بها للأفراد، وبريطانيا العظمى

تأتي بتلكئها في مؤخرة البلاد المتحضرة في هذا الميدان.

والنوع الثاني من السلطات التي ينبغي للدولة أن تدخلها في اختصاصها هو تلك السلطات التي تهدف إلى التقليل من الجور الاقتصادي، وهذا هو النوع الذي وضع الاشتراكيون النقط على حروفه، فالقانون يخلق الاحتكار أو ييسره، والمحتكرون قادرون على ابتزاز الضرائب من المجتمع، وأصرخ الأمثلة على ذلك هو الملكية الخاصة للأراضي. والسكك الحديدية في الوقت الحاضر تهيمن عليها الدولة بسبب أن الأجور يحددها القانون. وواضح أنه إن لم تكن الدولة تهمين عليها: لأمكن أن تبلغ درجة خطيرة من السلطان[1]. ومثل هذه الاعتبارات، إذا لم يكن ثمة اعتبارات غيرها، يمكن أن تبرر الاشتراكية الكاملة، إلا أنني أحسب أن العدالة، في ذاتها، هي كالقانون جامدة هذا الجمود الذي يستحيل عليها معه أن تكون مبدأ سياسيا أسمى، فهي، حينما تنفذ، لا تشتمل على أي من بذور الحياة، أو على أية قوة دافعة من قوى التطور. ولهذا السبب، كان من المهم، إذا أردنا أن نعالج إحدى المظالم، أن ننظر إذا كنا بفعلنا هذا سنضحي بالحافز الذي يحفزنا إلى القيام بأعمال عظيمة تعود في جملتها بالفائدة على المجتمع. والملكية الخاصة للأراضي، وأي مصدر آخر من مصادر الإيجار الاقتصادي، لا ترتبط، في مدى ما يصل إليه علمي، بأي عمل من هذه الأعمال، وإذا كان الأمر كذلك، لزم أن تكون الدولة هي المتسلم الأصيل للإجارات.

وإذا سمح للدولة بكل هذه الاختصاصات، فماذا يكون مصير المحاولات التي نبذلها لكف طغيان الدولة على حرية الأفراد؟

إن هذا جزء من المشكلة العامة التي تواجه جميع أولئك الذين لا يزالون

---

(1) ويمكن أن يكون هذا صحيحا في ظل النظام النقابي كما هو في الوقت الحاضر.

يهتمون بالمثل التي أوحت إلى الناس بالحركة التحريرية، وبالأحرى مشكلة الربط بين الحرية والابتكار الفردي من ناحية، وبين التنظيم من ناحية أخرى. أن الشئون السياسية والشئون الاقتصادية آخذة شيئا فشيئا في الخضوع للمنظمات الضخمة التي تهدد الأفراد بالعجز عن مواجهتها. والدولة هي أكبر هذه المنظمات، وهي أكبر خطر يتهدد الحرية، ومع هذا، فيبدو أن كثيرا من اختصاصاتها يجب أن يزداد لا أن يختزل.

وثمة طريق واحد يمكن بواسطته ربط التنظيم بالحرية، وذلك بتأمين سلطة المنظمات الاختيارية المكونة من رجال رغبوا في أن يتبعوا هذه المنظمات لأنها تهدف إلى غاية ما، هي في نظر أعضائها غاية هامة، وليست غاية قضى بها حادث طارئ أو أمر خارج عن الإرادة. والدولة، من حيث أنها وحدة جغرافية، لا يمكن أن تكون كلها عشيرة تألفت بمحض إرادتها، ولكن، لهذا السبب نفسه، كان لابد من رأي عام قوي لكبح جماحها، حتى لا تستعمل سلطاتها استعمالا تعسفيا، ولا يمكن تأمين هذا الرأي العام، في معظم الأحوال، إلا بإقامة الروابط بين أولئك الذين لهم مصالح معينة، أو رغبات مشتركة.

والأعمال الإيجابية للدولة، فضلا عما تقوم به من المحافظة على النظام، يجب ألا تنهض بها الدولة نفسها، بل يترك أمر تنفيذها ما أمكن للمنظمات المستقلة التي ينبغي تركها وشأنها، دون أي تدخل من الحكومة طالما أن الدولة مقتنعة بأن هذه المنظمات لا تهبط فيما تقوم به عن الحد الأدنى الذي لابد منه. ويحدث هذا في التعليم الابتدائي بقدر محدود في الوقت الحاضر، وقد تعتبر الجامعات هي أيضاً قائمة مقام الدولة في موضوع التعليم العالي والأبحاث، إلا أنها معفاة في هذين من التزام حد أدنى. وفي الميدان الاقتصادي يجب أن تقوم الدولة بالإشراف، ولكن يجب أيضاً أن تدع لغيرها الخطوات الإنشائية. وثمة

أسباب لا حصر لها تدعو لمضاعفة الفرص الإنشائية، ولإعطاء كل فرد أعظم نصيب ممكن من حرية التصرف، لأن الدولة إن لم تفعل هذا ظن بها الناس العجز، وتثبيط الهمم. فيجب أن يكون ثمة سعي متواصل يرمي إلى ترك نواحي الحكم التي تغلب عليها المسحة الإيجابية للمنظمات الاختيارية، وذلك ما دامت غاية الدولة هي مجرد توخي الجدارة، وأن تضمن حسم المنازعات حسما وديا، سواء كان ذلك في داخل حدودها أو خارج هذه الحدود، مع ما يجب مراعاته في أثناء ذلك من روح التسامح في أكبر عدد مستطاع من الحالات الاستثنائية، وعدم الاحتفال بالرسميات إلا في أضيق الحدود.

ويمكن أن يتم الشيء الكثير على يد الحكومات المحلية عن طريق الاتحادات المهنية، وعن طريق المناطق. وهذا هو أعظم الآراء أصالة عند النقابيين، وهو رأي له قيمته من حيث أنه قيد يكبح جماح الطغيان الذي يمكن أن يغرر بالمجتمع لاستعماله ضد طبقات معينة من أعضائه. وجميع المنظمات القوية، التي تؤلف رأياً عاما جزئيا، مثل الاتحادات الجغرافية، والجمعيات التعاونية، واتحادات المهن الفنية، والجامعات، يجب الترحيب بها بوصفها دروعا تحمي الحرية وتهيئ الفرص للقيام بالمشروعات. ونحن مفتقرون إلى رأي عام قوي لصالح الحرية نفسها. ويجب علينا أن نخوض من جديد معارك حرية الفكر، وحرية القول، التي كنا نظن أن البشرية قد انتصرت فيها نهائيا، وذلك لأن معظم الناس لا يأذنون بالحرية إلا للآراء التي يرضى عنها الشعب، والتشريعات لا يمكن أن تصون الحرية إلا إذا تحقق الناس من أن الحرية شيء ثمين، وإلا إذا كانوا راغبين في أن يبذلوا ما في وسعهم للإبقاء عليها.

وهناك اعتراض قديم على كل **imperium in imperio** أي –دولة

داخل دولة– ولكن هذا ليس إلا غيرة الطاغية فحسب، أما واقع الأمر فهو أن كل دولة حديثة تحتوي على منظمات كثيرة لا تستطيع أن تقضي على نشاطها إلا في حالات نادرة حينما يستثار الرأي العام ضد هذه المنظمات، وقد كان الحرب الطويلة التي أثارها المستر لويد جورج ضد اتحاد المهن الطبية حول قانون التأمين ممتلئة بطوالع كثيرة من طوالع السعود والنحس الهومرية، كما هزم عمال المناجم في ويلز سنة ١٩١٥، تؤيدهم الأمة المستفزة، جميع جيوش الدولة. أما رجال المال، فليس ثمة حكومة يدور بخلدها أن تشتبك معهم في صدام، فحينما تطالب جميع الطبقات الأخرى بالتضحية في سبيل الوطن فإنها لا تمس الأربعة والنصف بالمائة، التي تمنح لرجال الماء بسوء، كما يمنحون علاوة فائدة مقابل ما يقدمونه للحكومة من مشورة. ومن المفهوم في جميع الدوائر أن أيما فزع إلى وطنيتهم يمكن أن يظهرنا بمظهر الجاهلين بأمور المال، ومما يتنافى وما جرى عليه العرف التجاء الدولة إلى سلب الماليين أموالهم بتهديدهم بسحب حمايتها البوليسية لهم، وليس هذا لما يثيره مثل ذلك التصرف من صعوبات، بل لأن الثروة الضخمة تنال إعجابنا الشديد جميعا، ونحن لا نحتمل أن نرى رجلا واسع الثراء يعامل معاملة خالية من الاحترام.

وقيام المنظمات القوية داخل الدولة كاتحادات الحرف مثلا ليس غير مرغوب فيه إلا من وجهة نظر الموظف الرسمي الذي يبتغي الاستحواذ على السلطة المطلقة، أو من وجهة نظر المنظمات المنافسة، كاتحادات أصحاب العمل الذين قد يفضلون أن يكون خصومهم غير منظمين، ولا يستطيع معظم الناس، نظرا لضخامة اختصاصات الدولة أن يجدوا متنفسا لابتكاراتهم في المجالات السياسية، إلا في المنظمات الثانوية المنشأة للأغراض الخاصة، والنسا إن لم يجدوا هذا المتنفس للابتكار في المجالات السياسية فقدوا حيوتهم

الاجتماعية واهتمامهم بالشئون العامة، وأصبحوا فريسة لمكائد الكائدين الذين فسدت ضمائرهم، وللمتجرين بعواطف الشعب ممن حذقوا فن اللعب بمشاعر الرعاع الضعفاء المتبطلين. وعلاج هذا كله هو أن نزيد في سلطات المنظمات الاختيارية، لا أن ننقص منها، وأن نهيئ لكل شخص مجالا محدودا من النشاط السياسي كما يتفق وميوله ومقدرته، وأن نحد من اختصاصات الدولة إلى أقصى قدر مستطاع، فلا تتعدى هذه الاختصاصات حفظ الوئام بين المصالح المتنافسة. أن القيمة الجوهرية للدولة هي في منعها أي شخص من استعمال القوة داخل البلاد. أما مساوئها الجوهرية فهي ترويجها لاستعمال القوة في الخارج، وأنها، لضخامة اختصاصاتها، تجعل كل فرد يشعر بضآلته حتى في الدولة الديمقراطية. وسأعود في محاضرة تالية إلى مسألة منع الحرب. أن تلافى شعور الفرد بالعجز لا يمكن أن يتم بالرجوع إلى نظام دولة المدينة ذات النطاق الضيق، هذا النظام الذي يمكن أن يكون له رد فعل أشبه برد الفعل الذي ينجم عن عودتنا إلى ما قبل اختراع الآلات، وواجبنا أن نتلافى هذا الشعور بالطريقة التي تساير اتجاهات العصر الحاضر. وممكن أن تكون هذه الطريقة هي زيادة تحويل الابتكار في المجالات السياسية الفعلية إلى الهيئات التي تكونت بمحض إرادتها بقصد القيام بأعمال من نوع خاص. على أن تكون الدولة بعد هذا أشبه ما تكون بالسلطة الفدرالية، أو أشبه بمحكمة للتحكيم، ويمكن أن تحصر الدولة همها عندئذ في الإصرار على أن يكون لها الحق في شيء من حسم الخلاف بين المصالح المتنافسة. ويمكن أن تكون قاعدتها الوحيدة في تقرير الطريقة الصحيحة لحسم هذا الخلاف محاولة للوصول إلى الإجراءات التي ترضى عنها إجمالا جميع الجهات صاحبة الشأن.

وهذا هو الاتجاه الذي تتجه نحوه في الواقع جميع الدول الديمقراطية، إلا

إذا صرفتها عنه الحرب، أو خوف الحرب، فإذا ما فتئت الحرب خطرا وشيك الوقوع في أي يوم فستظل الدولة شبحا مخيفا تضحي في بعض الأحيان بحياة الفرد، وتضحي دائما بارتقائه، الذي لا يصح أن يتقيد بقيد، في سبيل النضال العقيم من أجل السيادة بسبب التنافس بينها وبين الدول الأخرى، إلا أن أبشع أعداء الحرية، سواء في الشئون الداخلية أو الشئون الخارجية، هي... الحرب.

الفصل الثالث

الحرب بوصفها نظاماً

بالرغم مما هو معروف من أن معظم الأمم في معظم الأحيان تستمتع بالسلام نلاحظ أن الحرب نظام دائم في جميع البلاد الحرة، شأنها في ذلك شأن البرلمان الذي هو أحد نظمنا المستديمة، وإن كنا نعلم أنه لا ينعقد على الدوام، وأنا أريد الآن أن أتكلم عن الحرب بصفتها تلك، أي بصفتها مؤسسة دائمة، أريد أن أنظر في الأسباب التي تجعل الناس يحتملون الحرب، والأسباب التي يجب أن تجعلهم ينفرون منها، والخير الذي يعود عليهم إذا أمكن أن يفروا منها، والطرق التي في وسعهم أن يقضوا بها على الحرب إذا هم أرادوا ذلك.

والحرب نزال بين فريقين، يحاول كل منهما القضاء على أكبر عدد ممكن من الفريق الآخر، أو تعجيزه عن العمل، وذلك في سبيل الوصول إلى بعض أغراضه، وهذا الغرض يكون عادة جريا وراء نفوذ، أو طمعا في ثروة؛ والناس يستشعرون لذة من إظهار سلطانهم على ناس آخرين، كما يحلو لهم أن يستحلوا ما يكسبه غيرهم بعرق جبينهم. وفي وسع المنتصرين في الحرب أن يستمتعوا بقدر من هذه المناعم أوفى مما يستطيع المغلوبون. إلا أن الحرب كغيرها من ألوان النشاط الإنساني جميعا، لا تدور رحاها في أغلب الأحيان بسبب ما يصبو إليه مثيروها من مطامع، بقدر ما تثيرها نزعتنا إلى الحرب نفسها، ففي كثير جدا من الأحيان يطمع الإنسان في شيء لا طمعا في الشيء نفسه، ولكن بسبب ما في طبيعته من الميل إلى الأعمال التي تؤدي إلى ذلك المطمح، ونحن نلاحظ بناء على ذلك: أن الغايات التي نطمع في الوصول إليها عن طريق الحرب تبدو في

روعنا، قبل أن نحارب، أهم بكثير منها إذا حققناها عن طريق الحرب بالفعل، وذلك بسبب أن الحرب نفسها تشبع شهوة من الشهوات المركبة في طبيعتنا. ولو كانت أعمال الناس تصدر عن رغبات تحدوهم إلى ما يجلب السعادة حقا، لكانت البراهين المنطقية الخالصة قمينة بأن تضع حد للحروب منذ زمن بعيد. والذي يجعلنا عاجزين عن كبت شهواتنا إلى الحرب هو أنها تصدر عن نزعة، أكثر مما تصدر عن حسن تقدير للمنافع التي نطمع في أن نستخلصها من الحرب.

وتختلف الحرب عما يستعمله البوليس من قوة في أن الأعمال التي يقوم بها البوليس تأمر بها سلطة محايدة، أما في الحرب، فإن الأطراف التي تثير المنازعات هي نفسها التي ترخى العنان للقوة الحربية، وهذا الفرق ليس على إطلاقه، وذلك لأن الدولة ليست دائما محايدة حيدة تامة فيما يتسبب من قلاقل داخل البلاد، فحينما تحدث الإضرابات تنحاز الدولة إلى جانب الأغنياء. وحينما يحل العقاب بأصحاب الآراء المناهضة للقائمين بالأمر في الدولة لا يخفى علينا أن الدولة هي أحد أطراف النزاع، ومن ثمة كان من الممكن أن تقوم الدولة بكل أنواع التعسفات، من كبت الحرية الشخصية إلى الحرب الأهلية. ولكن يمكننا أن نميز بصفة عامة بين القوة التي تستعمل وفقا لقوانين وضعها من قبل مجتمع بأكمله وبين القوة التي يستخدمها مجتمع ضد مجتمع آخر في ظروف لا يكون القاضي فيها إلا المجتمع الأول. ولقد قصدت هذا الفرق بالذات لأني أعتقد أنه لا يمكن الاستغناء تماما عن استعمال القوة بواسطة البوليس، وعندي أن استعمال القوة على هذا النحو، في معترك الشئون الدولية، هو خير ما نأمل لحفظ السلام الدائم. ففي هذه الأيام، يقوم النظام في الشئون الدولية على المبدأ الذي يوجب على كل دولة ألا تتدخل في مشكلة من مشاكل إلا إذا

كانت تمس مصالحها. والعرف الدبلوماسي يحرم هذا التدخل لمجرد تأييد القانون الدولي، ويمكن أن تحتج أمريكا حينما تغرق الغواصات الألمانية مدنيين أمريكيين، إلا أنه لا موجب لاحتجاجها إذا لم يكن في المغرقين مدنيون أمريكيون. ويمكن أن تكون الحال من هذا القبيل في الشئون الداخلية، إذا لم يتدخل البوليس إلا في حوادث القتل التي يتصادف وقوعها على رجال البوليس ق وطالما أن هذا المبدأ هو المعمول به في علاقات الدول بعضها ببعض فلا يمكن أن تستخدم قوى الدول المحايدة استعمالا مجديا في منع الحرب.

وتتعاون قوتان في كل دولة من الدول المتمدينة للتسبب في الحرب. ففي الأوقات العادية يكون بعض الناس –وهم عادة قسم صغير من مجموع عدد السكان– ميالين إلى إشعال نار الحرب: أنهم يتكهنون بوقوع الحرب، وظاهر أن الأمل في وقوعها يثلج صدورهم. وطالما كانت الحرب بعيدة الاحتمال رأيت غالبية السكان لا تعير هؤلاء الناس إلا التفاتا قليلا، فهم ٧ ينشطون إلى تأييدهم، ولا ينشطون إلى معارضتهم، ولكن عندما يبدو لهم أن الحرب موشكة الاندلا ع ق رأيت حمى الحرب تنتاب الشعب، ورأيت الذين كانوا من قبل ميالين إلى إشعال نار الحرب يحظون بتأييد الجميع لهم تأييدا حارا، إذا استثنيت أقلية لا أهمية لها. وتختلف النزعات التي تثير حمى الحرب بعض الاختلافات من النزعات التي تجعل بعض الناس ميالين إلى إشعال نار الحرب. في الأوقات العادية، والمتعلمون هم وحدهم الذين قد يميلون إلى الحرب في الأوقات العادية وذلك لأنهم وحدهم الملمون إلماما تاما بأحوال البلاد الأخرى، وبالدور الذي يمكن أن تنهض به بلادهم في شئون العالم. إلا أن علمهم، وليست طبائعهم، هو الذي يميزهم من مواطنيهم ينصح بذلك النقابيون.

ولنضرب لذلك بأشد الأمثلة وضوحا، أعني السياسة الألمانية، التي لم تكن

في سني ما قبل الحرب تنفر من الحرب، ولم تكن سياسة ودية نحو بريطانيا. ومما يعود علينا بالنفع محاولة تفهم الحالة الذهنية التي نشأت عنها هذه السياسة.

أن الذين يوجهون السياسة الألمانية هم قبل كل شيء رجال وطنيون إلى حد لا يعرفه الفرنسيون أو الانجليز، وهم يخيل إليهم أن مصالح ألمانيا هي وحدها المصالح الجديرة بالاعتبار، دون أن ينازعهم في ذلك منازع. وليس من شأنهم هم، مادام همهم هو هذه المصالح، أن يفكروا فيما يصيب الأمم الأخرى من أضرار، ولا فيما تجره هذه السياسة من تخريب للمدن ودمار للأهالي، ولا ما يلحق بالحضارة من تلف لا يمكن إصلاحه.. أنهم لا يقيمون وزنا لأي شيء ماداموا يستطيعون أن يسبغوا على ألمانيا ما يحسون أن فيه منفعتها.

والنقطة الثانية الجديرة بالاعتبار في السياسة الألمانية، هي أن تصور ألمانيا لصالحها القومي يقوم على التنافس بخاصة. أن الثروة الجديرة بالاعتبار في نظر الحكام الألمان ليست هي ثروة الاكتفاء الذاتي الذي لا يدفع إلى المنافسة، سواء أكانت هذه الثروة مادية أم معنوية، بل هي الثروة المقارنة التي تتنافس ألمانيا والبلاد المتمدينة الأخرى في ميدانها. ومن أجل هذا كان تدمير الأشياء الصالحة خارج بلادهم شيئا يكاد يكون مرغوبا فيه كرغبتهم في ابتكار أشياء صالحة في ألمانيا نفسها. والناس في معظم أقطار الأرض يعدون فرنسا أكثر أمم العلم حضارة: فللفنون الفرنسية وللأدب الفرنسي، ولأساليب الفرنسيين في الحياة سحرها في نفوس الأجانب، وهو ما لا تتمتع ألمانيا بشيء منه. كما أن الانجليز قد نضجت عندهم الحرية السياسية، بقدر ما نما فيهم فن الاحتفاظ بإمبراطورية، مع استعمال حد أدنى من الغضب، وذلك بطريقة أظهر الألمان حتى اليوم أنهم ليسوا أهلا للأخذ بها، وهذا وذاك من العوامل التي تثير الحسد، والحسد يثير رغبة الحاسدين في تدمير ما هو صالح في البلاد الأخرى، وقد كان

العسكريون الألمان على حق كل الحق حينما ذهبوا إلى أنه من الممكن تدمير أحسن ما في فرنسا وانجلترا عن طريق حرب كبرى، ولو لم تؤد هذه الحرب آخر الأمر إلى هزيمة فرنسا وانجلترا في ميادين القتال نفسها. ولقد قرأت بيانا بعدد كتاب فرنسا الناشئين الذين قتلوا في ميدان الوغى، والراجح أن السلطات الألمانية قد اطلعت هي أيضا على هذا البيان، وأن دلائل البهجة قد بدت على قسماتها لأن عاما آخر يمضي على فرنسا فتصاب فيه بمثل هذه الخسائر سيقضي على الأدب الفرنسي لمدة جيل، بل ربما قضى عليه إلى الأبد بسبب ما تخسره فرنسا من مأثور السلف. إن كل صيحة ضد الحرية في صحفنا هي التي أشد شغفا بإثارة الحروب، وكل تحريض على اضطهاد الألمان الذي لا يملكون وسائل الدفاع عن أنفسهم، وكل سمة من سمات الوحشية المتزايدة في موقفنا.. أن ذلك كله يقرأه الألمان الوطنيون، ولابد، قراءة المغتبط اللهفان، بوصفه شاهدا على نجاحهم في سلبنا أحسن ما نملك، وبوصفه شاهدا على أنهم يجبروننا على أن نقتدي بروسيا في عمل أسوأ ما تعمله من أشياء.

بيد أن ما يحسدنا عليه الحكام الألمان أشد الحسد هو القوة والثروة –القوة التي تتيحها لنا سيطرتنا على البحار والمضايق، والثروة التي وأتانا بها تفوقنا الصناعي طيلة قرن من الزمان– وهم يشعرون أن لديهم من المؤهلات في هاتين الناحيتين أكثر مما لدينا، فلقد كرسوا من تفكيرهم ومهارتهم في ميادين التنظيم العسكري والصناعي أكثر مما كرسنا بشوط بعيد، ومستواهم أعلى بكثير من مستوانا من حيث الذكاء والعلم، ومقدرتهم على مواصلة السعي إلى غاية يمكن إدراكها، مستعينين عليها بحسن بصرهم وتكاتفهم، هي أعظم بكثير مما نستطيع. إلا أننا، لمجرد أننا أتيحت لنا فرصة البدء في هذا السباق (كما يظنون)، قد أقمنا إمبراطورية مترامية الأطراف أعظم مما استطاعوا أن يفعلوا، كما أتيح لنا

التحكم في ثروة أضخم بكثير مما عندهم. وهذا كله شيء لا يطاق، لكنه شيء، لا يمكن تبديله بغير حرب كبيرة.

وفضلا عن هذه المشاعر كلها، فإن ثمة في ألمانيا كثيرين، وبخاصة أولئك الذين يعرفوننا خير معرفة، يضمرون لنا كراهية شديدة، بسبب ما فينا من كبر..

Farinata degli Uberti surveyed Hell. "Come avesse lo Inferno in gran dispitto".

وهذا هو ما يحدث تماما عندما يقع ضباط انجلترا في أسر الألمان، فهم – كما يقول الألمان أنفسهم– لا يفتأون يتلفتون حولهم بين آسريهم ثم ينتحون ناحية، كأنما أعداؤهم مخلوقات قذرة مؤذية، أو أنها ضفادع سامة أو بزاقات(١) أو عقربانات(٢).. مما يمسها الإنسان وهو راضي النفس بل يقذف بها وهو غاثي النفس إذا ما اضطر إلى الإمساك بها لحظة. وليس يصعب علينا أن نتصور كيف كانت الشياطين تمقت فايناتا(٣) **Farinata** وكيف كانت تغلو في إلحاق الآلام به أشد مما كانت تصنع بجيرانه، لكي تجعله يبدي شيئا من لتوجع يعترف به بوجودها، فإذا استمر في هدوئه الذي يجعلها كأنما هي غير موجودة جن جنونها، وهذا هو نفس الأمر الذي يطيش صواب الألمان بما نبديه لهم من برود الطبع، ونحن في أعماق أنفسنا ننظر إلى الألمان كما ينظر الإنسان إلى الذباب في اليوم الحار.. فالذبابة حشرة مضايقة لا يجد الإنسان بدا من مطاردتها عن نفسه، ولكن لا يدور بخلدنا أن نترك الذباب يصرفنا عما نحن بصدده. فعندما تسرب إلينا الشك في يقيننا بالنصر أول الأمر، بدأنا نتأثر بالألمان تأثرا عميقا ولو أننا

---

(١) نوع من ذوات الأصداف الضارة بالحدائق.

(٢) أم أربعة وأربعين.

(٣) فاريناتا دلجي أوبرلي **F. Delgi Uberti** (١٣٧٠– ١٣٦٤) قائد جبلي (من حزب الجبلين) نفي من فلورسا.. وقد وضعه دانتي في جحيمه (الفصل العاشر).

قد توالى إخفاقنا في مشروعاتنا العسكرية، لكان حريا أن يجيء الوقت الذي نؤمن فيه بأن الألمان بشر مثلنا، وليسوا مجرد شيء مقلق، ويحق لنا عندئذ أن نمقتهم ذلك المقت الذي لا يملكون أن يشمئزوا منه، وليس بين مثل هذا المقت والتقارب الحقيقي سوى خطوة قصيرة.

والمشكلة التي ينبغي أن تحل، إذا أردنا أن يكون مستقبل العالم أقل مما هو الآن شناعة هي مشكلة الحيلولة بين الأمم وبين الوقوع في تلك الأحوال النفسية التي وقعت فيها كل من ألمانيا وانجلترا عندما نشبت هذه الحرب فهاتان الأمتان يمكن اتخاذهما في تلك الفترة مثالا يكاد يكون أسطوريا للكبرياء والحسد: "أنك يا انجلترا: أيتها المعقدة المنتفخة الأوداج، أنك تحجبين عن العالم كياني كله، وأن أعضاءك المتعفنة لتحجب الشمس من أن تضيء فوقي، كما تحجب المطر من أن يمدني بماء الحياة.. فلابد من تشذيب أفنانك المنتشرة ولابد من مسخ جمالك المتسق، حتى أستطيع أنا أيضاً أن أجد حرية النماء، وحتى لا يعود جرمك المتعفن فيقف في سبيل شبابي النابض".. أما انجلترا، المنعزلة التي نال منها الضجر.. انجلترا الخالية البال عن مطامع الدول الأخرى، فقد حاولت، من حيث لا تدري، أن تكتسح هذا المنافس المحدث الذي شرع ينغص عليها تأملاتها، لكنها لم تكتسحه، بل هو باق إلى الآن، ولا يزال يراوده شيء من أمله القديم في تحقيق دعاواه، وما مطالبه، وما مقاومة هذه المطالب إلا حماقة، فليس ثمة ما يبرر مقاومتنا لأي من المطالب الألمانية التي لا تتعارض واستمرارنا في هذا الوجود، فهل ثمة سبيل لمنع مثل هذه الحماقة المتبادلة في المستقبل؟

وعندي أن الألمان أو الانجليز لو كانوا يستطيعون التفكير على أسس من المصلحة الفردية، لا على أساس من الكبرياء القومية، لكان خليقا بهم أن

يفطنوا إلى أن أولى السبل بالإتباع في كل لحظة خلال الحرب هو أن ينتهوا إلى السلم في الحال، وبأحسن الشروط التي كان ممكنا أن يصلوا إليها.. وأني لأومن بأن هذا السبيل هو أصوب ما يمكن أن تفعله كل أمة على حدة لخيرها ولخير الحضارة بصفة عامة. أن أبشع ما يستطيع العدو القيام به من أذى في وقت من أوقات السلام المزعزع قد يكون هنة إذا قيس إلى الويلات التي تنزلها الأمم بنفسها باستمرارها في الحرب، والكبرياء هي التي تعمى أبصارنا عن هذه الحقيقة الناصعة، الكبرياء التي تجعل الاعتراف بالهزيمة شيئا لا يحتمل، والتي تسبغ على نفسها سربال الحق بما توحيه إلى أصحابها من جميع أنواع الرزايا التي يفترض أن تقع بهم، إن هم سلموا بالهزيمة، إلا أن الشر الذي لا شر غيره، إنما هو المهانة.. والمهانة شيء ذاتي، ونحن لن نشعر بالمهانة إذا ما اقتنعنا بأننا كنا مخطئين باشتراكنا في الحرب، وأنه من الخير لنا القيام بأعمال أخرى لا تعتمد على التوسع، فإذا استطاع الانجليز أو الألمان التسليم بهذه الحقيقة تسليماً صادقا لكان من اليسير أن يوافقوا على أي نوع من أنواع الصلح الذي لا يهدم الاستقلال القومي، وذلك دون أن تجرح كرامة أحدهما.. تلك الكرامة التي لا غناء عنها لحياة طيبة.

لقد كان الروح الذي دخلت به ألمانيا الحرب روحا بغيضا، غير أنه كان روحا رضع لبنان الروح الانجليزي المطبوع، فلقد كنا نتيه كبرا بمستعمراتنا وثرائنا، ولقد كنا على أهبة الاستعداد دائما للدفاع بقوة السيف عما فتحناه في الهند وفي أفريقيا. ولو أننا كنا قد تبينا تفاهة إمبراطوريتنا وأظهرنا رغبتنا في تسليم بعض المستعمرات لألمانيا دون أن ننتظر هذا التهديد بالالتجاء إلى القوة، فلربما كان هذا قد أتاح لنا أن نقنع الألمان بأن مطامعهم كانت مطامع حمقاء، وبأن احترام العالم شيء لا يمكن أن تناله أمة من الأمم بانتهاجها سياسة استعمارية،

لكننا بمقاومتنا لتلك الأطماع برهنا على أننا مثلهم فيما نعيبهم به. ولقد أصبحنا، لأننا ملاك هذه المستعمرات بالفعل، من أنصار الـ **Status quo** أي الوضع الراهن، ومن هنا كانت رغبة الألمان في إشعال نار الحرب لقلب هذا الوضع الراهن رأساً على عقب، ومن هنا أيضا كانت رغبتنا في الحرب للحيلولة دون أن يكون قلب الوضع الراهن في صالح الألمان، ولقد بلغ بنا إيماننا بقدسية سياسة الوضع الراهن درجة لم نتبين معها كيف عادت هذه السياسة علينا بالنفع، أو كيف أننا، بإصرارنا عليها، ساهمنا بالمسئولية، في هذه الحرب. أن من غير الممكن ولا من المرغوب فيه، إتباع سياسة الوضع الراهن على الدوام في عالم تقوم فيه الأمم وتفنى، ويتبدل ميزان القوى ويتحول، وتضيق الممالك بساكنيها. أن واجب الأمم، إذا كان لابد لها من صون السلام، أن تتعلم كيف تتقبل التغيرات التي تطرأ على خريطة العالم، والتي لا توافق هي عليها، دون أن تشعر بأن الواجب يفضي بأن تنهزم، قبل الموافقة عليها، في ميدان الحرب، أو دون أن تشعر بأن التسليم بهذه التغيرات يعرضها للهوان.

أن إصرار المشرعين، ومحبذي صون السلام بإقرار الأمر الواقع، هو الذي دفع بألمانيا إلى نظامها العسكري، فلألمانيا الحق كل الحق في إنشاء إمبراطورية كما لأية دولة عظمى، بيد أنها لا تستطيع تحقيق هذه الإمبراطورية إلا عن طريق الحرب، وذلك أن الدول كانت تغلو في الجمع بين محبتها للسلام، وبين نظرتها الجامدة إلى العلاقات الدولية. وقد علمتنا المنازعات الاقتصادية أن كل ما تتسم به طبقات العمال ذوي الأجور من قوة وحيوية، لا يستتب لجو السلام الذي يجب أن يسود ميدان الصناعة، وذلك لأن النظام القائم لتوزيع الثروة هو نظام غير عادل. وأولئك الذين يتمتعون بمراكز ممتازة يحاولون تقوية دعاواهم بتحبيذ الرغبة في السلم، والتنديد بأولئك الذين يروجون للنضال بين

الطبقات. وليس يدور في أخلاد الرأسماليين بحال أنهم مشتركون في المسئولية حرب الطبقات بمعارضتهم للتغيرات، دون أن يفكروا فيما إذا كانت تغيرات عادلة، وعلى هذا المنوال نفسه تضطلع انجلترا بنصيبها من المسئولية، في الحرب التي أثارتها ألمانيا. وإذا كان للحرب الفعلية أن تنتهي في يوم من الأيام، فلابد أن تكون ثمة وسائل سياسية نحقق بها النتائج التي لا يمكن تحقيقها اليوم إلا بالنصر في الحرب، وأن تتقبل الأمم بمحض رغبتها مطالب الآخرين التي تبدو في نظر المحايدين مطالب عادلة.

ولن يمكن القضاء على الروح العسكرية إلى الأبد، إلا إذا تقبل العالم قيام لون من هذا النظام، يتمثل في برلمان من الأمم، له السلطان المطلق في تبديل توزيع الأراضي. وقد يمكن أن تسفر هذه الحرب عن تبدل في ميول الدول الغربية، وفي نظرتها العامة، يكفي لجعل قيام مثل هذا النظام ممكنا. وقد يقتضي الأمر نشب حروب أخرى، وحدوث دمار غير هذا الدمار قبل أن تثور غالبية سكا العالم المتمدين على هذه الوحشنية، وعلى هذا الدمار العقيم الذي تحدثهما الحروب الحديثة. وأنا لا يساورني الشك في أن التفكير السليم سوف ينتصر، إن عاجلا وإن آجلا، على هذه النزوات العمياء التي تلقي بالأمم في أتون الحرب، اللهم إلا إذا قضى على نظرتنا إلى الحضارة، وعلى قدرتنا على التفكير الإنشائي بأن يظلا في انحطاط مستمر. ولن تكون هناك أية صعوبة، إذا صممت غالبية كبيرة من الدول العظمى تصميما لا يتزعزع على وجوب صون السلام، لن تكون هناك أية صعوبة في إنشاء الأداة السياسية لحسم المنازعات، وفي إنشاء النظم التعليمية التي تستطيع أن تغرس في أذهان الناشئين صورة بشعة للفزع الأكبر الذي تجلبه تلك المجزرة التي تجعلهم يعجبون ببلادهم الآن.

وثمة، فضلا عن القوة الواعية البصيرة بالعواقب التي تدفع بالعالم إلى

الحرب، تلك المشاعر المبهمة.. مشاعر العامة، تلك المشاعر التي هي على استعداد دائما، وفي معظم البلاد المتمدينة، لأن تلهبها حمى الحرب فتنطلق بأصحابها إلى الميدان مؤتمرة بأوامر رجال السياسة. فواجبنا، إذا أردنا أن نضمن السلام، أن نقلل إلى حد ما من استعداد الناس للإصابة بحمى الحرب، وواجب أي إنسان يريد النجاح في هذا المضمار أن يفهم قبل كل شيء ما هي حمى الحرب. ولماذا تنشأ.

أن الأشخاص الذين لهم أثرهم العام في هذا العالم، سواء كان هذا الأثر خيرا أو شرا، تسيطر عليهم، عادة، رغبة ذات ثلاث شعب. فهم يرغبون أولا في نشاط يستغلون فيه استغلالا تاما تلك الملكات التي يشعرون بأنهم يتفوقون على غيرهم فيها، وثانيا، ذلك الإحساس بالنجاح في التغلب على ما يعترض سبيلهم، وثالثا، احترام الآخرين لهم بناء على ما أدركوه من نجاح. وثالث هذه الرغبات يكون غير موجود في بعض الأحيان. فبعض الناس ممن كانوا عظماء بالفعل، كانوا لا يتصفون بهذا "الضعف الأخير"، وكانوا يقنعون بإحساسهم هم أنفسهم بالنجاح، أو بمجرد ابتهاجهم بما بذلوا من جهد شاق. بيد أن الرغبات الثلاث موجودة بصفة عامة. وتتحدد مواهب بعض الناس حتى لتتحكم طبيعة ملكاتهم في اختيار ألوان نشاطهم، وثمة آخرون تتوفر لهم في عهد الشباب كفايات في نواح متعددة ممكنة التحقيق بحيث لا يحد اختيارهم سوى الاحترام المتفاوت الدرجات الذي يوليه الرأي العام لأنواع معينة من النجاح في الحياة.

وتجيش هذه الرغبات نفسها، بدرجة أقل وضوحا عادة، في صدور الذين لا يملكون كفايات غير عادية. بيد أن أمثال هؤلاء لا يستطيعون انجاز شيء من الأشياء الشديدة الصعوبة بمجهودهم الشخصي، وأنه ليستحيل عليهم، كوحدات، أن يدركوا معنى العظمة، أو يحسوا بذلك الانتصار الذي يتأتى عن

طريق التغلب على العقبات الكبيرة، فحياتهم كأفراد حياة خاملة خالية من المغامرات، أنهم يتوجهون في الصباح إلى مكاتبهم، أو إلى محاريثهم، ثم يعودون في المساء مكدودين لا ينبسون، إلى أزواجهم وصغارهم، ولاعتقادهم أن الضمان هو الوسيلة المثلى للخير، فقد أمنوا ضد المرض والموت، وقد وجدوا من يستخدمهم دون أن يخشوا شيئا ذا بال من الفصل، وإن لم يكن لهم أي أمل في تحسين عظيم يصيبهم. إلا أن الضمان، إذا ما حصل عليه المرء، يصيب صاحبه بحال من السأم. وللمغامرة والتخيل المخاطرة مطاليبها هي الأخرى، ولكن أنى للشخص العادي الذي يكسب قوته بالأجر أن يوفي هذه المطاليب؟ وحتى إذا أمكن أن يوفيها، فإن مطالب الزوجة والصغار مقدمة عليها، ويجب ألا يصيبها الإهمال.

على أن الفرج قد أدرك هذا الرجل الذي هو فريسة القانون والتنظيم الجيد.. وقد جاءه الفرج في لحظة من لحظات الأزمات المفاجئة... فهو ينتمي إلى أمة، وهذه الأمة قد تضطلع بالمخاطرات، وقد تشترك في مشروعات صعبة، وهي تتمتع بالمشاعر الحارة التي تصحب النضال المشكوك في نتائجه، وتثير أخيلة الناس وميلهم إلى المغامرة بإرسال الحملات العسكرية إلى جبل سيناء، وجنات عدن. فالذي تفعله أمته، يفعله هو بمعنى من المعاني. والذي تقاسيه بلاده، يقاسيه هو أيضا. أن السنين الطويلة التي مضت في حذر انتهت بهذا الجنون الشامل الذي يقتص منه. أن الناس يحسبون أن جميع واجبات الاقتصاد والنظام والحرص. تلك الواجبات المزعجة التي درج الإنسان على أدائها كل فيما يخصه، لا تمت إلى الشئون العامة بصلة: أن من الوطنية والنبالة أن يكون الإنسان مغامرا في سبيل بلاده، وإن يكن من النذالة أن يكون مغامرا في سبيل نفسه. أن العواطف البدائية العتيقة التي تنكرت لها المدنية، لتجيش في صدر

الإنسان أقوى وأقوى كلما حاول كبح جماحها، فترى الفكر والغريزة يرتدان في لحظة خلال القرون، وهنا يبرز إنسان الغاب المتوحش من محبس العقل الذي أطبقت عليه جدرانه. هذا هو الجزء الأعمق من سيكلوجية حمى الحرب.

وفضلا عن ذلك العنصر غير المنطقي، والغريزي، من عناصر حمى الحرب فإن ثمة كذلك، قدرا معينا من التصور شبه المنطقي، الذي يسمونه "التفكير" من باب التلطف، موجودا دائما، ولو كوسيلة لإطلاق النزعة البدائية من عقالها فقط. ويندر أن تصيب حمى الحرب أمة من الأمم إلا إذا اعتقدت هذه الأمة أنها ستنتصر فيها.

ومما لا شك فيه أن الناس يبالغون في تجسيم فرص النجاح مدفوعين إلى ذلك بعامل الإثارة، إلا أن ثمة شيئا من التناسب بين الشيء الذي يتمناه المرء، وبين الشيء الذي يمكن أن يتوقعه إنسان منطقي.. فهولندة، وهي بلد إنساني مثل انجلترا سواء بسواء، لم يكن ثمة ما يدفعها إلى دخول الحرب في سبيل بلجيكا، وذلك لأن احتمال وقوع الكارثة كان من الوضوح بدرجة لا تدع مجالا للشك في أمرها. ولو قد عرف أهل لندن تلك التطورات التي تطورت إليها الحرب لما انتشوا تلك النشوة التي غمرتهم من أمد بعيد في يوم تلك البطالة الرسمية من أيام أغسطس، أن الأمة التي لها حديث تجربة بالحرب، والتي أيقنت من أن الحرب تكاد تكون دائما أشد إيجاعا مما كان الناس يتوقعون أن تكون في أول شبوبها، تصبح أكثر نفورا من أن تصيبها حمى الحرب، ثم يظل نفورها ذاك حتى يشب فيها جيل جديد من أبنائها. أن الحكومات ورجال الصحافة الذين يريدون الحرب يعرفون عنصر التفكير الصحيح في الحرب، كما قد يدل على ذلك تهوينهم، جميعا وبلا استثناء، لمخاطر الحرب التي يريدون إيقاد نيرانها. فلقد فصل السير وليم بطلر من منصبه عند بداية الحرب في جنوب أفريقية لهذا

السبب الذي لم يكن يدق على الإفهام، وهو قوله بأن ستين ألف جندي، وثلاثة أشهر، قد لا تكفي لإخضاع جمهوريات البوير، فلما تبين أن الحرب حرب شاقة، وطويلة الأمد، انقلبت الأمة على أولئك الذين أضرموا نارها. ونحن نستطيع أن نعترض، دون أن نقيم كبير وزن للمنطق في شئون البشر، أن أمة ما من الأمم يمكن أن تقاسي من حمى الحرب لو استطاع كل إنسان وافر العقل من أفرادها أن يرى أن الهزيمة محتملة كل الاحتمال.

ومناط الأهمية في هذا أنه يمكن أن يجعل نشوب حرب عدوانية شيئا غير خليق بأن يقع إلا في النادر، إذا كانت فرص الانتصار فيها فرصا غير ذات بال. فلو أن الأمم المحبة للسلام كانت من الكفاية بالقدر الذي يكفل لها هزيمة الأمم الراغبة في شن الحروب العدوانية، فلا بأس من أن تؤلف هذه الأمم المحبة للسلام حلفا، وأن تتعاهد على أن تحارب مجتمعة أية أمة ترفض أن تعرض دعاواها على مجلس دولي. ولعلنا لم نكن نعدو الصواب قبل هذه الحرب الحاضرة لو أننا أملنا في صيانة السلم في العالم بمثل هذه الطريقة. غير أن قوة ألمانيا العسكرية أثبتت لنا أن مثل هذا المشروع ليس مكفول النجاح بدرجة عظيمة في الوقت الحاضر. على أن نجاحه قد يكون أكثر احتمالا في زمن غير بعيد وذلك لما يجرى في أمريكا من تطورات سياسية.

ومن اليسير كبح جماح القوى الاقتصادية والسياسية التي تعمل على إثارة الحروب إذا تأصلت الرغبة في السلام تأصلا قويا في جميع الأمم المتمدينة. إلا أنه ما دامت الشعوب قابلة لحمى الحرب، فإن كل عمل في سبيل السلام لابد أن يبقى مزعزعا. وإذا لم يكن في الإمكان إثارة حمى الحرب، كان في المستطاع شل العوامل السياسية والاقتصادية فلا تؤدي إلى أية حرب طويلة الأجل، أو شاملة التدمير. والمشكلة الأساسية أمام رجل السلام هي كبح جماح النزعات

التي تقود إلى الحرب، تلك النزعات التي تستولي على مشاعر مجتمعات بأسرها من وقت إلى آخر، وهذا لا يمكن القيام به إلا إذا أحدثنا تغييرات بعيدة المدى في أساليب التعليم، وفي البناء الاقتصادي للمجتمع، وفي القانون الأخلاقي الذي يتحكم الرأي العام بواسطته في حياة الناس رجالا ونساء[١].

أن طائفة كبيرة من النزعات التي تقود الأمم إلى الحرب هي في نفسها نزعات ضرورية لأية حياة قوية أو تقدمية، فأي مجتمع لا يحفزه التفكير وحب المغامرة سرعان ما يصبح مجتمعا راكدا، ويأخذ في الانحلال. والنضال، بشرط ألا يكون مدمرا ووحشيا، ضروري لحفز الهمم، ولتأمين انتصار ما هو حي، على ما هو ميت، أو ما هو مجرد تقليد من التقاليد. فرغبة المرء في الظفر بغاياته، وشعوره بالتضامن والهيئات الكبيرة من الناس، ليسا من الأمور التي يرغب إنسان عاقل في أن يقضي عليها. وليس الشر إلا ما يؤدي إلى الموت والدمار والكراهية. فالمشكلة هي: الإبقاء على هذه النزوات، دون أن نجعل الحرب ثمرة لها.

إن جميع الطوبويات التي أنشأها أصحابها حتى اليوم هي طوبويات سقيمة منتهى السقم، وأي إنسان فيه أي مقدار من القوة ليفضل أن يعيش في هذه الدنيا، بكل ما انطوت عليه من أوضارها المفزعة، على أن يعيش في جمهورية أفلاطون، أو بين خيول سوفت البشرية[٢]. فمنشئو الطوبان يقيمونها على افتراض داحض فيما تقوم عليه الحياة الطيبة. أنهم يحسبون أن في مقدورهم أن يتصوروا حالة معينة للمجتمع وأسلوبا معينا للحياة، يجب على الناس في رأيهم

---

(١) سنتناول هذه التغييرات التي يجب أن نرغب فيها من أجلها هي، وليس لكي نمنع الحروب فحسب، في محاضرات تالية.

(٢) **Houyhnhnms** خيول لها سمات إنسانية تخيلها سوفت.

أن يعترفوا بهما كآخر ما يمكن أن تصل إليه الحياة الطيبة، ويجب أن يستمروا لهذا السبب على أبد الآبدين. أنهم لا يدركون أن أقصى قدر من سعادة الإنسان يتوقف على ما يبذله من نشاط، وأن فضلة جد ضئيلة من هذه السعادة تأتيه من التمتع الذي لم يبذل فيه أي جهد. والمسرات نفسها التي هي مادة هذا التمتع بالفعل، لا تكون مسرات مرضية عند معظم الناس إلا حينما تأتيهم في فترات نشاطهم. المصلحون الاجتماعيون، مثلهم مثل منشئي الطوبويات عرضة لنسيان هذه الحقيقة الجلية من حقائق الفطرة الإنسانية. فهم يهدفون إلى توفير وقت فراغ أكثر، وفرص أكثر للاستمتاع به، أكثر مما يهدفون إلى جعل العمل نفسه أكثر رضا للنفس، وأكثر ملاءمة للنزعة، وثمرة أشهى للغريزة الخلاقة ورغبة المرء في استعمال طاقاته. أن العمل في هذا العهد الحديث، هو عند معظم من يعتمدون في معاشهم على ما يكسبون، مجرد عمل، وليس صورة للرغبة في النشاط. والراجح أن هذا أمر لا معدي عنه إلى حد بعيد. إلا أننا إلى الحد الذي يمكننا تلافيه، يجب أن نصنع شيئا كي تثمر النزعات التي تؤدي إلى الحرب ثمرة من ثمرات السلام.

وقد يكون من اليسير بطبيعة الحال أن يسود السلام في العالم إن لم يكن في الناس حيوية. فلقد كانت الإمبراطورية الرومانية مسالمة وغير منتجة، بينما كانت أثينا في عهد بيركلس أكثر البلاد إنتاجا، كما كان أهلها أشد الشعوب نزوعا إلى الحرب في التاريخ تقريبا. والنوع الوحيد من أنواع الإنتاج التي يتفوق فيها عصرنا هو العلم، وألمانيا، أقوى الدول الكبرى الحربية، لا تدانيها دولة أخرى في ميدان العلوم. ولا جدوى في الإكثار من ضرب الأمثال، إلا أنه واضح أن النشاط الحيوي نفسه الذي ينتج عنه كل ما هو خير، تنتج عنه أيضا الحرب، ومحبة الحرب، وهذا هو أساس المقاومة لمذهب المسالمة، هذا الأساس الذي يشعر به

كثيرون ممن ليست أهدافهم ولا ألوان نشاطهم وحشية بحال من الأحوال. وفي كثير جدا من الأحيان لا تعنى المسالمة إلا مجرد افتقار صاحبها إلى القوة، وليس أنه يرفض استعمال القوة في قهر الآخرين. وإذا أردنا لمذهب المسالمة أن ينتصر وأن يسلك سبيل الخير في وقت معا، فواجبنا أن نجد متنفسا، تأتلف والشعور الإنساني، للنشاط الذي يسوق الأمم في الوقت الحاضر إلى الحرب والدمار.

ولقد تناول وليم جيمس هذه المشكلة في خطاب يدعو إلى الإعجاب، موضوعه: "المعادل الأدبي للحرب" ألقاه في مؤتمر دعاة السلام في أثناء الحرب الأسبانية الأمريكية التي نشبت سنة ١٨٩٨، ولم يكن في وسع أحد أن يأتي بأحسن مما قرره عن هذه المشكلة، وهو فيما أعلم الكاتب الوحيد الذي واجه المشكلة مواجهة سديدة... بيد أن الحل الذي قال به لم يكن حلا سديدا، ولعل الحل السديد ليس شيئا ميسورا.. والمشكلة على كل حال من المشاكل التي تختلف باختلاف ظروفها، وكل متنفس جديد سلمي للنشاط الإنساني يقلل من القوة التي تدفع الأمم في طريق الحرب، وتجعل الحرب أقل حدوثا، وأقل ضراوة. ومن حيث اختلافها باختلاف الظروف، ففي الإمكان أن تتفاوت حلولها تبعال ظروفها.

إن كل إنسان ذي همة يفتقر إلى لون ما من ألوان التنافس، إلى شيء من المقاومة يستظهر به، كلما يشعر أنه يمارس كفاياته، ولقد نشأت في ظل الشئون الاقتصادية نظرية مؤداها أن ما يرغب الناس فيه هو الغنى، وقد كان من شأن هذه النظرية أن تبعث نفسها بنفسها، لأن أعمال الناس تتحدد في الغالب بما يظنون أنهم يرغبون فيه، أكثر مما تتحدد بما يرغبونه في الواقع. وأقل أفراد المجتمع نشاطا لا جرم يريدون الثروة في أكثر الأحوال، مذ كان ذلك يساعدهم على إشباع ميلهم إلى الاستمتاع السلبي، كما يساعدهم على أن يضمنوا احترام

الناس، دون أن يبذلوا في سبيله جهدا. إلا أن ذوي النشاط الذين يكونون ثروات عظيمة نادرا ما يرغبون في المال نفسه: أنهم إنما يرغبون في معنى القوة عن طريق التنافس، وما في النشاط الناجح من متعة، ولهذا السبب، كان أكثر الناس إلحاحاً في جمع المال أكثرهم، في الغالب، استعدادا لإنفاقه، وثمة أمثلة على ذلك كثيرة مشهورة بين أصحاب الملايين الأمريكيين. وعنصر الصدق الوحيد في النظرية الاقتصادية التي تذهب إلى أن هؤلاء الناس إنما تحدوهم الرغبة في المال هو هذا: لما كان الاعتقاد السائد من أن المال هو ما يرغب الناس فيه، فإنهم يسلمون بأن جمع المال هو مقياس النجاح. والشيء المرغوب فيه هو النجاح المرئي الذي لا ريب فيه، ولكن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا كان الإنسان واحدا من هؤلاء القليلين الذين يصلون إلى غاية يتمنى كثيرون أن يصلوا إليها. ولهذا السبب، كان للرأي العام أثره العظيم في توجيه همم ذوي العزم. والناس في أمريكا يحترمون صاحب الملايين أكثر مما يحترمون الفنان العظيم، وهذا يدفع الناس إلى أن يصيروا أصحاب ملايين بدل أن تكون لهم الخبرة في أن يكونوا ما يشاؤون. أما في إيطاليا في عصر النهضة، فقد كان الفنانون أكثر احتراما من أصحاب الملايين، وكانت نتيجة ذلك عكس ما هو موجود اليوم في أمريكا.

وبعض أنصار السلام وجميع العسكريين ينقمون على المنازعات السياسية والاجتماعية. والعسكريون على حق في هذا، من وجهة نظرهم، إلا أن أنصار السلام غير مصيبين فيما يخيل لي. فالملاحم الناشئة عن الشئون السياسية بين الأحزاب، والملاحم بين رأس المال والعمال، وبالإجمال جميع تلك الملاحم الناجمة عن اختلاف المبادئ، والتي لا تتضمن الحرب، تخدم أغراضا كثيرة نافعة، ولا ينجم عنها إلا قدر ضئيل من الضرر، أنها تزيد من اهتمام الناس بالشئون

العامة، وهي تهيئ متنفسا بريئا نسبيا لحب الناس للنضال، وهي تساعد على تغيير القوانين والنظم، حينما يعمل تبدل الظروف وزيادة العلم على خلق الرغبة في التبديل. أن كل شيء يقوي من الحياة السياسية من شأنه أن يثمر اهتماماً سليما من نوع الاهتمام نفسه الذي يؤدي إلى الرغبة في الحرب.

والمسائل السياسية تتيح لكل صاحب صوت في مجتمع دمقراطي شعورا بالمبادأة والسلطان والمسئولية يفرج عن نفسه شيئا مما تحسه من الضيق الناشئ من عدم المغامرة. وينبغي أن يكون هدف رجل السلام أن يهيئ للناس قدرا يزداد حينا بعد حين من الرقابة السياسية على أنفسهم، وينبغي أن يكون هدفه بخاصة إدخال الطرق الدمقراطية في إدارة الصناعة، كما الأكثر منهم جهلا!

والمشكلة التي تجابه رجل السلام المتأصل ذات شطرين، أولهما: كيف يحافظ على السلام لبلاده، وثانيهما كيف يحافظ على السلام في العالم، ومن المستحيل أن نحافظ على السلام في العالم بينما الأمم عرضة لهذا المزاج الذي دخلت به ألمانيا الحرب إلا إذا كانت إحدى الأمم أقوى –على التحقيق– من جميع الأمم مجتمعة، حتى تكون الحرب لا ضرورة إليها لتلك الأمة، وحربا لا أمل فيها لتلك الأمم مجتمعة، حتى تكون الحرب لا ضرورة إليها لتلك الأمم، وقد راح الناس يتساءلون، عندما أخذت هذه الحرب[1] تضجرهم بطولها المضني، عما إذا كان الاستقلال القومي يستأهل هذا الثمن الذي ينبغي أن يدفعوه من أجله؟ وهل لا يكون من الخير أن نكفل السلام العالمي بتفوق دولة واحدة على العالم كله. ولعل رجل السلام الذي لا حيلة له راح يفكر من خلال العامين الأولين من الحرب: "أن صون السلام عن طريق اتحاد عالمي قد يفتقر إلى شيء من التعقل في الحكام وفي الشعوب، وهو لهذا السبب أمر ليس في

(1) يقصد الحرب العالمية الأولى.

الإمكان، أما صونه بترك الحبل على الغارب لألمانيا، تملي شروطها على أوربا، فقد يكون أمرا ميسورا. وقد يستراسل هذا الداعي إلى السلام بأيما ثمن، فيزعم أنه طالما ليس ثمة وسيلة أخرى لوقف رحى الحرب، فلنجرب تلك الوسيلة التي أتيحت لنا في هذه الآونة على سبيل الصدفة. وهذا الرأي جدير بأن نبذل له من اهتمامنا قدرا أكثر مما تعودنا أن نبذل من قبل.

وثمة مثال تاريخي عظيم من أمثلة السلم الطويل الأجل الذي كفله العالم عن هذا الطريق، وأعني به الإمبراطورية الرومانية. ونحن نفخر في انجلترا بهذا ال[1] **Pax Britannica** الذي فرضناه بهذه الطريقة على الشعوب وأهل الأديان الميالين إلى الحرب في الهند. فإذا كنا على حق في فخرنا بهذا، وإذا كنا حقيقة قد أدينا للهند فائدة بهذا السلام المفروض، فقد يكون الألمان على حق إذا استطاعوا أن يفرضوا **Pax Germanica** على أوروبا. وربما حق للناس أن يقولوا، قبل هذه الحرب، أن أوربا والهند ليستا سواء، لأن الهند أقل مدنية من أوربا، ولكني آمل ألا يكون ثمة أحد الآن من القحة بحيث يؤيد هراء مثل هذا الهراء. ولقد واتتنا الفرص مرارا في تاريخنا الحديث لتحقيق الوحدة الأوربية بزعامة دولة واحدة، ولكن انجلترا كانت تقف دائما حجر عثرة في سبيل هذه الغاية، أخذا بمبدأ توازن القوى، وكانت تحافظ على هذا الذي كان ساستنا يسمونه "حريات أوربا" وهذا هو العمل الذي نحن معنيون به في الوقت الحاضر، بيد أنني لا أظن أن ساستنا، ولا أحدا غيرهم من رجالنا، قد بذلوا جهدا يؤبه له، للتفكير فيما إذا كان هذا العمل يستأهل ما يجب أن ندفعه من ثمن في سبيله.

---

(1) منع الولايات التابعة لبريطانيا من الحرب– وكانت الدولة الرومانية تمنع مستعمراتها أيضا من الحرب وكان يطلق على هذا **Pax Romana**.

لقد كنا مخطئين في إحدى الحالات خطأ واضحا: وذلك يوم قاومنا فرنسا الثائرة، فلو أن فرنسا الثائرة استطاعت أن تفتح القارة الأوربية وبريطانيا العظمى، لأمكن أن يكون العالم الآن أسعد حالا، وأكثر حضارة، وأشد حرية، ولأمكن أن يكون أوفر سلاما في الوقت نفسه. ولكن فرنسا الثائرة كانت مثالا لا نظير له على الإطلاق، لأن فتوحها الأولى كانت تتسم باسم الحرية، أي ضد الطغاة، وليس ضد الشعوب، وكانت الجيوش الفرنسية تقابل بالترحاب في كل مكان ومن الجميع، إلا من الحكام المتعصبين، وذلك بوصفها محررة الناس من قيود الاستعباد. أما موقفنا من فيليب الثاني، فقد كنا على حق مبين بقدر ما كنا مخطئين في موقفنا من الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٣. ونحن لا يصح أن نعلل تصرفنا في كلا الحالين بشيء من هذا الرأي الدبلوماسي المجرد الذي نسميه "حريات أوربا" ولكن علته هو ما كان لانجلترا من مثل القوة الطامحة إلى السيادة، ثم بما كانت ترجح أن يكون لها من الأثر في سعادة الأفراد العاديين في القارة الأوربية رجالاً ونساء.

إن السيادة كلمة غامضة، وكل شيء يتوقف على درجة التدخل الذي تتضمنه تلك الكلمة. وثمة درجة من التدخل في الحرية، قاتلة لكثير من ألوان الحياة القومية، فإيطاليا مثلا، في القرنين السابع عشر، والثامن عشر، كانت حطاما أمام التفوق الأسباني والنمسوي، ولو أن الألمان كانوا ينتوون حقا ضم أقاليم فرنسية إلى بلادهم كما صنعوا سنة ١٨٧١ لكان الراجح أن يصيبوا تلك الأقاليم بضرر خطير، ولجعلوها أقل نفعا للمدنية بوجه عام. فلمثل هذه الأسباب كانت الحرية القومية مسألة لها أهميتها الحقيقية، ولعل الراجح أن كون أوربا، إذا حكمتها ألمانيا بالفعل، بلادا جد عقيم وجد ميتة. ولكن إذا كانت السيادة تعني مجرد نفوذ متزايد في المسائل الدبلوماسية، وتوفير محطات أكثر

لتزويد السفن بالفحم، وممتلكات أكثر في أفريقية، وسلطانا أعلى لتأمين المعاهدات التجارية ذات المزايا.. إذا كانت السيادة تعني مجرد هذا، فقد لا يستطيع أحد حينئذ أن يقول أنها قد تصيب الأمم الأخرى بضرر ذي بال، وهي على التحقيق لا يمكن أن تنشر من الدمار ما تنشره الحرب الحالية بالفعل، وأنا لا يمكن أن يساورني الشك في أن سيادة مثل هذه كانت حرية أن ترضي الألمان كل الرضا، لو لم تقع هذه الحرب، ولكن تأثير الحرب إلى هذا المدى كان من شأنه أن يزيد بما لا يدخل في حسبان أحد من الأخطار التي أردنا تفاديها بالحرب.. وليس لنا الآن إلا أن نختار بين استنزاف قوى أوربا –إلى حد ما– في محاربة ألمانيا، وبين ضرر محتمل يصيب الحياة القومية في فرنسا من الطغيان الألماني.. أما النتيجة التي انتهينا الآن إليها فلا تعدو تأويلنا هذه الحرب بداعي الحضارة وخير البشرية، لا بداعي الكرامة القومية..!

وبفرض أن الحرب لا ينهيها غلبة دولة على جميع الدول الأخرى، فإن الطريقة الوحيدة التي يمكن بها وقف شبوب الحرب على الدوام هي تكوين اتحاد عالمي، إذ طالما أن هناك دولا كثيرة ذات سيادة، لكل منها جيشها الخاص، فلن يأمن العالم ألا تنشب فيه حرب، ولابد من وجود جيش واحد وأسطول واحد في العالم. قبل أن يحق لنا الظن بأن الحرب لن تقوم لها قائمة، وهذا معناه أن الدولة مهما يكن اهتمامها وأعمالها العسكرية، فالواجب ألا يكون في العالم بأسره إلا دولة واحدة يشمل سلطانها الدنيا بأسرها.

وليس للمهام المدنية للدولة –تشريعية أو إدارية أو قضائية– أية علاقة جوهرية ذات خطر بمهامها العسكرية، وليس من سبب يمنع الدولة من أن تمارس هذه الوظائف بنوعيها بطريقة عادية، على أن ثمة أسبابا لا حصر لها تجعل الدولة المدنية والدولة العسكرية شيئين جد مختلفين، فالدول الحديثة الأعظم من

غيرها هي بالفعل دول كبيرة الجرم جدا، أصبحت أكبر من أن تكتفي بالقيام بالأغراض المدنية، ولكنها أضيق من أن تمتنع عن الأغراض العسكرية، لكنها لا تتسع الاتساع الكافي لأغراض العسكرية، وذلك لأنها لا تسيطر على العالم كله، وهذا الاختلاف بين الرقعتين المطلوبتين لنوعي الدولة يسبب ارتباكا وتذبذبا لا شك فيهما، حينما لا يتجلى أن العملين لا تصلهما صلة ضرورية ذات بال: فهذه طائفة من الاعتبارات تومئ إلى الدول الصغيرة، وتلك طائفة تومئ على الدوام إلى الدول الأكبر منها. ولابد، بطبيعة الحال، من قيام هيئة دولية ما، لإصدار الأوامر بالعمل إلى الجيش والأسطول الدوليين، إذا قسم لهذين أن يوجدا، ولكن هذه الهيئة لن تحتاج قط إلى أن تشغل نفسها بأي شأن من الشئون الداخلية للدول القومية، والشيء الوحيد الذي لابد منه هو إعلان القواعد التي يجب أن تنظم علاقاتهما، والنص صراحة على حق المقاضاة حينما تنقض هذه القواعد نقضا يستدعي تدخل القوة الدولية. أما كيف يسهل تحديد سلطان هذه الهيئة الدولية، فيمكن الوصول إليه على ضوء أمثلة واقعية كثيرة.

وفي أوقات كثيرة تختلف الدولة المدنية عن الدولة العسكرية لأسباب عدة، فجمهوريات أمريكا الجنوبية جمهوريات ذات سيادة في جميع تصرفاتها إلا من حيث علاقاتها مع أوربا، فهي تخضع بشأنها للولايات المتحدة، وجيش الولايات المتحدة وأسطولها هما جيش هذه الجمهوريات وأسطولها في معاملاتها مع أوربا. والممتلكات البريطانية المستقلة استقلالا ذاتيا لا تعتمد في الدفاع عن نفسها على قواتها الخاصة، ولكن على الأسطول البريطاني. ومعظم الحكومات في الوقت الحاضر لا تهدف إلى ضم إحدى البلاد التي تود الاستيلاء عليها ضما رسميا، ولكنها تهدف إلى إعلان حمايتها عليها– وبالأحرى جعلها بلدا مستقلا استقلالا ذاتيا خاضعا لهيمنتها العسكرية، ومثل هذا الاستقلال الذاتي هو

بالطبع استقلال ناقص من الوجهة العملية، لأنه لا يساعد البلد المحمي على الأخذ بالأساليب التي ترفضها الدولة الحامية بحق الفيتو بما لها من الهيمنة العسكرية، إلا أن هذا الاستقلال الذاتي قد يقرب من أن يكون استقلالا كاملا، كما هي الحال في الممتلكات البريطانية التي تحكم نفسها، على أن هذا الاستقلال الذاتي قد يصبح مجرد مهزلة، كما هي الحال في مصر[1]. وفي حالة قيام حلف تتمتع البلاد المتحالفة، كل منها على حدة، باستقلال ذاتي كامل، كما تتمتع بما هو من الوجهة العملية انضمام لقواتها العسكرية في قوة موحدة..

والمزية العظيمة لدولة عسكرية كبيرة هي أنها تزيد في الرقعة التي لا يحتمل نشوب حرب داخلية فيها إلا إذا نشبت ثورة. ومن الأمور الطبيعية أنه إذا نشأ خلاف بين انجلترا وكندا، أن يصلا إلى حسم هذا الخلاف بالمباحثات، وليس بالقوة. وهذه هي الحال نفسها إذا نشب خلاف بين منشستر وليفربول، بالرغم مما هو معروف من أن كلا من البلدين مستقل استقلالا ذاتيا في كثير من شئونه المحلية. ولم يدر في خلد أحد أن يكون ثمة سبب معقول لإعلان لفربول الحرب كي تمنع منشستر من أن تنشئ قناة السفن المسماة باسمها، وإن كان ذلك السبب الذي له مثل تلك الأهمية خليقا تقريبا أن تنشب من أجله الحرب بين دولتين كبيرتين، ولعل الراجح أن الحرب كانت تنشب بين انجلترا وروسيا بسبب إيران، لو لم يكونا حليفين، ومع هذا فقد أوصلتهما الدبلوماسية إلى نفس النتائج غير العادلة التي كانتا تصلان إليها لو حدث العكس ونشبت الحرب بينهما. ولعل الراجح أيضا إن كانت الحرب تنشب بين اليابان واستراليا لو أن كلتيهما كانتا مستقلتين استقلالا تاما، ولكن لأن حرية كل منهما تتوقف على الأسطول البريطاني لم يكن لهما مندوحة من تسوية خلافاتهما بالطرق السلمية.

---

(1) حفظ الله الثورة التي قضت على هذا العار.

أما أكبر سوءات الدولة العسكرية الكبرى فهي اتساع الرقعة التي تتأثر بالحرب إذا نشبت الحرب الخارجية، والاتفاقيات الرباعية القائمة الآن[1] هي من هذا النوع، لأنها تجعل من الدول الضالعة في الاتفاقية دولة عسكرية واحدة، وعلى هذا فتكون النتيجة أنه بسبب نزاع بين النمسا وصربيا، تجتاح بلجيكا ويقتل الاستراليون في الدردنيل. ومن سوءاتها أيضاً أنها تسهل الظلم، فالدولة العسكرية الكبرى قوة لا تقهر إزاء دولة صغرى، وفي استطاعتها أن تفرض عليها ما تريد، كما حدث من انجلترا وروسيا في إيران، وكما فعلت النمسا في الصرب. ومحال أن نطمئن إلى منع الظلم بأيما ضمانات آلية خالصة، ولن تكون ثمة حماية حقيقية إلا إذا سادت روح إنسانية، لقد كانت انجلترا تستطيع تمام الاستطاعة أن تخمد أنفاس أيرلندة، بالرغم من وجود نواب أيرلنديين في وستمنستر، بل لم يكن وجود نواب بولنديين في الريخستاج ليمنع ألمانيا من اضطهاد بولندا البروسية. ولكن الديمقراطية والحكم النيابي لا جرم يجعلان الظلم أقل رجحانا، وهما يتيحان لمن عسى أن يلحق به الظلم وسيلة يستطيع بها الإعلان عن رغائبه وبث ظلاماته، ويجعلان من المحقق أن الأقلية وحدها هي التي يمكن أن يلحق بها الظلم، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الأغلبية راغبة بالإجماع في ظلم الأقلية. وممارسة الظلم تتيح قدرا من الغبطة للطبقات الحاكمة، التي هي أداة تنفيذ هذا الظلم، أكثر بكثير مما تتيحه لكتلة السكان، ولهذا السبب، فإن كتلة السكان، حيثما كان لها سلطان، خليقة بأن تكون أقل طغيانا من حكومة الأقلية (الأوليجاركية) أو الحكومة البيرقراطية.

فضروري، لكي نمنع الحرب، ولنحافظ على حريتنا في الوقت نفسه، ألا تكون في العالم إلا دولة عسكرية واحدة، وأنه حينما ينشب نزاع بين بلاد

---

(1) في الحرب العالمية الأولى.

مختلفة، فلابد أن تتصرف هذه الدولة العسكرية الواحدة وفقا لقرار تصدره هيئة مركزية؛ وهذا هو ما يمكن بالطبيعة أن ينتج من اتحاد يجمع العالم كله، إذا تحقق تكوين مثل هذا الاتحاد يوما ما... ولكن المطمح بعيد الشقة، ولن يضيع سدى ما ننفقه من تفكير في بحث أسباب بعد تلك الشقة..

إن وحدة الأمة ثمرة العادات المتشابهة، والميول الغريزية، والتاريخ المشترك، والعزة المشتركة. أن وحدة الأمة ترجع، إلى حد ما، إلى وشائج القربى الحقيقية بين مواطنيها، إلا أنها ترجع إلى حد ما كذلك إلى ضغط العالم الخارجي ومباينته لهذه الأمة.. فلو أن أمة من الأمم كانت بمعزل عن العالم لكانت قمينة بألا يكون لها التماسك نفسه، أو الحماسة نفسها، اللذان للوطنية. ونحن إذا أمعنا النظر في الأحلاف لا نكاد نجد شيئا يدفعها إلى التماسك إلا الضغط الخارجي. فانجلترا وأمريكا، إلى حد ما، تؤلف بينهما نفس الأسباب التي تقوم عليها الوحدة القومية: من لغة مشتركة (تتفاوت في انجليزيتها)، ونظم سياسية متشابهة، وأهداف متشابهة في محيط السياسة الدولية. أما انجلترا وفرنسا وروسيا، فقد ألف بينها خوفها من ألمانيا ليس غير، ولو أن ألمانيا قضت عليها جائحة طبيعية لبدأت هذه الدول يبغض بعضها بعضا في الحال، كما كان حالها قبل أن يشتد ساعد ألمانيا، وعلى هذا فلا يصح أن يجعلنا التعاون بين دول الحلف الحالي ضد ألمانيا نأمل بأي حال في أن ينشأ حلف سلام يشمل جميع الأمم وتتعاون على أساسه على الدوام. وقد ينتهي الباعث الحالي للتماسك، وبالأحرى هذا الخوف المشترك، ولا يمكن أن يحل محله أي باعث آخر، اللهم إلا حينما تصبح أفكار الناس ومطامحهم غير ما هي الآن.

إن الحقيقة الأساسية التي تتسبب عنها الحرب ليست علة اقتصادية أو سياسية، وهي لا تستند إلى أية صعوبة في اختراع الوسائل لحسم المنازعات

الدولية بطرق سلمية. أن الحقيقة الأساسية التي تتسبب عنها الحرب هي أن شطرا كبيرا من بني البشر ينزعون إلى الخصام أكثر مما ينزعون إلى الألفة، ولا يمكن جعل هؤلاء الناس يتعاونون مع بعضهم البعض إلا حينما يقاومون عدوا مشتركا أو حينما يهاجمون هذا العدو المشترك. وهذه هي الحال في حياة الأفراد كما هي في علاقات الدول. فمعظم الناس، حينما يشعرون بأنهم أقوياء القوة الكافية، يشرعون في العمل على جعل أنفسهم أكثر مخافة، لا أكثر محبة، والرغبة في كسب الرأي الطيب مقصورة عادة على هؤلاء الذين لم يحصلوا على سلطان مضمون. أما النزعة إلى الشجار والاعتداد بالذات، والالتذاذ بتحقيق رغائب النفس فمن دأب معظم الناس. وهذه النزعة نفسها، أكثر من أي حافز من حوافز المنفعة الذاتية الموهومة، هي التي تؤدي إلى الحرب، وتسبب الصعوبة في تحقيق الدولة العالمية، ولا تقتصر هذه النزعة على أمة واحدة من الأمم، بل هي كائنة، بدرجات متفاوتة، في جميع أمم العالم القوية.

بيد أنه ليس ثمة ما يدعو لأن تؤدي هذه النزعة إلى الحرب، بالرغم من قوتها، أنها، على التحقيق، هي نفس النزعة التي كانت تؤدي إلى المبارزة، إلا أن المتمدينين اليوم يدبرون مشاجراتهم الخاصة دون أن يلجأوا إلى إراقة الدماء، فلو أننا استعضنا عن الحرب بالنضال السياسي في دائرة الدولة العالمية، لأمكن لتفكيرنا في وقت قصير أن يعود نفسه على الوضع الجديد، كما عود نفسه من قبل على إغفال المبارزة، والناس مستطيعون، بفعل النظم والعادات، ودون تبديل ذي بال للطبيعة البشرية، أن يتعلموا النظر إلى الحرب كما ننظر نحن إلى تحريق الكفرة، أو تقديم القرابين البشرية إلى آلهة الوثنيين، وأنا إذا ذهبت لأشتري غدارة تسوي جنيهات عدة لكي أقتل بها صديقي، بفكرة أن أسرق من جيبه ستة بنسات، فلن أكون في أعين الناس لا عاقلا راجح العقل، ولا فاضلا

كبير الفضل، أما إذا استطعت أن آتي بخمسة وستين مليونا من الشركاء ليصحبوني في هذه السخافة الإجرامية فإني أصبح مواطنا من مواطني أمة عظيمة مجيدة، مضحيا في شهامة بثمن غدارتي، وربما ضحيت بحياتي، في سبيل الاحتفاظ بالبنسات الستة من أجل كرامة بلادي، ولسوف يمتدحني المؤرخون، الذين هم أهل زلفى في الغالب، ويمتدحون شركائي إذا نجحنا في مهمتنا، وسيقولون عنا أننا جديرون بأن نكون خلفاء لهؤلاء الأبطال الذين خضدوا شوكة رومة الاستعمارية. أما إذا انتصر علينا مقاومونا.. إذا دافعوا بالكثير من الجنيهات عن كل من بنساتهم الستة، وإذا ضحوا بأرواح عدد كبير من بني جلدتهم في سبيل ذلك، فلسوف يدعوني المؤرخون عندئذ لصا قاطع طريق (كما أنا!) وسيمدحون في الذين قاوموني نخوتهم وروح تضحيتهم.

لقد جرت التقاليد على أن تجلل الحرب بهالة من البهاء.. ونحن نجد ذلك في هومر، وفي أسفار العهد القديم، وفي أساليب التعليم الأولى، وفي الأساطير التي أحكمها منشئوها لأهمية الأغراض التي أنشأوها من أجلها، وفي أنباء البطولة والتضحية بالنفس التي تشيد بهما هذه الأساطير. فهذا يفتاح[1] الذي يعدونه رمزا للبطولة لأنه ضحى بابنته، لو لم تخدعه أسطورة من الأساطير لأمكن أن يبقى على حياتها. والأمهات يتسمن بالبطولة لأنهن يراسلن بأنبائهن إلى حومة الوغى، إلا أنهن جد مخدوعات كما خدع يفتاح، وفي كلتا الحالتين على السواء نجد أن هذه البطولة التي مصدرها القسوة، كان يمكن أن يبطل سحرها لو لم يكن ثمة هذا الأثر من البربرية في تلك النظرة الخيالية التي تنبع الأساطير من معينها. أن الإله الذي يمكن أن تسره تضحية فتاة بريئة لا يمكن أن يعبده إلا أناس لا ينظرون إلى فكرة هذه التضحية على أنها فكرة غير بغيضة كل

(1) يفتاح الجلعادي– قضاة ١١– العهد القديم (المترجم).

البغض. والأمة التي تؤمن بأن صالحها لا يمكن أن يصان إلا بالتضحية بمئات الآلات من أمثال هذه القربات المفظعة، وتعريضها للأذى، هي أمة لا إدراك عندها للمثل الروحي الحق لما يتألف منه صالحها القومي. أنه لأفضل مائة مرة أن نتخلى عن لذائذنا المادية، وعن سلطاننا، وأبهتنا، ومجدنا الظاهري، من أن نقتل غيرنا ويقتلنا غيرنا، ونكرههم ويكرهونا، وأن نقضي في لحظة مجنونة من لحظات الغضب على تراث أسلافنا المجيد.. لقد تعلمنا بالتدريج كيف نبرئ ربنا مما نسبه إليه الإسرائيليون والقساوسة البدائيون. والقليلون منا من يؤمنون اليوم أن الله يسره أن يعذب معظم البشر في نار جهنم خالدين فيها.. إلا أننا لم نتعلم بعد كيف نحرر مثلنا القومية من شوائبها القديمة. فالولاء للأمة ربما كان أعمق ديانات العصر الحاضر وأعظمها انتشارا، وهو يتطلب منها ما كانت تتطلبه الديانات القديمة من ألوان الاضطهاد والمحرقات[1] وقساوات البطولة المفظعة، وهو مثلها في وبدائيته، ووحشيته، وسعاره، والدين الذي يتسكع خلف بعض الضمائر بفعل ثقل التقاليد، يصنع الآن –ما كان يصنعه في الماضي– أنه يقسي قلوب الناس فلا تعرف الرحمة، ويحجر عقولهم فلا تعرف الحق. وإذا أردنا النجاة لهذا العالم، فلابد أن يتعلم الناس النبل في غير قسوة، وأن تمتلئ قلوبهم بالإيمان دون أن تستغلق على الحق، وأن تعمرها الأغراض العظيمة دون أن تكره أولئك الذين يحاولون إحباط هذه الأغراض.. ولكن.. قبل أن يمكن أن يحدث هذا، يجب أن يواجه الناس أولا هذه الحقيقة المفزعة... يجب أن يعلموا أن الآلهة التي سجدوا لها، كانت آلهة زائفة.. وأن القرابين التي قدموها كانت باطلة.. وقبض الريح!

([1]) المحرقات في أسفار العهد القديم القرابين الذي تحرق بعد ذبحها (المترجم).

الفصل الرابع

الملكية

من أشد كتاب القصص الواقعي كآبة، بل لعله أكأبهم جميعا الكاتب جسنج الذي يعيش هو وأبطال قصصه تحت وطأة كابوس ثقيل، كابوس المال الذي يتجسم فيكون صنما مخوفا يخر له الناس مع ذلك عابدين. ومن قصصه التي تعد نموذجا لذلك قصة "فداء حواء" التي نرى بطلتها تتذرع بشتى الحجج، كلها شائن وكلها معيب، لكي تتخلى عن الرجل الفقير الذي تهواه، حتى تتزوج من الرجل الثري الذي تهوى ماله أكثر مما تهوى حبيبها الفقير. وإذ يجد الفقير أن ثراء غريمه قد هيأ لها حياة أفضل وجاها أوفر مما استطاع حبه أن يهيئ لها، يقتنع بأن ما فعلته حبيبته هو الصواب، وأن حبه قمين بهذا المصير لأنه خالي الوفاض من المال، وقد صور لنا جسنج في هذه القصة، وفي قصصه الأخرى، تصويرا دقيقا مدى سلطان المال على النفوس، وما يفرضه على الغالبية العظمى من أهل العالم المتمدين من خشوع له.

أن الحقائق التي يسردها "جنسج" لا سبيل إلى إنكارها، ومع ذلك فإن هذا النحو الذي ينحوه في قصصه يحدث ثورة في نفس أي قارئ حي العاطفة جياش الرغبات. أن عبادة المال ليست إلا صدى للشعور بخيبة نفسية. والانحلال الذي يسري في العالم الحديث بوجه عام هو الذي شجع الناس على عبادة الأعراض المادية، وقد عملت هذه العبادة بدورها على سرعة الانحلال الذي يشتد بين الناس حينما يخضعون لهذه العبادة. أن الرجل الذي يؤله المال يكون قد فقد الأمل في سعادة يحققها بما يبذله هو نفسه من مجهود وما يمارسه

من أعمال، فهو ينظر إلى السعادة نظرته إلى تلذذ سلبي بمتع يحصل عليها من العالم المحيط به. والفنان أو العائق لا يعبد المال في لحظات توقده. لأن رغباته محددة، وهي موجهة نحو أهداف لا يستطيع غيره تحقيقها. وعلى العكس من ذلك عابد المال الذي لا يمكن أن يكون شيئا في دنيا الفن أو عالم الحب.

وقد ندد الأخلاقيون منذ القدم بحب المال. وأنا لا أريد أن أضيف جديدا إلى ما بذلوه في ذلك، إذ أن مجهوداتهم لم تأت بنتائج مشجعة. والذي أريد أن أوضحه هو كيف أن عبادة المال هي سبب ونتيجة في نفس الوقت لنقص الحيوية، وكيف يمكن تغيير نظمنا الحالية بحيث تتضاءل عبادة المال بيننا وتزداد الحيوية فينا. ولست هنا بصدد الحديث عن الرغبة في المال بوصفها وسيلة لغايات معينة. فقد يحتاج فنان مكافح إلى المال حتى يوفر لنفسه الوقت الكافي للفن، ولكن هذه الرغبة محدودة، ويمكن إشباعها إشباعا تاما بمبلغ معقول. أن "عبادة" المال هي ما أريد التحدث عنه: أريد التحدث عما يعتقده الناس من أن جميع القيم يمكن أن تقاس بمعايير مادية، وأن المال هو المقياس النهائي الذي يقاس به النجاح في هذه الحياة، أن هذا معتقد تدين به جماهير كبيرة من الناس، وإن كانوا لا يصرحون به. وهو معتقد لا يلائم الطبيعة البشرية، إذ أنه يتجاهل كثيرا من حاجات الناس الحيوية، وميلهم الغريزي لنوع خاص من أنواع النمو. ثم هو يجعلهم يهونون من شأن رغباتهم التي تتعارض واقتناء المال، مع أن هذه الرغبات تكون عادة أهم لخير الإنسان من أي زيادة في دخله. أن هذا الاعتقاد يدفع الناس إلى تشويه طبائعهم بسبب نظرية خاطئة عن مقومات النجاح، كما يدفعهم إلى الإعجاب بأعمال لا تضيف شيئا لخير البشرية. أنه يزيد في هذه الرتابة الميتة التي تتسم بها طبائع الناس وأهدافهم، كما يؤدي إلى نقصان في بهجة الحياة، وإلى خلق حالة من الضيق والإعياء تصيب مجتمعات بأسرها

بالضنى ووهن العزيمة وخيبة الأمل.

ويعتقد الكثيرون أن أمريكا، رائدة التقدم الغربي، هي المثل المجسم لعبادة المال في أكمل صورها. فإن الغنى الأمريكي، الذي لديه بالفعل ما يكفيه لإشباع جميع مطالبه المعقولة، كثيرا ما يستمر مكبا على عمله كمن يعمل ليكسب ما يقيه شر الموت جوعا.

والناس في انجلترا، باستثناء أقلية ضئيلة، يكادون يشبهون الأمريكيين في عبادتهم للمال. والمشاهد أن حب المال في انجلترا يأخذ سمة الرغبة الصادرة عن روح التعاظم في المحافظة على مستوى اجتماعي معين، أكثر مما يأخذ صورة المحاولة لزيادة الدخل إلى ما لا نهاية. فالرجال يؤخرون زواجهم حتى يتهيأ لهم دخل يمكنهم من المعيشة في منازل بها عدد من الغرف وعدد من الخدم يتفق ومكانتهم. وهذا يقتضيهم أن يضبطوا عواطفهم طوال شبابهم، حتى لا ينساقوا إلى ارتكاب حماقة: وبهذا يتكون لديهم نوع من عادة الحذر العقلي، والخوف من الوقوع في المحظور، وهما أمران تستحيل معهما الحياة الطليقة المليئة بالحيوية. وهم بتصرفهم على هذا النحو يخيل إليهم أنهم يأخذون بأهداف الفضيلة، إذ يشعرون أنه مما يصعب على المرأة أن يطلبوا إليها أن تنحط عن منزلة أبويها الاجتماعية، كما أنه مما يشينهم أن يتزوجوا امرأة في منزلة اجتماعية دون منزلتهم. أن أمور الطبيعة لا تقدر بطريق مقارنتها بالمال.

ولكن الناس مع ذلك يعتبرون أن الأمر عادي وليس فيه عنت على المرأة أن تضطر لقبول زوج– هو تجربتها الوحيدة في دنيا الحب، من رجل يحاذر أن يمنحها من عاطفته إلا بقدر، رجل فقد قدرته العاطفية خلال سنين من الكبت الذي يوجبه التعقل، أو بعد سنين من العلاقات الحقيرة مع نساء لا يكن لهن أي احترام في نفسه. أن المرأة نفسها لا تجد في كل ذلك شيئا من العنت، لأنها

هي أيضاً تعلمت هذا الحذر مخافة الهبوط عن منزلتها الاجتماعية، ولقنت منذ فجر صباها أن العواطف الفائرة مما لا يليق بها. وهكذا يتزوج الاثنان ويقضيان حياتهما جاهلين بكل ما له قيمة في الحياة. أن الخوف من نار جهنم ما كان ليحول بين أجدادهما وبين الاستمتاع بعواطفهم، أما هما فقد استولى عليهما خوف أكبر، هو الخوف من أتضاع منزلتهما الاجتماعية، فحرمهما من الاستمتاع بعواطفهما أشد الحرمان..

والدوافع التي حدت بالناس إلى الزواج المتأخر، هي نفسها التي دفعتهم إلى تحديد النسل. فأصحاب المهن الفنية المحترمة يرغبون في إرسال أبنائهم إلى المدارس الخاصة، على الرغم من أن نوع التعليم الذي يحصلون عليه فيها ليس خيرا مما هو في المدارس العامة. وعلى الرغم من أن زملاءهم في الدراسة ليسوا أفضل، ولكن روح التعاظم هي التي قضت بأفضلية المدارس الخاصة، ولا راد لما قضت به. أما السبب الذي يجعل هذه المدارس أفضل في نظرهم، فهو أنها أكثر كلفة. ويجري مثل هذا النضال الاجتماعي نفسه، في صور مختلفة، بين جميع الطبقات، باستثناء الطبقات الرفيعة الشأن جدا أو الوضيعة جدا، ومن أجل هذا يتجشم الناس عناء أدبيا كبيرا، ويبدون من ضبط النفس بسببه قدرا مدهشا، على أنه ليس لما يتحملون من عناء وما يبدون من ضبط النفس، من نتيجة إلا أن ينضب فيهم معين الحياة، فيصبحوا ضعفاء فاترى الهمة، تافهين، لأن مجهوداتهم لم توجه نحو أهداف إنشائية. أن تربة مثل هذه لا تصلح لأن تزدهر فيها الملكات التي تخلق العبقرية. لقد استبدل الناس بحياة الغابة الطليقة، فيود الصالونات: لقد أصبحوا مقيدين متأنقين، مشوهين مثل أقدام الصينيات. وأهوال الحرب نفسها لم تستطع أن تشفيهم من أوهام الوقار والغرور. أن عبادة المال هي السبب الأساسي في هذه الإغفاءة التي تشبه الموت، التي أصابت كل

ما لدى الناس من صفات تقود نحو المجد.

وقد أخذت عبادة المال في فرنسا صورة الحرص الشديد. وليس من الميسور أن يجمع المرء لنفسه ثروة في فرنسا، ولكن من المألوف كثيرا أن يرث الإنسان مالا يضمن له عيشا ناعما، فإذا حدث هذا أصبح هدفه الأول في الحياة أن يحتفظ بالميراث كاملا لأبنائه، وزيادته إن أمكن.

وذوو الدخول الثابتة من الفرنسيين هم إحدى القوى الكبيرة التي تؤثر في السياسة الدولية، وهم السبب الذي زاد من مكانة فرنسا في الشئون الدبلوماسية وأضعف من قدرتها على الحرب، وذلك بما تسببوا فيه من زيادة رصيد فرنسا من رأس المال وقلة رصيدها من الرجال. أن ضرورة إعداد بائنة للابنة عند زواجها، وتقسيم الممتلكات الذي ينشأ عن قانون المواريث جعل الأسرة، بوصفها مؤسسة، أقوى في فرنسا منها في أي بلد متمدين آخر. ويعمل الفرنسيون على أن تظل الأسرة قليلة العدد، كي يرتفع مستواها، وكثيرا ما يضحون بأفراد منها للمحافظة على كيانها. ورغبتهم في المحافظة على بقاء الأسرة تجعل رجالها هيابين، وتفقدهم روح المثابرة، أن الطبقة الكادحة المنظمة وحدها هي التي لا تزال تحتفظ بتلك الروح المغامرة التي أشعلت الثورة وقادت العالم في السياسة فكرا وعملا. ولقد أصبحت قوة الأسرة سببا في ضعف الأمة الفرنسية بفعل سلطان المال، إذ أوقفت هذه القوة تقدم الشعب، بل جعلته أميل إلى الانحلال. وحب السلامة. هذا وقد بدأ يترك آثارا مماثلة في كل بلد آخر، إلا أن فرنسا كانت من أسبق الأمم إلى هذا، كما سبقتها إلى أمور أخرى أفضل.

وعبادة المال في ألمانيا أحدث عهدا منها في فرنسا وانجلترا وأمريكا، بل الواقع أنها لم يكن لها أثر محسوس قبل الحرب بين بروسيا وفرنسا، ولكن الألمان

اعتنقوها الآن بالشدة والإخلاص اللذين طالما تميزت بهما المعتقدات عندهم. ومما يلفت النظر أن عبادة المال قد اقترنت في ألمانيا بالدولة، كما اقترنت بالأسرة في فرنسا. وقد علم ليست، الذي كان ينفر من رجال الاقتصاد في انجلترا، مواطنيه أن يفكروا في المسائل الاقتصادية على أسس قومية، والألماني الذي ينشئ مؤسسة اقتصادية هو في نظر الناس وفي نظر نفسه رجل يؤدي خدمة للدولة. والألمان يعتقدون أن سر عظمة انجلترا هو التصنيع والإمبراطورية، وأن نجاحنا في هذين المضمارين هو نتيجة لقوميتنا العميقة. أما ما يبدو من عنصر الدولية الظاهر في سياستنا الخاصة بحرية التجارة، فهم يعتبرونه رياء خالصا، وقد أخذوا يحاكوننا على حقيقتنا كما يتصورونها إلا في الرياء. ويجب أن نعترف بأنهم أصابوا نجاحا مدهشا. إلا أنهم دمروا أثناء ذلك كل ما جعل ألمانيا ذات قيمة بالنسبة للعالم، ثم هم لم يقلدوا ما قد يكون فينا من خير، إذ أنهم لفظوه بعد أن حكموا عليه بأنه رياء، إلا أنهم باقتباسهم أقبح خطايانا، جعلوها أكثر قبحا، فبدلا من أن تكون خطايا خبط عشواء، وقليلة بحيث لا يرتكبها الجميع كما هي الحال عندنا، نظموها هم وأقبلوا عليها مجمعين بصورة نعجز عنها نحن الانجليز لحسن حظنا.

إن للعقائد التي تعتنقها ألمانيا أهمية كبرى في العالم، لأن الألمان لديهم قوة الإيمان الحقيقي، والقدرة على تحصيل ما تتطلبه عقيدتهم من فضائل ورذائل. فمن أجل خير العالم، وخير الألمان أنفسهم يجب أن نأمل أن يهجروا قريبا عبادة المال التي تعلموها منا.

أن عبادة المال ليست شيئا جديدا، ولكنها أصبحت أكثر ضررا مما كانت، لأسباب عدة. فالتصنيع قد جعل العمل أكثر إرهاقا وشدة، وأقل بعثا للسرور وإثارة للاهتمام بالنسبة للرجل الذي يعمل من أجل الأجر. كما أن القدرة على

تحديد النسل أوجدت مجالا جديدا للقصد في إنفاق المال. كما أصبح الناس بسبب انتشار التعليم وزيادة القدرة على ضبط النفس أكثر قدرة على متابعة أغراضهم في إصرار، على الرغم من المغريات، وعندما تكون هذه الأغراض ضد الحياة فإنها تصبح أكثر خطرا كلما زاد تصميم أولئك الذين يهدفون إليها. وقد جعلتنا زيادة الإنتاج التي نشأت عن التصنيع قادرين على أن نكرس قدرا أكبر من العمل ورأس المال للجيوش والأساطيل لحماية ثروتنا من جيراننا الذين يحسدوننا، ولاستغلال الشعوب الضعيفة التي جردتها الدول الرأسمالية في كل خيراتها. والجزع وانشغال البال خوفا من ضياع المال، ينقصان من قدرة الناس على السعادة، ويجعلان الخوف من وقوع الكارثة أكثر ضررا من وقوع الكارثة نفسها. أننا نستطيع أن نرى من تجاربنا، أن أسعد الناس هم أولئك الذين لا يهمهم المال، لأن لهم أهدافا محددة تقف حاجزا بينهم وبينه. ومع ذلك فإن آراءنا السياسية، سواء كنا من أنصار سياسة التوسع الاستعماري، "الامبريالزم" أو كنا تقدميين أو اشتراكيين، تكاد تنحصر في معالجة رغبات الناس الاقتصادية، كأنما هي وحدها الأمر الذي له أهمية حقيقية.

وللحكم على نظام صناعي، سواء كان ذلك الذي نعيش في ظله أو كان نظاما آخر يقترحه المصلحون، فلابد أن نأخذ بعين الاعتبار مقاييس أربعة أساسية يمكن تطبيقها:

فيجب أن ننظر إذا كان هذا النظام يكفل

١-الحد الأقصى للإنتاج.

٢- عدالة التوزيع.

٣- حياة مريحة للمنتجين.

٤- أكبر قدر ممكن من الحرية الحافز إلى الحيوية والتقدم.

ونستطيع أن نقول بصفة عامة أن النظام الحالي يهدف إلى تحقيق الغرض الأول فحسب، ويهدف النظام الاشتراكي إلى تحقيق الغرضين الثاني والثالث. ويقول بعض أنصار النظام الحالي، أن المؤسسات الخاصة تعمل على تشجيع التقدم الفني أكثر مما لو كانت الصناعة في يد الدولة، وهم بذلك يعترفون إلى حد ما بالهدف الرابع من الأهداف التي ذكرناها. إلا أنهم ينظرون إلى هذا الهدف من ناحية الفائدة التي تعود على السلعة وصاحب رأس المال، وليس من ناحية العامل. وعندي أن الهدف الرابع هو أهم الأهداف جميعا، وأن النظام الحاضر يقف في سبيل تحقيقه، وأن الاشتراكية بوضعها الحالي تقف في سبيله أيضاً.

إن أحد الفروض التي لا تقبل المناقشة في النظام الرأسمالي هو وجوب العمل على زيادة الإنتاج بكل وسيلة ممكنة. باستعمال أنواع جديدة من الآلات، وباستخدام النساء والأطفال، وبإطالة ساعات العمل بالقدر الذي لا يؤدي إلى نقص كفاية العامل... الخ، أن أهالي أواسط أفريقيا، الذين تعودوا أن يعيشوا على ما تنتجه لهم الأرض من ثمار، والذين هزموا منشستر باستغنائه عن الملابس، وقد فرضت عليهم ضرائب لا يستطيعون دفعها إلا إذا عملوا عند الرأسماليين الأوربيين. ومن المعترف به أنهم أسعد حالا طالما تركوا أحرارا بعيدين عن النفوذ الأوروبي، وأن التصنيع يجلب عليهم مرارة الحبس داخل المصانع، وهو أمر لا رغبة لهم فيه، ويعرضهم للموت من الأمراض التي اكتسب البعض مناعة جزئية ضدها. ومن المعترف به أن أفضل العمال السود هم "العنصر الخام" الذين جيء بهم لتوهم من الأحراش مباشرة، فلم يسبق لهم أن مروا بالتجربة التي يمر بها كل ذوي الأجور من العمال. ومع ذلك فإن أحدا لم يجاهد

–وكان لجهاده أي نتيجة– في سبيل تجنيبهم المصير السيئ الذي نسوقهم إليه، لأن أحدا لم يساوره الشك في أنك من الخير زيادة الإنتاج العالمي مهما كان الثمن.

إن الإيمان بأهمية الإنتاج يتسم بالقسوة والتعصب الأعمى. فطالما كان هناك إنتاج، فإن ما ينتج لا أهمية له. ونظامنا الاقتصادي كله يشجع هذا الاتجاه، ما دام الخوف من البطالة يجعل أي نوع من العمل نعمة بالنسبة لدى الأجر. وقد صرف جنون "زيادة الإنتاج" الناس عن التفكير فيما هو أهم، وحرم العالم من الفوائد التي تتيحها زيادة قدرة العامل الإنتاجية.

وعندما نجد كفايتنا من غذاء وكساء ومأوى، فإن ما يزيد على ذلك لا داعي له إلا للفخفخة أو لإشباع شهوة الاقتناء، تلك الشهوة التي لا يمكن أن يستطيبها أحد بالرغم من أنها شهوة غريزية. ويستطع جزء من الشعب أن ينتج كل ما تدعو إليه الحاجة الحقيقية من سلع، إذا استعمل الوسائل الحديثة، دون حاجة إلى إطالة ساعات العمل. والوقت الذي يضيع الآن في إنتاج الكماليات، يمكن استغلال بعضه في الترويح عن النفس وقضاء الإجازات الخلاوية وفي الحصول على تعليم أفضل، وفي أعمال غير يدوية ولا آلية.

فنحن نستطيع، إذا أردنا، أن نحصل على قدر أكبر من العلم والفن، وأن نتوسع في نشر الثقافة والتحصيل الذهني، وأن نوفر فراغا أكثر لذوي الأجور، وقدر أعظم للاستمتاع بالمتع العقلية. فالعامل في الوقت الحاضر، لا يستطيع الحصول على أجر إلا بالعمل ساعات أطول بكثير مما ينبغي له أن يعمل، وهذا ينطبق أيضا على جميع الدخول الناشئة عن العمل تقريبا. أن الرجل الذي يكسب بالعمل المرهق ثمنمائة من الجنيهات في العام لا يستطيع أن يكسب أربعمائة بنصف هذا العمل. وكثيرا ما لا يستطيع أن يكسب أي شيء مطلقا

إذا لم يكن مستعدا للعمل طول اليوم وكل يوم.

وبسبب المغالاة في الإيمان بفائدة الإنتاج يعتقد الناس أن من الحق والصواب أن يعمل الرجل ساعات طويلة، وينسون الخير الذي قد ينشأ عز العمل ساعات أقل. ولا تثير أنواع القسوة الناجمة عن النظام الصناعي –لا في أوروبا وحدها، بل في المناطق الاستوائية بخاصة– إلا أبسط الاحتجاجات التي يقوم بها بعض ذوي القلوب الخيرة من وقت إلى آخر. والسبب في ذلك أن الفساد الناشئ عن نظمنا الاقتصادية الحالية جعل رغباتنا الواعية المتعلقة بمثل هذه المسائل قاصرة عن الإحاطة بغير جزء منها، وهذا الجزء ليس مع ذاك الجزء المهم من حاجاتنا الحقيقية التي كانت نتيجة للعمل الصناعي. وليس ثمة علاج لهذه الحالة إلا بنظام اقتصادي مختلف تبرز فيه أهمية العلاقة بين نشاط الإنسان وحاجاته، وتصبح علاقة مباشرة.

إننا –مهما تقادم الزمن– لن نبلغ هدفنا من زيادة الإنتاج إلى غايته القصوى إذا استمر نظامنا الصناعي الحاضر على ما هو عليه، إذ أن فيه مضيعة للقوى الإنسانية، بسبب الضرر الصحي والنقص في كفاية العمال الصناعيين وبخاصة في حالة استخدام النساء والأطفال، هذا من وجهة، ومن جهة أخرى لما يميل إليه أمهر العمال من تحديد النسل، ولأن أكثر الشعوب مدنية معرضة للانقراض تدريجيا. أن كل مدينة كبيرة هي بؤرة من بؤر الفساد للجنس البشري. وقد كتب سير هـ. لبولين سميث عن حالة مدينة لندن من هذه الناحية مدعما ما كتبه بإحصائيات مستفيضة[1] ولا شك في أن ما ذكره يصدق على حالات أخرى. وهو يصدق أيضا عن مصادر الماد: فالعالم يستهلك المعادن، والغابات البكر، وحقول الغلال استهلاكا مسرفا ستكون نتيجته التي لا شك فيها

(1) الجزء الثالث من كتاب "حياة الناس وأعمالهم" تأليف بوت.

التسبب للأجيال المقبلة في عنت شديد.

ويعتقد الاشتراكيون أن علاج ذلك يكون بنقل ملكية الأرض ورأس المال إلى الدولة، مع تطبيق نظام أكثر عدالة في التوزيع. ولا سبيل إلى إنكار أن نظامنا الذي نتبعه الآن في التوزيع هو نظام لا يمكن الدفاع عنه من أية ناحية من نواحيه بما في ذلك ناحية العدالة. أن نظامنا الحالي للتوزيع ينظمه القانون، ويمكن تعديله من نواح كثيرة مألوفة لدينا الآن، بحيث أصبحنا ننظر إليها على أنها أمور طبيعية ولا محيص عنها. ويمكننا أن نتبين أربعة مصادر رئيسية معترف بها ترتب حقوق ملكية قانونية:

١–حق الإنسان فيما حصل عليه بكده هو، ٢– حق الحصول على فائدة لرأس المال ٣– ملكية الأرض، ٤– الميراث. وهذه المصادر مرتبة على أساس ما تبعثه في النفس من احترام. فرأس المال أدعى إلى الاحترام من العمل، والأرض أدعى إلى الاحترام من رأس المال، والمال الموروث أياً كان نوعه أدعى إلى الاحترام من المال الذي نحصل عليه بمجهودنا الشخصي.

إن حق الرجل في ثمرة عمله لم يحظ في الواقع إلا بقدر ضئيل من اعتراف القانون. وقد أصر الاشتراكيون الأوائل، ولاسيما الاشتراكيون الانجليز الذين مهدوا الطريق لماركس، على أن هذا الحق هو أساس لكل نظام عادل في التوزيع، ولكن كيف يتيسر لنا تحديد ما أنتج كل عامل على حدة في العمليات الصناعية الحديثة المعقدة؟ ما هو الجزء الذي يستحقه الشيال من بضاعة تنقل بواسطة السكة الحديدية؟ وعندما ينقذ جراح حياة رجل، فما مقدار ما يستطيع الجراح المطالبة به، مطالبة عادلة، مما ينتجه هذا الرجل بعد ذلك؟ إن مثل هذه المشاكل غير قابلة للحل. وحتى إذا أمكن حلها، فإن إعطاء كل رجل ثمرة ما ينتجه بنفسه ليس أقصى أنواع العدالة. أن بعض الرجال أقوى من غيرهم، أو

أحسن صحة، أو أمهر، وليس ثمة سبب في أن نعمل على زيادة ظلم الطبيعة بظلم مصطنع يفرضه القانون. أن هذا المبدأ يدعمه من ناحية أنه يقضي على الغنى الفاحش، ومن ناحية أخرى أنه يحث الناس على العمل. إلا أننا نستطيع تحقيق الفائدة الأولى بطريق أخرى على وجه أكمل، أما الفائدة الثانية فتصبح أمرا غير مرغوب فيه إذا نحن كففنا عن عبادة المال.

إن الفائدة على رأس المال أمر طبيعي في المجتمعات التي لا تحدد الملكية الفردية والتي تعاقب على السرقة، لأن بعض عمليات الإنتاج الاقتصادية تتم ببطء، وقد يفتقر أولئك الذين توفر فيهم المهارة لإنجازها إلى ما يقوم بأودهم حتى تتم. ولكن القدرة على إقراض المال تعطي أصحاب رأس المال من الأفراد، إذا لم تفرض عليهم رقابة شديدة، ثروة واسعة ونفوذا كبيرا لا يتفقان وما ينبغي من الحرية الحقيقية لبقية أفراد الشعب. وأثر هذه القوة في الوقت الحاضر في عالم الصناعة وميدان السياسة الدولية سيء إلى حد ينبغي معه ابتكار وسيلة للحد من سلطانها.

وليس للملكية الخاصة من سند يبررها إلا ما كانت تقوم عليه في غضون التاريخ من قوة السيف. فقد كان لبعض الأشخاص في عهد الإقطاع من القوة العسكرية ما مكنهم من إرغام الذين يبغضونهم على عدم البقاء في بقعة معينة. أما الذين سمحوا لهم بالبقاء فقد أصبحوا تابعين لهم، واضطروا أن يخدموهم مقابل الإذن لهم بالبقاء. وكان لابد، لكي يحل القانون محل القوة الخاصة، من أن تترك الحقوق التي اكتسبت بالسيف دون مساس.– وأصبحت الأرض ملكا لأولئك الذين غزوها، وسمح للتابعين بأن يدفعوا إيجارا بدلا من قيامهم بخدمات عينية. فليس هناك من سند آخر للملكية الخاصة للأرض سوى ما كان الناس يضطرون إليه فيما سلف من إرضاء لصوص شرسين ما كانوا لينصاعوا للقانون

بأي وسيلة أخرى، ولقد اضطر الناس إلى ذلك في أوروبا منذ قرون طويلة، ثم اضطروا إلى مثله تماما في أفريقيا منذ عهد قريب جدا. فبنفس الطريقة، مع تعديل طفيف بقصد التعمية، ثم الاستيلاء على مناجم الماس في كمبرلي ومناجم الذهب في راند على الرغم من الحقوق السابقة التي كانت للأهالي. أنه لمثل صارخ للجحود الإنساني أن يستمر الناس حتى الآن في تحمل السلب والجور اللذين تستطيع فئة قليلة فرضهما بسبب ملكيتهم للأرض. أن الملكية الخاصة للأرض لا ينشأ عنها أي خير للمجتمع. ولو عقل الناس لقرروا إلغاءها على الفور دون أدنى تعويض سوى تقرير دخل بسيط مدى الحياة لملاكها الحاليين.

إن مجرد إلغاء الإيجار لن يقضي على الظلم، إذ أنه يمنح امتيازات لا مبرر لها من يستغلون أحسن المناطق وأخصب الأراضي وقت الإلغاء، أنه من الضروري أن يكون هناك إيجار، إلا أنه يجب أن يدفع للدولة أو لأية الدولة والخدمات العامة التي يمكن القيام بها، جمع الباقي في اعتماد مشتركة ووزع بالتساوي بين أفراد الشعب. ومن الممكن أن تكون هذه طريقة عادلة، فهي لن تساعد فقط على محاربة الفقر، بل أنها ستمنع أيضاً الاستغلال السيئ للأرض، وتقضي على طغيان ملاك الأراضي المحليين. أن كثيرا مما يبدو أنه مظهر لقوة رأس المال هو في الواقع قوة مالك الأرض: مثال ذلك شركات السكك الحديدية، وأصحاب المناجم. أن الشر الناجم عن النظام الحالي، والظلم الذي يلحق الناس من جرائه، لأمر لا يخفي على أحد، ولكن صبر الناس على الشرور التي يمكن ملافاتها بلغ حدا عظيما يستحيل معه الحدس بالموعد الذي يضعون فيه حدا لهذه السخافة الغريبة.

والميراث، وهو مصدر الجزء الأكبر من الدخول التي لا يبذل فيها مجهود، يعتبره معظم الناس حقا طبيعيا. ففي بعض الأحيان، كما هي الحال في انجلترا،

يكون حق التوريث مطلقا للمالك يتصرف فيه كما يتراءى له دون قيد. وفي أحيان أخرى كما هي الحال في فرنسا، يقيد هذا الحق بحق الأسرة في أن ترث على الأقل جزاء مما يتركه المورث. ولكن ليس لحق المالك في أن يوصي بأملاكه، ولا لحق الأطفال في أن يرثوا آباءهم أي أساس سوى الغرائز الاقتنائية والاعتزاز بالعائلة. وقد تكون ثمة أسباب تبرر أن يستمتع رجل ما، لعمله قيمة ممتازة، كمخترع مثلا- بدخل أكبر مما يحصل عليه الرجل العادي، إلا أنه ليس ثمة من سبب وجيه يبيح أن يرث هذا الامتياز أبناؤه من بعده ثم أبناء أبنائه إلى ما شاء الله. فإن هذا ينبني عليه أن تنشأ طبقة من الكسالى المجدودين، ممن يكسبهم مالهم النفوذ والسلطان، وممن يعارضون الإصلاح خوفا من أن يكون موجها ضدهم. فيصبح أفق تفكيرهم ضيقا، بسبب ما يخشونه من أن يضطروا إلى الاعتراف بأن لا وسيلة للدفاع عن مركزهم، ومع ذلك فإن بريق الفخفخة الكاذبة ورغبة الطبقة الوسطى في الحصول على رضائهم تجعل كل هذه الطبقة تقريبا تقلدهم تقليدا أعمى، وتدافع عن وجهة نظرهم، وبهذا يصبحون شرا يسمم أفكار جميع المثقفين تقريبا.

ويقول البعض أن الناس قد لا يعملون بالهمة التي يعملون بها وهم مدفوعون بدافع الميراث إذا جردوا من هذا الدافع. وهم يؤكدون لنا أن كبار رجال الصناعة تستحثهم الرغبة في تأسيس أسرة، وأنهم لن يكرسوا حياتهم للعمل المرهق المتواصل إذا لم يكونوا يأملون تحقيق هذه الرغبة. وأنا لا أعتقد أن جزءا كبيرا من العمل المفيد فائدة حقيقية يتم بدافع من تلك الرغبة، فالعمل العادي يدفع إليه طلب العيش، وخير الأعمال ما تدفع إليه لذة العمل نفسه. وحتى كبار رجال الصناعة أنفسهم، أولئك الذين يقال أنهم إنما يهدفون إلى تكوين عائلات -وقد يعتقدون هم أنفسهم أنهم يهدفون إلى ذلك- قد يكون

الدافع لهم على العمل حب السلطة ونشوة المغامرة التي تتضمنها المشروعات الكبيرة أكثر مما تدفعهم الرغبة في تكوين عائلة. وحتى إذا كان ثمة بعض النقص في كمية العمل، فإنه يهون في سبيل التخلص من طبقة الأغنياء الذين لا عمل لهم إلا ما يشيعونه من جور وضعف وفساد.

ولا يقوم نظام التوزيع الحالي على أي مبدأ. فقد بدأ الأمر بنظام فرضه الغزو، ثم جاء القانون فأجاز القواعد التي وضعها الغزاة، ولم تغير هذه القواعد تغييرا أساسيا حتى الآن. فما هو المبدأ الذي يجب أن يقام عليه البناء من جديد؟

فأما الاشتراكية، التي تحظى بأكبر قسط من التأييد الشامل بوصف كونها الخطة المثلى للإصلاح، فهدفها الأول هو تحقيق العدالة، أن التباين الحالي في الثراء هو تباين غير عادل، وقد يقضي قيام الاشتراكية على هذا التباين. الاشتراكية لا تتطلب المساواة التامة في الدخل، ولكنها تستلزم أن يكون سبب الاختلاف في الدخول، في كل حالة من الحالات، هو الاختلاف في حاجات الناس، والاختلاف في نوع الأعمال التي يقومون بها، وليس ثمة من ينكر أن النظام الحالي ينطوي على جور كبير. بيد أنني لا أظن أن العدالة وحدها تكفي كمبدأ يقوم عليه إعادة البناء الاقتصادي. فإن العدالة تتحقق إذا كان الناس جميعا سعداء، كما تتحقق إذا كانوا جميعا غير سعداء. والعدالة وحدها إذا تحققت لا تكون منبعا لحياة جديدة. أن الاشتراكي الماركسي الثائر القديم لم يدر في خياله ما ستكون عليه حياة المجتمعات بعد أن يستتب الأمر للنظام السعيد. أنه تخيل أن جميع الناس سيعيشون في رغد من العيش كما يعيش أبطال القصص الخيالية. إلا أن هذا لا يحدث في الحياة الحقيقية. أن الحياة، لكي تكون محتملة– تستوجب أن يكون فيها رغبات، ونشاط، وأهداف، أما حياة العصر

السعيد التي تخيلها أولئك القوم فإن الأمل في تحقيقها قد يجلب السرور، ولكنها تكون غير محتملة لو تحققت.

حقيقة أن الاشتراكيين المحدثين فقدوا ذلك الإيمان الديني الذي كان يمتاز به رواد الاشتراكية الأول، وأصبحوا ينظرون إلى الاشتراكية على أنها اتجاه أكثر منها هدف محدد. ولكنهم ظلوا عند رأيهم من أن دخل الشخص هو الذي يحتل المكانة الأولى من الناحية السياسية، وأن رفع أجور العمال يجب أن يكون الهدف الأساسي للسياسي الديمقراطي. وعندي أن هذا الرأي ينطوي على فكرة سلبية عن مقومات السعادة. فحقيقة أن عالم الصناعة فيه مئات ضخمة من الناس أفقر من أن تتاح لها فرصة الحياة الطيبة، ولكن الحياة الطيبة لن تتحقق من تلقاء نفسها كلما زال الفقر. أن قليلين جدا من أفراد الطبقة الموسرة يعيشون حياة طيبة في الوقت الحاضر، وقد يكون كل ما ستفعله الاشتراكية هو إحلال الشرور التي تحيق الآن بالطبقات الموسرة فقط، محل الشرور الناجمة عن الفقر.

وعلى الرغم من أن الحركة العمالية القائمة من أهم بواعث التطور، فإن هناك اتجاهات يجب على المصلحين أن يكونوا على حذر منها. أن الحركة العمالية هي في صميمها حركة تهدف إلى تحقيق العدالة، وتقوم على الاعتقاد بأن تضحية الأغلبية في سبيل الأقلية ليس لها ما يبررها الآن، أياً كانت مبرراتها في الماضي. فعندما كان العمل أقل إنتاجا، وكان التعليم أقل انتشارا، كان من الجائز أن يكون وجود الطبقة الأرستقراطية هو الوسيلة الوحيدة لقيام عالم متمدين: من الجائز أنه كانت هناك ضرورة لأن تساهم الأغلبية في تيسير أسباب العيش للأقلية، إذا كانت الأقلية تساعد على تطور العالم وزيادة رصيده من الفن والحياة الفكرية والمدنية، ولكن هذه الضرورة قد انقضى عهدها أو هي في

سبيلها إلى الزوال السريع، ولم يعد هناك أي اعتراض وجيه على تحقيق ما تقتضيه العدالة. أن الحركة العمالية لا يمكن مقاومتها عن طريق الحجة العقلية، وليس ثمة في الوقت الحاضر ما يقاومها مقاومة جدية سوى الأهواء والاعتداد بالذات. أن الآراء الحية جميعا في جانبها، وليس يعارضها إلا كل ما هو تقليدي ميت. ولكن على الرغم من أنها هي نفسها حية، فليس هناك ما يؤكد تأكيدا مطلقا أنها تعمل للحياة.

والعمل توجهه بعض تيارات الفكر السياسي توجيهات لو ظلت قوية بعد انتصاره لأصبحت عاملا خطيرا من عوامل الضغط. وغالبية أفراد الطبقة المثقفة يقاومون ما تطمح إليه الحركة العمالية بصفة عامة، إذ يرون أنها لا تهدد راحتهم الشخصية فحسب، ولكنها تهدد أيضاً الحياة المتحضرة التي يعيشون فيها والتي يؤمنون إيمانا عميقا بأهميتها للعالم. وعندما تكون الحركة العمالية نشطة ثورية، فإنها تميل بسبب مقاومة الطبقات المتعلمة لها إلى احتقار كل ما تمثله هذه الطبقات. وعندما تكون الحركة العمالية أميل إلى الاحترام، كما هو حال زعمائها في انجلترا، فإن تأثير الرجال المتعلمين، الذي يعمل في الخفاء ودون أن يتنبه له أحد، قمين بأن يقضي على الحماسة الثورية، وأن يترك محلها الشك وعدم الثقة، بدلا من الثقة السريعة التي كان من الجائز الوصول إلى النصر عن طريقها. أن الميل الذي يبديه خير رجال الطبقة الموسرة نحو الحركة العمالية، واستعدادهم للاعتراف بمطالبها العادلة، قد يكون لهما تأثير في تخفيف معارضة زعمائها لبقاء الحال على ما هو عليه، وأن يزين لهم أنه من المستحيل إحداث تغيير أساسي– ولما كانت هذه المؤثرات تصيب زعماء الحركة العمالية أكثر مما تصيب جنودها، فإن النتيجة أن يفقد الجنود ثقتهم في الزعماء، وتنشأ لديهم الرغبة في إيجاد زعماء جدد ممن يكونون أقل استعدادا لتقبل وجهات نظر

الطبقات المجدودة. وقد تكون النتيجة في النهاية حركة عمالية تبلغ في عدائها لحياة الفكر الحد الذي يتصور بعض المذعورين من الملاك أنها بلغته الآن فعلا.

أن مقتضيات العدالة إذا فسرت تفسيرا ضيقا تعمل على تقوية هذا الاتجاه. فقد يعتبر من غير العدل أن يتمتع بعض الرجال بدخل أكبر من دخل غيرهم، أو بساعات عمل اقل من ساعاتهم، ولكن الكفاية في الأعمال العقلية –بما فيها الأعمال التربوية– تتطلب على التحقيق راحة أكثر مما تتطلب الكفاية في الأعمال الجسمانية، ولو بسبب أن العمل العقلي ليس صحيا من الوجهة الفسيولوجية. فإذا لم يراع ذلك فإن حياة الفكر قد تضار بسبب قصر النظر أكثر مما يضرها العداء المتعمد.

إن التعليم يعاني الآن –وقد يظل يعاني مدة طويلة– من رغبة الآباء في أن يتكسب أولادهم مالا بأسرع ما يستطيعون. فكلنا نعرف أن نظام نصف اليوم في المدرسة مثلا نظام غير صالح ولكن نفوذ الحركة العمالية المنتظمة يعمل على بقائه. وواضح أن علاج هذا الشر، وكذلك حل مشكلات السكان هو أن نرفع عن كاهل الآباء عبء تعليم أبنائهم، وأن نمنع في نفس الوقت حقهم في الاستيلاء على أجور أبنائهم.

إن الطريق إلى تجنب مقاومة العمل الخطرة لحياة الفكر ليس معارضة الحركة العمالية، وهي أقوى من أن تعارض معارضة عادلة، بل الطريق السليم هو الإثبات بطريقة عملية واقعية أن الفكر مفيد للعمل، وأن العمل بدون الفكر لا يمكن أن تتحقق أهدافها المحددة، وأن ثمة رجالا في عالم الفكر على استعداد لأن يكرسوا مجهوداتهم لمساعدة العمل في نضاله. أن مثل هؤلاء الرجال يستطيعون أن يمنعوا العمل من تدمير ما هو حيوي في عالم الفكر، إذا كانوا مخلصين عاقلين.

وثمة خطر آخر في أهداف الحركة العمالية المنظمة، وهو خطر "الرجعية" في وسائل الإنتاج. أن التحسينات التي تدخل على الآلات وعلى التنظيم تحمل في طياتها مزايا كبيرة لأصحاب المصانع، ولكنها تتضمن خسارة مؤقتة لذوي الأجور، وقد تكون خسائره دائمة. فلهذا السبب، وللنفوذ الغريزي من تغيير العادات، كثيرا ما تقف منظمات عمالية قوية في سبيل التقدم الفني. ويجب أن تكون القاعدة الأساسية التي يبنى عليها كل تقدم اجتماعي، زيادة الكفاية الفنية، أي الحصول على نتائج أفضل من قدر معين من العمل. وإذا استمر العمل يقاوم التقدم الفني مقاومة فعالة. فإنه مع مرور الوقت سيوقف كل أنواع التقدم الأخرى.

إن الطريقة المثلى للتغلب على مقاومة العمل ليست المبادرة بالعداء، ولا بإلقاء المواعظ الخلقية، ولكن بمنح العمال المصلحة المباشرة التي يتمتع بها الآن أصحاب العمل في العمليات الاقتصادية. وفي هذه الحالة نتخلص من الجزء غير التقدمي من حركة هي في صميمها تقدمية، وذلك ليس عن طريق التنديد بالحركة كلها، ولكن بأن نهيئ لها آفاقا أوسع تجعلها أكثر تقدمية، وتدفعها حتى إلى المطالبة بإحداث تغيير في البناء الاجتماعي أكبر مما كانت تفكر فيه عند بدايتها.

وأهم الأهداف التي تستطيع المنظمة السياسية تحقيقها، هو العمل على استمرار جذوة الحياة في العنصر الإنشائي لدى الأفراد، وفي نشاطهم وحيويتهم، وفيما يستمتعون به من بهجة الحياة. وقد كانت هذه الأشياء موجودة مثلا في انجلترا في عهد إليزابث بطريقة لا وجود لها الآن. فأثارت في النفوذ وقتئذ حب المغامرة، وأنعشت الشعر والموسيقى والعمارة الجميلة، وكانت مطلعا لكل الحركة التي انبعثت منها عظمة انجلترا في جميع الميادين التي برز الانجليز

فيها. ولقد وجدت هذه الأشياء والجور الاجتماعي جنبا إلى جنب، ولكن آثارها رجحت آثاره، وجعلت حياة الأمة أدعى إلى الإعجاب مما هو منتظر أن تكونه، بالغا ما بلغ، في ظل الاشتراكية.

إن الذي نطلبه ليظل الناس يفيضون حيوية هو الفرصة وليس الطمأنينة فقط. أن الطمأنينة ليست إلا ملاذا من الخوف، أما الفرصة فهي مصدر الأمل. والمقياس الأكبر لنجاح أي نظام اقتصادي ليس في أنه يجعل الناس منتعشين ماديا، أو في أنه يضمن عدالة في التوزيع (بالرغم من أن هذين الأمرين مرغوب فيهما جدا) ولكن المقياس هو في أنه لا يعوق النمو الغريزي للناس. وحتى يحقق النظام الاقتصادي هذا الهدف يجب أن يتوافر فيه شرطان أساسيان، فينبغي ألا يكون عاملا على إضعاف عواطف الناس الخاصة، وأن يوفر لنزعة الإنشاء عندهم أكبر قدر من التحقيق. أن في معظم الناس غريزة بناء، وبالأحرى رغبة في عمل شيء ما، إلا إذا كانت هذه الغريزة قد اضمحلت بسبب سوء الاستعمال. ونحن بوجه الإجمال نرى أن الذين ينجحون أكثر من غيرهم هم من كانت هذه الغريزة لديهم أقوى منها فيمن سواهم. ومثل هؤلاء يصيرون فنانين أو علماء أو سياسيين أو بناة إمبراطوريات أو أساطين صناعة، تبعا لظروف طبيعتهم وفرصهم. أن هذه النزعة هي التي تدفع أصحابها إلى أعظم ما يصنعونه من خير وأسوأ ما يرتكبونه من إثم، ولولاها لهبط مستوى الحضارة في العالم، ولأصبح الناس كأهل التبت في تمسكهم بسنن آبائهم، فيغرق كل جيل أكثر من سابقة في غمار تقاليد لا حياة فيها، وهو الأمر الذي يخشى دائما أن ينتهي إليه مصير العالم، على أن غريزة البناء ليست وقفا على الممتازين من الناس بالرغم من كونها أقوى عندهم منها عند غيرهم. فهي توجد في الأطفال جميعا، وتظل قائمة لدى البالغين بصفة عامة، بمقدار يتفاوت بتفاوت المتنفس الذي تستطيع

أن تجده. والناس يجدون راحة في الأعمال التي يقومون بها بوحي من هذه الغريزة حتى لو كان العمل مرهقا وصعبا، لأن كل مجهود يبذلونه هو مجهود طبيعي مثل المجهود الذي يبذله الكلب في مطاردة الأرنب البري. والنقص الأساسي في النظام الرأسمالي الحالي هو أن العمل الذي يقوم به الإنسان للحصول على أجره نادرا ما يهيئ متنفسا للنزعة الإنشائية، إذ الإنسان الذي يعمل للحصول على الأجر ليس مخيرا في العمل الذي يقوم به: وهذا لأن كل العنصر الإنشائي في العملية يتركز في صاحب العمل الذي يستطيع أن يأمر بما يرى عمله. ولهذا السبب يصبح العمل قاصرا على كونه وسيلة خارجية لغاية معينة، هي الحصول على الأجر. وتثير القواعد التي تضعها النقابات للحد من الإنتاج ثائرة أصحاب العمل، على أنهم لا حق لهم في أن يثوروا، ما داموا لا يسمحون لعمالهم أن يكون لهم نصيب في الغرض الذي يتم العمل من أجله. وهكذا يصبح الإنتاج، الذي ينبغي أن يكون دورة غريزية موحدة منقسما إلى عدة أغراض متفرقة عاجزة عن إرضاء غريزة من يقومون بالعمل.

والسبب في هذه النتيجة هو نظامنا الصناعي، وأخذ الدولة بالنظام الاشتراكي لن يؤدي إلى تجنبها. ففي المجتمع الاشتراكي تكون الدولة هي صاحبة العمل، ولا يكاد يكون للعامل كفرد من مشيئته في عمله أكثر مما له الآن.

ولا يكون لراية إلا أثر غير مباشر يظهر في المناسبات السياسية، فهو أثر تافه وملتو ولا يشبه رغبة ذات قيمة، بل يحق لنا أن نخشى أن يزيد هذا الأثر في مقدار التدخل المشترك بدلا من زيادة التوجيه الذاتي.

والظاهر أن ما تطلبه الاشتراكية الماركسية من إلغاء المؤسسات الرأسمالية الخاصة إلغاء تاما، لا يكاد يكون له ضرورة. ومعظم الذين يصنعون أنظمة شاملة للإصلاح لا يعلقون أهمية على ما يجب أن يستثنى حين تطبيق هذه

النظم، وزهد الناس في النظم الجامدة، مثلهم في ذلك مثل أولئك الذين يدافعون عن الحالة القائمة. فإذا استطعنا أن نحد من نطاق الرأسمالية، وأن ننقذ غالبية الشعب من سيطرتها، فليس هناك ما يدعو إلى إلغائها إلغاء تاما، إذ أن ما فيها من عنصر المنافسة قد يقي بعض المؤسسات التي هي أكثر ديمقراطية من التردي في وهدة الكسل وجمود وسائلها الفنية. ولكن الأمر الذي له أهميته القصوى هو أن تكون الرأسمالية الاستثناء لا القاعدة، وأن يكون توجيه الغالبية العظمى من الصناعات في العالم على أسس أكثر ديمقراطية. وكثير مما يقال ضد الروح الحربية في الدولة يمكن أن يقال عن الرأسمالية في المجال الاقتصادي. أن المنظمات الاقتصادية إذ تهدف إلى التقدم، تزداد ضخامة باستمرار، وليس ثمة احتمال في أن ينعكس الأمر، إذ أن نمو هذه المنظمات يرجع إلى أسباب فنية، وينبغي أن نتقبل المنظمات الكبرى كجزء أساسي من المجتمع المتحضر، ولكن ليس ثمة ما يدعو لأن تكون إدارتها مركزة ودكتاتورية. والنظام الاقتصادي الحالي إذ يسلب معظم الناس قدوتهم في الابتكار، سبب من الأسباب التي تؤدي إلى الحيوية وجعلهم يبحثون دائما عن المثيرات، حتى أدى بهم الأمر إلى أن أصبحوا يرحبون حتى باندلاع الحرب كوسيلة للتخفيف من جفاف حياتهم اليومية الرتيبة.

فإذا أردنا أن نحافظ على حيوية الشعب، وأن نحتفظ بالقدرة على ابتكار الأفكار الجديدة، وإذا أردنا ألا نغرق في حالة من الجمود الصيني المأثور، فيجب أن نطيح بالنظم الدكتاتورية في الصناعة، وينبغي أن تكون إدارة المؤسسات الكبرى ديموقراطية واتحادية. أن نظام الأجور كله لا خير فيه، ليس فقط بسبب الظلم الاجتماعي الذي نشأ عنه، ولازمه، بل لأنه أيضا يفرق بين من يقوم بالعمل والغرض المقصود من العمل، أن الهدف الموجه للعمل يتركز في

يد الرأسمالي، أما هدف العامل فهو الحصول على الأجر. وهدف الرأسمالي هو الحصول على أكبر قدر ممكن من العمل مقابل أقل قدر ممكن من الأجر، وهدف العامل هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأجر مقابل أقل قدر ممكن من العمل. والنظام الذي يتضمن مثل هذا التضارب الأساسي للمصالح لا يمكن أن يؤدي إلى سير العمل في هدوء أو بنجاح، أو أن ينشأ عنه مجتمع يفخر بكفايته.

وفي العالم الآن حركتان، قطعت إحداهما شوطا كبيرا، أما الأخرى ففي مهدها، وهما تستطيعان فيما بينهما أن تقودانا إلى معظم ما نرغب فيه. أما هاتان الحركتان فهما الحركة التعاونية والحركة النقابية.

وتستطيع الحركة التعاونية أن تحل محل نظام الأجور على نطاق واسع ولكننا لا نستطيع أن نتبين كيف يمكن تطبيقها على المرافق التي من قبيل السكة الحديدية. ففي مثل هذه الحالات يمكننا تطبيق المبادئ النقابية بسهولة.

وإذا أردنا ألا يكون التنظيم سببا في القضاء على الفردية ينبغي ألا يكون الانتماء إلى المنظمات اختياريا لا جبر فيه، على أن يكون دائما للعضو نصيب في الإدارة. وليس هذا هو الحال في المنظمات الاقتصادية التي لا تتيح الفرصة للشعور بالكرامة والسرور الذي يجده الناس في العمل غير الممل الذي يختارونه بأنفسهم. ويجب أن نعترف بأن ثمة قدرا كبيرا من العمل الآلي الضروري للصناعة لا يمكن جعله عملا محببا إلى نفوس العمال. ولكن هذا القدر يكون أقل إرهاقا لو كان لأولئك الذين يقومون به صوت في إدارة الصناعة التي يعملون فيها.

وفي وسعنا أن نهيئ لمن يريدون أن يتوفر لهم قدر من الفراغ يتعلمون فيه مهنة أخرى فرصة القيام بعمل ما لساعات قليلة كل يوم مقابل أجر قليل، وسيكون هذا بمثابة متنفس لكل أولئك الذين يرغبون في مزاولة لون من ألوان

النشاط الذي لا يبتغون من ورائه منفعة مباشرة لأنفسهم. وعلينا بعد أن نبذل كل ما في وسعنا لجعل العمل شائقا، أن نجعل ما يتبقى منه بعد ذلك شيئا محتملا بإدخال نظام المكافآت على ساعات العمل الإضافي كما هو الحال في جميع الأعمال تقريبا في الوقت الحاضر. ولكننا إذا أردنا أن تكون هذه المكافآت مرضية فمن الضروري ألا يستغرق العمل الإجباري كل طاقة الإنسان، وينبغي أن تتاح الفرص للعامل لكي يقوم بنشاط مستمر إلى حد ما في الساعات الباقية. أن مثل هذا النظام قد يكون وضعا مثاليا بالنسبة للفنانين والأدباء وغيرهم ممن ينتجون لمزاجهم الشخصي أعمالا لا يقدرها الجمهور تقديرا سريعا بحيث تدر عليهم ما يعيشون به. وفضلا عما ذكر من هذه الحالات التي ربما بلغت حد الندرة فإن هذا النظام يوفر للشباب الذي يحذوه الطموح العلمي فرصة للاستمرار في دراستهم بعد تركهم المدرسة، أو لإعداد أنفسهم لمن تحتاج إلى مرانة طويلة بصفة خاصة.

وضرر النظام الحالي سببه الفصل بين المصالح المختلفة للمستهلك والمنتج وصاحب رأس المال. فليس من بين هؤلاء من له نفس المصالح التي للمجتمع أو التي للاثنين الآخرين. أن النظام التعاوني يوفق بين مصالح المستهلك ومصالح صاحب رأس المال، ويوفق النظام النقابي بين مصالح المنتج ومصالح صاحب رأس المال. ولكن ليس بين النظامين ما يوفق بين المصالح الثلاث أو يجعل مصالح الذين يوجهون الصناعة هي بذاتها مصالح المجتمع، ولذلك فلن يستطيع أي النظامين أن يحول دون حدوث الاصطدام في ميدان الصناعة، أو يحول دون تدخل الدولة للفصل في المشكلات، ولكن أياً منهما هو خير من النظام الحالي، وربما استطاع مزيج منهما أن يعالج معظم أضرار التصنيع الموجودة حاليا، وأنه لمما يدعو إلى التعجب أن الناس قد ناضلوا لتحقيق الديمقراطية السياسية بينما

هم لم يفعلوا شيئا يستحق الذكر لتحقيق الديمقراطية في الصناعة. وأنا أعتقد أننا قد نجني فوائد لا حصر لها من إقامة الديمقراطية الصناعية إما على نمط النظام التعاوني، أو باعتبار الصناعة أو المهنة وحدة فيما يتعلق بطريقة تنظيمها وتوجيهها، تتمتع بنوع من الحكم الذاتي، شبيه بما يهدف النظام النقابي إلى تحقيقه. فليس هناك أسباب تدعو لأن تكون كل الوحدات الحكومية قائمة على أساس جغرافي، فإن هذا الوضع كان ضروريا في الماضي بسبب بطء وسائل المواصلات، ولكنه ليس ضروريا الآن، ونظام مثل الذي نقترحه قد يعيد للناس الشعور بالاعتزاز بعملهم، ويتيح لهم مرة أخرى متنفسا لنزعاتهم الإنشائية، ذلك المتنفس الذي حرم منه الجميع، إلا قلة من حسنى الحظ. ومثل هذا النظام يتطلب إلغاء ملكية الأرض، و وضع القيود على رأس المال، ولكن لا يحتم المساواة في الدخول المكسوبة. وهو بهذا يختلف عن النظام الاشتراكي في أنه ليس نظاما جامدا أو غير قابل للتعديل، فهو لا يكاد يكون أكثر من إطار للطاقة وملكة الابتكار. وأني أعتقد أن نظاما مثل هذا هو السبيل الوحيد للتوفيق بين نمو الفرد والمنظمات الفنية الهائلة التي جعلها التصنيع أمرا لا محيص عنه.

الفصل الخامس

التربية

لا تستقيم نظرية سياسية ما لم يشمل مجال تطبيقها الأطفال كما يشمل الرجال والنساء. ومعظم واضعي النظريات لا أطفال لهم، وحتى إذا كانوا آباء فإنهم يحاطون بسياج يقيهم الانزعاج الناشئ عن شغب الصغار. وقد وضع بعضهم كتبا عن التربية، ولكنهم بصفة عامة يكتبون وليس في مخيلتهم شيء عن أطفال بذاتهم. أما أصحاب النظريات التربوية الذين لديهم خبرة بالأطفال، مثل مبتكري نظام رياض الأطفال وطريقة منتسوري[1] في التربية، فلا يتوفر لديهم دائما الإدراك الكافي لهدف التربية الأصيل بدرجة تمكنهم من مزاولة التعليم التقدمي بنجاح. وليس لدي شخصيا خبرة بالأطفال وبالتربية تؤهلني لتصحيح ما قد يكون في كتابات الغير من أخطاء. إلا أن بعض المسائل المتعلقة بالتربية باعتبارها نظاما سياسيا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار في معرض إعادة بناء المجتمع، وهي مسائل لا يعني بها عادة من يكتبون عن النظريات التربوية.

وهذه المسائل هي التي أريد مناقشتها الآن.

إن أثر التربية في تكوين شخصية المرء ورأيه كبير جدا ومعترف به بوجه عام إلى حد بعيد. فإن غالبية الأطفال عادة يلتقطون بطريقة تكاد تكون لا شعورية ما يعتقده الآباء والمدرسون في قرارة أنفسهم، لا ما يلقونه عليهم من دروس، وتبقى دائما أبدا في نفس الطفل بعض آثار هذه المعتقدات على استعداد

---

(1) أن طريقة مدام منتسوري في تربية صغار الأطفال فيما يبدو لي طريقة حكيمة.

للظهور في الأزمات والشدائد، حتى لو كان قد أنحرف عنها إلى غيرها بعد طفولته. والتعليم بصفة عامة أكبر القوى التي تعمل لإبقاء الحالة القائمة على ما هي عليه ضد أي تغيير أساسي. وتستحوذ النظم المهددة، وهي ما تزال قوية، على وسائل التعليم، وتغرس في عقول الصغار التي تتأثر بسهولة، احترام تفوقها، ويرد على ذلك المصلحون بمحاولة تنحية خصومهم عن مركزهم الممتاز، أما الطفل نفسه فلا اعتبار له عند أي من الطرفين، إذ يعتبر أداة يحاول كل منهما أن يستغلها لصالحه، فلو أي للأطفال اعتبارا لذاتهم لكان هدف التعليم إعدادهم لأن يختاروا عن تبصر ما يفضلون من أنظمة، لا أن يحاول ضمهم إلى هذا الجانب أو ذاك، والعمل على تنمية ملكة التفكير عندهم، لا على جعلهم يفكرون على غرار مدرسيهم، ولو احترمت حقوق الأطفال لمان كان للتربية وجود كسلاح سياسي، إذ لو كنا حقا نحترم حقوق الأطفال لوجب علينا أن نمنحهم تعليما يزودهم بالمعرفة والعادات العقلية اللازمة لتكوين رأي مستقل. ولكن التعليم. كسلاح سياسي يعمل على تكوين عادات وتحديد أنواع من المعرفة بطريقة تجعل طائفة من الآراء أمرا لا محيد عنه.

إن مبدأي العدالة والحرية اللذين يشملان القدر الأكبر من الإصلاح الاجتماعي المطلوب لا يكفيان وحدهما فيما يتصل بشئون التربية. إذ أن العدالة، بمعناها الحرفي من حيث أنها مساواة في الحقوق، ليست ممكنة تماما، كما يبدو بوضوح، فيما يتعلق بالأطفال. أما الحرية فهي أولا سلبية في أساسها، إذ تحرم كل تعرض يمكن تجنبه لحريات الآخرين، دون أن تقدم أي مبدأ إيجابي للبناء. ولكن التربية في جوهرها عملية بناء، وهي تتطلب تصورا إيجابيا لمقومات الحياة الطيبة. وعلى الرغم من أنه مسلم به أن الحرية تكون موضع الاحترام إلى الحد الذي لا يتعارض ومقتضيات التعليم، وعلى الرغم من أنه يمكن أن نسمح

بقدر من الحرية أكبر بكثير مما يمنح عادة دون أي ضرر يلحق بالتعليم، فإنه من الواضح أننا لا نستطيع أن نتجنب تقييد الحرية بعض الشيء إذا كنا نريد أن يتعلم الأطفال شيئا، باستثناء الأطفال ذوي الذكاء الخارق الذين يوضعون بمعزل عن زملائهم ذوي الذكاء العادي.

وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل المسئولية التي تقع على عاتق المدرسين مسئولية ضخمة، إذ أن الأطفال لابد أن يكونوا –إلى حد قد يزيد أو ينقص– تحت رحمة من هم أكبر منهم، وهم غير قادرين على أن يكونوا قوامين على مصالحهم. ولذا كانت السلطة عنصرا لا يمكن تجنبه تماما في التربية، وعلى المربين أن يجدوا الطريقة التي تسمح باستعمال السلطة بحيث تتفق وروح الحرية.

وحيثما لا يمكن تجنب استعمال السلطة، تصبح الحاجة ماسة للاحترام فيجب على الرجل الذي يريد أن يعلم كأحسن ما يكون التعليم، وأن ينشئ الصغار تنشئة تصل بهم إلى أقصى مستواهم، أن تتشبع نفسه تماما بروح الاحترام. واحترام الآخرين هو العنصر الذي يفتقر إليه أولئك الذين يبشرون بالنظم الآلية الجامدة، كالنظم الحربية والرأسمالية والمنظمات الفابية[1] وجميع السجون الأخرى التي يرغب المصلحون والرجعيون أن يقيدوا داخلها الروح البشرية. والتربية، بقواعدها ونظمها الصادرة من إدارة حكومية، بفصولها الكبيرة وبرامجها المحددة ومدرسيها المرهقين، وبتصميمها على تخريج طائفة من الأشخاص العاديين السطحيين، ينقصها احترام الطفل بشكل يكاد يكون عاما في جميع أنحاء العالم.

ويتطلب الاحترام خيالا واسعا وحماسة مشبوبة، وهو يتطلب أكثر ما

(1) **Fabian** نسبة إلى الجمعية الفابية الانجليزية وهي جماعة اشتراكية مهذبة تضم معظم الاشتراكيين الانجليز المعاصرين.

يتطلب سعة الخيال فيمن لا حول لهم ولا مقدرة. فالطفل ضعيف، وتبدو عليه حماقة ظاهرية، بينما المدرس قوي، ويبدو لنا أكبر من الطفل عقلا. لذا كان سهلا على المدرس والموظف الحكومي أن يحتقرا ضعف الطفل الظاهري إذا لم يكن الاحترام متوفرا لديهما أصلا. فيعتقد كل منهما أن واجبه أن "يصوغ" الطفل، فهو يتخيل أن الطفل صلصال، وأنه الخزاف، وهكذا يشكل الطفل في قالب مشوه غير طبيعي يصبح مع الوقت صلبا غير قابل للتغير، وينشأ عنه توتر وقلق روحي ينتج عنهما قسوة وحسد، واعتقاد بأن الآخرين يجب أن يشوهوا بالطريقة نفسها.

إن الرجل الذي يتوفر لديه الاحترام لا يعتقد أن واجبه أن "يصوغ" الأطفال، أنه يحس بوجود شيء قدسي في كل حي، وخاصة في الأحياء من البشر، وفوق كل شيء في الأطفال، شيء علوي لا يعرف له كنها ولا حدودا، شيء فردي فريد في قيمته هو جوهر الحياة النامي، قطعة مجسمة من كفاح الدنيا الأبكم. أن هذا الرجل يحس خضوعا ومذلة في حضرة الطفل لا يعرف لهما سببا، خضوعا لا يسهل على العقل تفسيره، ولكنه أقرب إلى الحكمة من تلك الثقة بالنفس التي يبديها الكثيرون من الآباء والمدرسين، فيحس بمسئولية الأمانة التي في عنقه إزاء الضعف الظاهري الذي يبدو على الطفل وحاجته الواضحة إلى من يرعاه، ويصور له خياله حقيقة ما يمكن أن يصبح عليه هذا الطفل، للخير أو للشر، وكيف يستطيع أن ينمي نزعاته أو يقف في سبيلها، وكيف يحطم آماله ويطفئ فيه جذوة الحياة، وكيف يشوه هذه الأمانة التي في عنقه فتحل فيها الرغبات الجامحة مكان العزم والروية. فيجعله كل هذا تواقا إلى أن يمد يد المساعدة إلى الطفل ويعانه على النجاح في معركته، ويزوده بأسلحة تشد من أزره في كفاحه لبلوغ الغايات التي تنشدها روحه في دياجير الحياة، لا

أن يعمل على إعداده لتحقيق أهداف تفرضها الدولة أو أي سلطة أخرى غريبة عن الطفل نفسه. أن الرجل الذي يملأ نفسه مثل هذا الاحترام هو الذي يستطيع أن يستعمل سلطة المربي دون أن يجور على مبدأ الحرية.

إن إشراف الدولة والكنيسة والمؤسسات الكبرى التابعة لهما على التعليم أمر لا يتفق وروح الاحترام. أن أوضاع التربية الحالية لا يهمها الولد أو البنت في ذاتهما، أو الشاب أو الفتاة، ولكنها تعمل بصفة تكاد تكون دائمة على صيانة الأوضاع القائمة. وهي عندما تدخل في اعتبارها الطفل نفسه فإنما تعمل فقط على إعداده للنجاح الدنيوي– لجمع المال أو نيل المنصب الصالح، وتجعل مثله الأعلى أن يصبح شخصا عاديا خبيرا بطرق النجاح المادي، ما عدا قلة نادرة من المعلمين الذين توفر لديهم من قوة الإيمان ما يدفعهم إلى التغلب على قيود النظم الموضوعة المطلوب منهم إتباعها. ويكاد الدافع إلى التربية كله يكون سياسيا، فهو يهدف إلى دعم جماعة ما، سياسية أو دينية أو حتى اجتماعية في ميدان منافستها جماعات أخرى. وهذا الدافع هو العنصر الأساسي في تحديد المواد التي تدرس والمعلومات التي تعطى للتلاميذ أو التي تمنع عنهم، وهو أيضاً الذي يحدد العادات العقلية التي ينتظر منهم اكتسابها. ولا تكاد النظم التعليمية تتضمن شيئا يزيد نمو العقل والروح في ذاتهما نموا حقيقيا، فنرى أن من ظفروا بالقدر الأكبر من التعليم قد ضمرت الناحية العقلية والروحية في حياتهم فخبت نزعاتهم وباتوا ولا شيء لديهم سوى بعض استعدادات آلية حلت لديهم محل التفكير الحي.

إن بعض الأهداف التي تحققها التربية الآن يجب أن يترك للتربية تحقيقها في أي بلد متمدن. فكل الأطفال يجب أن يستمروا في تعلم القراءة والكتابة، وبعضهم يجب أن يستمروا في تحصيل المعرفة الضرورية لبعض المهن مثل الطب

والقانون والهندسة. كما أن التعليم العالي في العلوم والآداب يجب أن يعطى لمن يليقون له. أما المواد الأخرى، عدا التاريخ والدين وما يشابههما، فإنها لا تحدث ضررا إيجابيا، وإن كانت طرق تدريسها غير وافية بالغرض. ويمكن أن يكون التعليم فيها على أسس تقدمية أكثر في جوهرها مع بذل محاولة أكبر لإيضاح فوائدها الأساسية، كما أنه لا شك في أن الكثير منها قديم ميت. ولكنها على وجه العموم ضرورية ولابد أن يشملها أي نظام تربوي.

أما التاريخ والدين والمواد الأخرى القابلة لإثارة الجدل فإن طريقة تدريسها الحالية لا شك تحدث ضررا إيجابيا بليغا. فهي متصلة بالمصالح التي تحتفظ بالمدارس من أجلها، وهذه المصالح تستخدم المدرسة لنشر وجهات نظر معينة في هذه المواد. فالتاريخ في كل دولة يدرس بحيث يمجد هذه الدولة، فيتعلم الأطفال أن بلدهم كان دائما على حق، ويكاد يكون دائما منتصرا، وأن معظم أعلام الرجال من أبنائه، وأنه أفضل من كل الدول الأخرى من جميع الوجوه. ولما كانت هذه المعتقدات تبعث على الزهو فلذلك يسهل التشبع بها، ويعز على المعرفة التي تجيء بعد ذلك انتزاعها من الغريزة.

ولنأخذ مثلا بسيطا يكاد يكون تافها: أن وقائع معركة ووترلو معروفة بتفصيل ودقة كاملين، ولكن هذه الوقائع كما تدرس في المدارس الابتدائية تختلف في انجلترا عنها في فرنسا أو ألمانيا اختلافا كبيرا. فالطفل الانجليزي العادي يتصور أن الدور الذي لعبه البروسيون في هذه الموقعة تافه يكاد لا يذكر، ويتصور الطفل الألماني أن ولنجتون كان قد هزم فعلا لولا شجاعة بلوخر التي كسبت المعركة. ولو أن هذه الوقائع درست بدقة في البلدين، لما بلغت الكبرياء الوطنية نفس الحد، ولما أصبح كل من الشعبين واثقا من النصر في حالة الحرب، ولتضاءلت الرغبة في القتال. ولكن هذه النتيجة هي التي تعمل الدولة

على تجنبها. وكل دولة تسعى إلى بث روح الكبرياء الوطنية، وتعلم أنها لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا إذا حرفت التاريخ. وهكذا يتعلم الأطفال الذين لا حول لهم عن طريق التحريف وتشويه الوقائع والإيحاء.

وهذه الآراء الزائفة فيما يتعلق بتاريخ العالم، والتي تدرس في مختلف الدول، هي من نوع يهدف إلى الحث على النزاع وإشعال جذوة الوطنية المتعصبة. فإذا أريد تدعيم العلاقات الطيبة بين الدول، فإن إحدى الخطوات الأولى التي يجب أن تتخذ هي وضع جميع أنواع تعليم التاريخ تحت إشراف لجنة دولية تضع كتبا مدرسية محايدة خالية من التحيز الذي تمليه الوطنية، الذي تعمل كل دول العالم[1] على استثارته في الوقت الحاضر.

وهذا نفسه ينطبق على الدين تمام الانطباق. فالمدارس الابتدائية تكاد تكون دائما تحت سيطرة جماعة دينية أو تحت سيطرة الدولة التي لها اتجاه معين فيما يتعلق بالدين. وتقوم الجماعات الدينية على اشتراك جميع أعضائها في الإيمان بمعتقدات معينة محددة في مسائل لا يمكن التثبت من صحتها. والمدارس التي تشرف عليها جماعات دينية تمنع الناشئين، وهم غالبا ما يكونون متطلعين بطبيعتهم، من اكتشاف أن هذه المعتقدات المحددة تعارضها معتقدات أخرى

---

(1) قد انحدرنا أخيرا إلى ما هو أسوأ من تشويه عقول الأطفال. فهناك اتجاه إلى تهيئة الأطفال بحيث يصبحون أداة طيعة بريئة لنش الحقد والقسوة اللذين يغرسان في نفوس الأطفال عن طريق العطف الأبوي. أما كيف يتم ذلك فيرجع إلى مجلة "عالم المدرس" العدد الصادر في ٥ سبتمبر سنة ١٩١٧. ففي يوم معين يطلب إلى كل فتى وفتاة في المدارس أن يكتب أو تكتب خطابا إلى صديق في جبهة القتال "ويجب أن تعطى الخطابات قارئيها تحية حارة مكينة. وألا تقتصر على قول "كيف حالك" بل "أنكم تنتصرون"، "نحن فخورون بكم". وسنعاونكم في بلوغ النصر النهائي. والجميع يؤدون واجبهم، هكذا" ويجب أن تكون الخطابات طبيعية قبل كل شيء.. فيكتب كبار الأطفال خطاباتهم كلها بأنفسهم، وتقدم يد المساعدة في أضيق حدود ممكنة إلى الأطفال الأصغر سنا، أما الصغار جدا فيمكن أن يقتصروا على إرسال عبارة مشجعة أو عبارتين تنقلان مما يكتبه المدرس على السبورة.

ليست أكثر منها صعوبة في الإثبات، وأن كثيرا من الرجال الذين تؤهلهم كفاياتهم للحكم في هذا الشأن يعتقدون أنه لا يقوم دليل قاطع على أفضلية أي معتقد بعينه. وعندما تكون الدولة لا دينية متطرفة، كما هو الحال في فرنسا، فإن المدارس التابعة للدولة تصبح شديدة التعصب، كالمدارس التي تسيطر عليها الكنائس (وقد بلغني أن كلمة "الله" محرم استعمالها في المدارس الابتدائية الفرنسية). والنتيجة في كل هذه الحالات واحدة: أن يقمع البحث الحر، ويجد الطفل نفسه إزاء عقيدة جامدة أو صمت كصمت القبور إزاء أهم مسألة في الوجود.

ولا يقتصر حدوث هذه المآسي على التعليم الابتدائي وحده، فإن نفس الشيء يحدث في المراحل التالية بصورة أدق، ويبذل مجهود أكبر لإخفائها، ولكنها بالرغم من ذلك لا تزال موجودة. فنجد أن أكسفورد وأيتون مثلا تطبعان خريجيهما بطابع معين، كما تفعل مدارس الجزويت تماما. وقد يصعب القول بأن أكسفورد وأيتون تقصدان هذه النتيجة قصدا، ولكن لا يقلل من قوة الأثر الذي يحدث وخطره أن القصد فيه غير صريح، فالغالبية الساحقة من خريجيهما يعبدون ما يسمونه "القالب الفاضل"، وأثره المدمر في حياة الشخص وفكره لا يقل عما كانت تتركه كنيسة العصور الوسطى من أثر. فإن "القالب الفاضل" لا يخرج في معناه عن أنه حرية زائفة في الفكر، واستعداد ظاهري لسماع وجهات النظر المختلفة، واصطناع نوع خاص من التأدب في معاملة الخصوم. ولكنه لا ينطبق على معنى حرية الفكر الحقيقية أو الاستعداد الأصيل لأن نزن، متجردين، حجج الطرف الآخر. فهو في جوهره افتراض بأن ما يهم في الموضوع هو نوع معين من السلوك يقلل الاحتكاك بين من هم في مستوى واحد، ويوهم في رقة من هم أدنى مستوى أنهم غلاظ غير مهذبين. وهذه

الطريقة لا تباري كسلاح سياسي يرمي إلى الاحتفاظ بامتيازات الأغنياء في ظل ديمقراطية شديدة الاعتبار لمظاهر الثروة والجاه، كما أنها وسيلة لا بأس بها لخلق وسط اجتماعي مناسب يرتع فيه من لديهم المال وليس لديهم إيمان قوي أو رغبات غير عادية. ولكن فيما عدا ذلك فهي طريقة كريهة ممقوتة.

إن مساوئ "القالب الفاضل" لها مصدران: ثقة صاحبه الكاملة بأنه دائما على حق، والاعتقاد بأن السلوك المهذب مرغوب فيه أكثر من الرغبة في التفكير أو الفن الخالق، أو القوة الحيوية الدافعة، أو غير ذلك من أسباب التقدم في الدنيا. والثقة الكاملة وحدها تكفي لمحو كل تقدم عقلي فيمن تتوفر لديهم هذه الصفة التي تصبح مصدرا لتدمير كل من يتصل بها إذا صاحبها احتقار التردد والارتباك اللذين غالبا ما يلازمان القوة العقلية الضخمة. و"القالب الفاضل" نفسه ميت غير قابل للنمو، وهو بموقفه تجاه غير الحاصلين عليه ينشر ما فيه من موت فيمن كان نصيبهم الحياة لولا هذا الموقف.

إن الضرر الذي يحدثه في الطبقة الميسورة من الانجليز، وفي الرجال من ذوي الكفايات الذين ترعاهم هذه الطبقة، ضرر بليغ، لا يمكن تقديره.

ولا يمكن أن تكون حرية البحث مكفولة ما دام الهدف من التعليم هو خلق أجيال من "المؤمنين" لا من المفكرين، وإرغام الصغار على اعتناق آراء محددة في مسائل يحوطها الشك، بدلا من مساعدتهم على رؤية الشك وتشجيعهم على التفكير الحر. أن التعليم يجب أن يغذي الرغبة في الوصول إلى الحقيقة، لا الإيمان بأن عقيدة معينة هي الحقيقة. ولكن العقائد هي التي تلم شعث الرجال وتكون منهم منظمات مقاتلة كالكنيسة والدولة والأحزاب السياسية، وشدة الإيمان بالعقيدة هي التي تؤدي إلى التفوق في القتال، إذا يحالف النصر أولئك الذين لا يخالجهم الشك مطلقا في المسائل التي لا يقود

التفكير العقلي السليم فيها إلا إلى الشك. فلكي تصل هذه المنظمات إلى هذه الشدة في الإيمان وذلك التفوق في القتال فإنها تقيم سياجا حول الطفل وتشل حرية تفكيره بأن تغرس في نفسه عقبات تقف في سبيل نمو الآراء الجديدة. وتكون النتيجة أن متوسطي الذكاء ينشأون وهم يقدسون تلك المعتقدات المبتسرة المتحيزة ولا يرضون عنها بديلا، أما القلائل الذين يصعب قتل ملكة التفكير لديهم تماما، فيصبحون ساخرين مستهزئين بكل شيء، يائسين فكريا، نزاعين إلى الانتقاد الهدام، قادرين على جعل كل شيء يبدو سخيفا، عاجزين عن أن يقدموا نزعات خالقة بدلا من تلك النزعات التي يقضون عليها في الآخرين.

إن النصر في القتال الذي يجيء عن طريق كبت حرية التفكير لهو نصر قصير تافه جدا. فإن سلامة العقل لازمة للنجاح على مدى الأيام كما هي لازمة للحياة الفاضلة. وتصور التربية على أنها نوع من التدريب ووسيلة لتخريج أشخاص اتحدت آراؤهم عن طريق الاستعباد، تصور عادي شائع جدا، ويدافع عنه أنصاره بحجه أنه يقود إلى النصر. وسيذكر المغرمون بضرب الأمثال من التاريخ القديم انتصار اسبرطة على أثينا ليدعموا به رأيهم. ولكن أثينا هي التي ملكت على الرجال ألبابهم وأخيلتهم لا اسبرطة، ولو سئل أي منا إذا كان ممكنا أن نولد مرة أخرى في عصر قديم لفضل أن يولد أثينيا لا اسبرطيا. وتتطلب الحياة العملية في العالم الحديث قدرا كبيرا من الفكر، حتى أن هذا النصر الظاهري نفسه غالبا ما يكون من نصيب الذكاء لا سهولة الانقياد. أن التعليم الذي أساسه وجوب تصديق كل ما يدرس سرعان ما يقود المرء في خطوات سريعة إلى فساد القوى الذهنية، ولا يمكن المحافظة على الحد الأدنى الضروري من التقدم البشري إلا بالإبقاء على روح البحث الحر.

إن المشتغلين بالتدريس يعملون عادة على غرس عادات ذهنية معينة كالطاعة والنظام، والسعي بلا رحمة أو وازع في سبيل النجاح الدنيوي، وازدراء الخصوم، وتصديق ما يلقيه المدرس تصديقا أعمى، والتسليم السلبي لحكمته. بل هذه العادات ضد الحياة. وواجبنا هو أن نحافظ على استقلال الطفل ونزعاته بدلا من أن نلزمه الطاعة والنظام، وواجب المعلمين أن ينأوا عن القسوة، وأن ينموا في الطفل بدلا منها استقامة في التفكير، وأن يغرسوا في نفسه احترام وجهة النظر الأخرى، ومحاولة تفهمها بدلا من ازدرائها. أما تجاه آراء الآخرين فيجب أن يكون هدف التعليم هو تنمية عادة المعارضة المصحوبة بفهم تصوري ووعي كامل للأسس التي تقوم عليها المعارضة، لا التسليم بكل ما يقال، كما يجب أن يهدف إلى إثارة الشك الإنشائي وحب المخاطرة الذهنية والإحساس بوجود عوالم تنتظر من يكتشفها بالإقدام والجرأة في التفكير، بدلا من التصديق الأعمى. أن السببين المباشرين لكل ما تقدم من مساوئ هما الرضا عن الحالة القائمة، وإخضاع التلميذ للأغراض السياسية، وهما يرجعان بدورهما إلى عدم المبالاة بالإمكانيات العقلية. ولكن هناك سبب جوهري آخر وراء هذين السببين وهو أن التعليم يعتبر أداة للتحكم في التلميذ لا وسيلة لتغذية نموه الشخصي. وهنا بالذات يظهر عدم وجود "الاحترام"، وليس هناك من وسيلة لإحداث إصلاح أساسي إلا بالمزيد من "الاحترام".

والمفروض أن الطاعة والنظام أمران لابد منهما لحفظ النظام في الفصل حتى يمكن التدريس. وهذا صحيح إلى حد ما، ولكن هذا الحد أقل بكثير مما يظن الذين يعتقدون أن الطاعة والنظام مرغوبان لذاتهما. فالطاعة، وهي إخضاع إرادة الفرد للتوجيه الخارجي، تقابل السلطة، وكلاهما ضروري في بعض الحالات. فإن أطفال الإصلاحيات والمجانين والمجرمين قد يتحتم استعمال

السلطة معهم، وقد يكون من الضروري إرغامهم على الطاعة. ولكن حتى في هذه الحالات فإن الأمر مؤسف:

إذ يجب أن يكون هدف التربية هو حرية الاختيار بدون تدخل خارجي، وقد بين لنا المصلحون التربويون إلى أي حد يمكن تحقيق هذا الهدف بصورة ما كان آباؤنا ليصدقوها[1].

إن الفصول الكبيرة والمدرسين المرهقين، وهما من آثار الاقتصاد غير السليم، هما السبب الذي يجعل الطاعة تبدو ضرورية في المدارس، فأولئك الذين لم يجربوا التدريس لا يستطيعون تصور مدى ما يتطلبه أي تعليم حر من إرهاق. فهم يعتقدون أن المدرس يستطيع أن يعمل عددا من الساعات كأنه كاتب في مصرف، وتكون النتيجة أن يصاب المدرس بالإعياء الشديد والانفعال العصبي، ويصبح ولا حيلة لديه إلا أن يؤدي عمله اليومي بطريقة آلية. ولكن التدريس لا يمكن أن يكون عملا آليا إلا إذا فرضنا الطاعة على التلاميذ.

ولو أننا اهتممنا بالتربية اهتماما جديا، وآمنا بأن المحافظة على حيوية عقول الأطفال لها من الأهمية ما للانتصار في الحرب، لاتبعنا سبيلا آخر في التربية مختلفا تماما: ولجعلنا كل همنا منصبا على تحقيق هذا الهدف دون أن نعبأ بالنفقات، ولو بلغت أضعاف ما هي عليه الآن. أن القيام بقدر صغير من التدريس مهمة محببة لكثير من الرجال والنساء، ويمكن أن يقوموا به بحماسة وبطريقة مستساغة تجلب انتباه التلاميذ دون حاجة إلى فرض النظام. والقلائل منهم ممن لا يبدون اهتماما يمكن فصلهم عن الباقين، ثم تتبع معهم طرق أخرى

---

(1) إن ما فعلته مدام منتسوري للإقلال من فرض الطاعة والنظام في الفصل وما نتج عن ذلك من فائدة للتعليم يكاد يكون من المعجزات.

في التدريس. وينبغي ألا تزيد ساعات التدريس عما يستطيع المدرس أن يقوم به كل يوم، بحيث يجد في عمله لذة حقيقية، وبحيث لا يغيب عن باله حاجات التلميذ العقلية. وتكون نتيجة هذا أن تنشأ بين المدرس والتلميذ علاقة طيبة بدلا من روح العداء، ويدرك معظم التلاميذ أن التعليم إنما جعل ليساعدهم على تنمية حياتهم، وليس تحكما يفرض عليهم ويقطع لعبهم ويجبرهم على الجلوس ساكتين ساعات طوالا. وكل ما يلزم للوصول إلى هذه النتيجة هو زيادة في الإنفاق، للحصول على مدرسين يتوفر لديهم وقت فراغ أوسع وميل طبيعي لمهنة التدريس.

فالنظام كما هو موجود حاليا في المدارس، شر إلى حد كبير. وهناك نوع من النظام لازم لإتمام أي عمل، وأرجح أن هذا النوع من النظام لا يقدره حق قدره أولئك الذين يقاومون النظام البحت الذي تمليه سلطة خارجية، وهو النظام الذي تسير عليه الطرق التقليدية.

أن النوع المرغوب في النظام هو ما ينبعث من الداخل والقائم على قدرة الشخص على السير قدما لتحقيق هدف متحملا في سبيل ذلك الحرمان وأنواع المشقة. وهذا يتضمن إخضاع النزعات القليلة الأهمية للإرادة، والقدرة على القيام بنشاط توجهه النزعات الإنشائية الكبرى حتى في اللحظات التي تكون فيها هذه النزعات غير كاملة النشاط. وبدون ذلك لا يتحقق مطمح كبير –سواء كان خيرا أو شرا– ولا تقوم قائمة لهدف موحد مستمر. أن هذا النوع من النظام ضروري جدا، ولكنه لا ينشأ إلا عن رغبات قوية في غايات لا تحقق في التو واللحظة، كما أنه لا ينتج إلا عن تربية تعمل على تغذية هذا النوع من الرغبات، ولكن التربية الحالية نادرا ما تؤدي إلى ذلك. أنه نظام ينبثق من إرادة الشخص نفسه، لا من سلطة خارجية. وهذا

النوع من النظام ليس هو ما تعمل المدارس حاليا على تحقيقه، كما أنه ليس هو النوع الذي يبدو لي شرا مستطيرا.

وعلى الرغم من أن التعليم الابتدائي يعمل على تشجيع النظام غير المرغوب فيه، والذي يتطلب الطاعة السلبية، وعلى الرغم من أنه لا يكاد يوجد في الوقت الحاضر أي نوع من التعليم يغذي التدريب الأخلاقي الذي يتضمن المثابرة على توجيه النفس، فإن في التعليم العالي التقليدي نوعا معينا من التدريب العقلي البحت. والنوع الذي أقصده هو الذي يمكن الشخص من تركيز فكره، كلما أراد، في موضوع تتاح له فرصة بحثه بغض النظر عن المشغوليات والسأم والمجهود الفكري الذي يتطلبه. وعلى الرغم من أن هذه الصفة ليست ذات قيمة هامة في ذاتها إلا أنها تزيد من كفاية العقل كأداة. وهي التي تجعل في قدرة المحامي أن يستوعب التفاصيل العلمية في قضية تدور حول مسألة علمية كحق اختراع مثلا، ثم لا يلبث أن ينسى هذه التفاصيل بمجرد صدور الحكم فيها. وهذه الصفة نفسها هي التي تجعل الموظف الحكومي قادرا على التصرف السريع في عدة مسائل إدارية مختلفة على التوالي. كما أنها تمكن الناس من تناسي مشاغلهم الخاصة في أوقات العمل. وهي ملكة جد لازمة لأولئك الذين يتطلب عملهم تركيزا فكريا في هذا العالم المعقد.

إن الميزة الأساسية للتعليم العالي التقليدي هي نجاحه في تكوين هذا النوع من التدريب العقلي. وأنا أشك في إمكان تحقيق ذلك بوسيلة أخرى غير تركيز الاهتمام، بالإقناع أو الإرغام، في مهمة تفرض فرضا. وهذا هو السبب الأول في أني لا أؤمن بأن طرق التربية –مثل طريقة مدام منتسوري– يفيد تطبيقها بعد سن الطفولة.

وطريقة مدام منتسوري تتلخص في أنها تعطي الأطفال الحرية في اختيار ما

يعلمونه من بين عدة أشياء مشوقة بالنسبة لمعظم الصغار، وكلها أشياء مفيدة من الناحية التعليمية. فيصبح انتباه الأطفال كله تلقائيا كما هو الحال في اللعب، فهم يستمتعون خلال اكتسابهم المعرفة بهذه الوسيلة، ولا يتعلمون إلا ما يرغبون فيه. وأنا مقتنع بأن هذه هي خير طرق التربية للأطفال الصغار، فالنتائج الواقعية تجعل من المستحيل علنيا أن نصدق شيئا آخر. ولكن يصعب أن نتصور كيف يمكن أن تؤدي هذه الطريقة إلى السيطرة على الانتباه بواسطة الإرادة. فهناك أشياء غير ممتعة يجب التفكير فيها، وحتى الممتع غالبا ما يصبح مصدر إرهاق وسأم قبل أن ينتهي التفكير الواجب فيه. ولذا كانت القدرة على تركيز الانتباه لفترة طويلة أمرا مهما، وهي قدرة لا يسهل اكتسابها أصلا على نطاق واسع إلا عن طريق الضغط الخارجي. وحقيقة يوجد بعض الصغار، ممن لديهم رغبات ذهنية قوية، على استعداد لأن يتحملوا كل ما هو ضروري في هذا السبيل بمحض إرادتهم وبدافع من أنفسهم، ولكن الأمر يتطلب بالنسبة لجميع الأطفال الآخرين مؤثراً خارجيا حتى يتعلموا أي مادة تعليما كاملا. ويحس المصلحون التربويون بنوع من الخوف حين يطلبون إلى الأطفال أن يبذلوا مجهودا كبيرا، ومن ناحية أخرى هناك رغبات كامنة في نفوس الناس قاطبة هي كراهية السأم. وفي كلا هذين الاتجاهين ناحية خير، ولكن لهما أيضاً أخطارهما. أن التدريب العقلي –المهدد– يمكن توفيره بمجرد إسداء النصح دون ضغط خارجي إذا استطعنا أن نثير في الطفل اهتماما ذهنيا وطموحا بقدر كاف. وينبغي أن يكون المدرس الصالح قادرا على إثارة هذه العوامل في الأطفال الأذكياء، أما الأطفال الآخرون فإن عددا كبيرا منهم غالبا ما تكون الطريقة الحالية في التعليم الذي يعتمد على الكبت ليست هي الطريقة المثلى بالنسبة لهم. وهكذا، طالما كانت أهمية التدريب العقلي موضع الاعتبار، فإنه يمكن تحقيقه غالباً –في الحالات التي يكون تحقيقه ممكنا– بالالتجاء إلى إدراك التلميذ

الواعي لحاجاته. وطالما كان غير منتظر من المدرسين أن ينجحوا بهذه الطريقة، فإنه سهل أن ينحدروا نحو البلادة والكسل ثم يلقون التبعة على تلاميذهم بينما الخطأ في الواقع خطأهم.

إن القسوة السائدة في الكفاح الاقتصادي سيتعلمها الأطفال في المدارس دون شك طالما بقي النظام الاقتصادي قائما دون تغير. وتبدو هذه الحالة بوضوح في مدارس الطبقة المتوسطة التي تعتمد على حسن ظن الآباء بها لتزيد من عدد تلاميذها، وهي تضمن حسن ظن الآباء عن طريق الإعلان عن نجاح تلاميذها. وهذه إحدى الحالات الكثيرة التي يظهر فيها ضرر فكرة التنافس التي يقوم عليها نظام الدولة. أن التلقائية المجردة في المعرفة ليست غريبة تماما على الصغار، ويمكن إثارتها عند الكثيرين ممن تظل هذه النزعة كامنة فيهم، لكن المدرسين يقضون عليها دون تأنيب من ضميرهم- فهم لا يفكرون إلا في الامتحانات والشهادات والدرجات. فليس أمام التلميذ الممتاز، منذ اللحظة التي يدخل فيها المدرسة حتى اللحظة التي يتخرج فيها من الجامعة، وقت يقضيه في التفكير أو الاستمتاع العقلي. فهو يقضي كل وقته من أول الأمر إلى آخره في كد وعناء بين الكتب المقررة يستعد للامتحانات. فينتهي الأمر بأكثر التلاميذ ذكاء إلى النفور من الدراسة، ويصبحون لا يتطلعون إلا إلى نسيان هذه الدراسة والخروج إلى حياة العمل، حيث لا تلبث الآلة الاقتصادية أن تفعل فيهم ما فعلته من قبل، فتنشب فيهم مخالبها وتكبت جميع رغباتهم التلقائية وتحطمها.

إن نظام الامتحانات واعتبار التعليم أولا وقبل كل شيء تدريبا للحصول على لقمة العيش، يؤديان بالصغار إلى النظر إلى المعرفة من الناحية النفعية الخالصة باعتبارها الطريق لجمع المال لا السبيل إلى الحكمة. ولو أن هذا الأثر

اقتصر على من ليس لهم اهتمامات فكرية صادقة لما كان للأمر هذه الأهمية الكبرى. ولكن أكثر من يتأثرون بوطأة ما تفرضه الامتحانات، هم لسوء الحظ، أقوى التلاميذ عناية بالمسائل الفكرية. فالتعليم يبدو بالنسبة لهم خصوصا، وبالنسبة للتلاميذ جميعا بقدر ما، وسيلة للحصول على التفوق على الآخرين، إذ أن التعليم متشبع تماما بالقسوة وتمجيد عدم المساواة.

وأي تفكير حر منزه عن الغرض يرينا أنه، حتى لو كان بعض أنواع عدم المساواة أمر مستساغا في يوتوبيا (المدينة الفاضلة الخيالية)، فإن عدم المساواة الموجود فعلا يكاد يكون كله مخالفا للعدالة. ولكن نظم التعليم عندنا تحاول إخفاء هذه الحقيقة عن الجميع باستثناء الفاشلين، طالما كان الناجحون في سبيلهم إلى الإفادة من عدم المساواة، مؤيدين بتشجيع الرجال الذين أشرفوا على تعليمهم.

إن القبول السلبي لحكمة المدرس أمر يسهل على معظم التلاميذ. فهو لا يتطلب مجهود التفكير المستقل، ويبدو معقولا لأن المدرس أكثر معرفة من تلاميذه، ثم هو بجانب ذلك وسيلة لاكتساب رضاء المدرس، اللهم إلا إذا كان المدرس من طراز فوق الطراز العادي. ومع ذلك فإن عادة القبول السلبي كارثة في الحياة بعد المدرسة. إذ تجعل الناس ينشدون زعيما، ويقبلون أي زعيم يوضع في هذا المركز. وهذه العادة نفسها هي السر في قوة الكنائس، والحكومات، والأحزاب، وجميع المؤسسات الأخرى التي تضلل الناس فتحملهم على تأييد النظم القديمة التي تضر الأمة وتضرهم. ومن الجائز أنه لن يكون هناك الكثير من التفكير المستقل حتى لو بذل التعليم كل شيء لتحقيق هذا الهدف، ولكن مما لا شك فيه أنه سيكون هناك قدر أكبر مما هو موجود حاليا. فلو أن الهدف كان حمل التلاميذ على التفكير بدلا من حملهم على قبول آراء معينة،

لاختلفت طريقة التعليم تماما: كان التدريس يصبح أبطأ وتزيد المناقشة، كما تزيد الفرص التي يشجع فيها التلاميذ على التعبير عن أنفسهم، وكان مجهود أكبر يبذل لجعل التعليم متفقا أكثر مع ميول التلاميذ.

وأهم من ذلك كله، كان التعليم يهدف إلى إثارة حب المخاطرة الذهنية في التلاميذ. أن العالم الذي نعيش فيه متنوع غريب: فبعض الأشياء التي تبدو بسيطة تصبح معقدة أكثر فأكثر كلما أمعنا فيها التفكير، وأشياء أخرى كنا نظن أن كشفها مستحيل، كشفت غوامضها بالمثابرة والعبقرية. أن القوى العقلية وما تسيطر عليه من آفاق شاسعة، والآفاق الأكثر اتساعا التي لا نكاد ندركها إلا لماما بخيالنا، تمنح أولئك الذين جنحوا بعقولهم عن دائرة الروتين اليومي مادة عجيبة في غناها، وتهيئ لهم مهربا من تفاهة الروتين العادي وما يسببه من ملالة، فتمتلئ حياتهم كلها بالمثيرات وتتحطم جدران السجن الذي يعيشون فيه بحكم العادة والعرف، أن حب المخاطرة هذا نفسه الذي يحمل الرجال على غزو القطب الجنوبي، وهذه الشهوة التي تدفع الرجال إلى تجربة قوتهم فيرحب بعضهم بالحرب، تستطيع أن تجد في التفكير الإنشائي متنفسا لا يؤدي إلى ضياع القوى أو إلى القسوة. ولكنه يرفع من قدر البشر، بأن يضفي على الحياة بعض ذلك السناء المضيء الذي تستخلصه الروح البشرية من المجهول. أن أسمى الغايات التي من أجلها تقدر تربية العقول، هي أن تمنح هذه المتعة –بدرجات متفاوتة– للقادرين عليها.

وسيقال أن متعة المخاطرة الذهنية نادرة، وأن الذين يقدرونها قلة، وأن التعليم العادي لا يستطيع أن يدخل في اعتباره مثل هذا الخير الارستقراطي. أما أنا فلا أصدق ذلك. إذ أن متعة المخاطرة العقلية أكثر شيوعا بين الصغار منها بين الكبار رجالا ونساء. فهي شائعة جدا بين الأطفال، وتنمو لديهم بصورة

طبيعية في فترة "اللعب التصوري"[1] وهي نادرة في المراحل المتأخرة من حياتهم إذ يبذل مجهود ضخم لقلتها خلال فترة التعليم. أن الناس يخشون التفكير أكثر مما يخشون أي شيء آخر في هذه الدنيا، أكثر من الخراب، بل أكثر من الموت. أن الفكر هدام ثوري، مخرب ورهيب، أنه لا يرحم الامتيازات ولا الأنظمة القائمة أو العادات المريحة، أن التفكير فوضوي خارج على القانون لا تهمه السلطة، وهو لا يعبأ بحكمة الأجيال التي صقلتها التجارب. أن الفكر لا يهاب جهنم الحمراء. أنه يرى الإنسان ذرة ضعيفة، يحوطها صمت عميق لا حد لعمقه، ولكنه على الرغم من ذلك شامخ الأنف فخور، لا يعبأ بهذا كله كأنما هو سيد هذا الكون. أن الفكر عظيم وسريع وحر، أنه نور يضيء الدنيا، وهو الدعامة الأولى في مجد الإنسان.

ولكن إذا كنا نريد أن يكون الفكر ملكا للكثرة، لا امتيازا للقلة، فينبغي علينا أن نقضي على الخوف. أن الخوف هو الذي يعوق تقدم الناس– الخوف من أن يثبت أن معتقداتهم الأثيرة ليست سوى سراب، الخوف من أن يثبت أنهم هم أنفسهم لا يستأهلون الاحترام الذي يعتقدونه حقا لهم، إذا فكر العامل بحرية في الملكية؟ فماذا يحدث لنا نحن الأغنياء؟ وإذا فكر الشبان والشابات بحرية في الجنس؟ فماذا تؤول إليه الأخلاق؟ وإذا فكر الجنود بحرية في الحرب؟ فماذا يكون أمر الحرب؟

فلنقض على الفكرة، ولنتفيأ ظل التحيز حتى لا تصبح الملكية والأخلاق والحرب في خطر. وخير لنا أن يكون الناس أغنياء وكسالى وظالمين من أن يكون تفكيرهم حرا. لأن تفكيرهم لو تحرر لما فكروا مثلنا. وهذه الطامة يجب أن نتجنبها أياً كان الثمن. هذا ما يردده أعداء الفكر في أعماق اللاشعور. وهذا

([1]) Make- believe.

ما يفعلونه في كنائسهم وفي مدارسهم وجامعاتهم.

ولا يستطيع النظام القائم على الخوف أن يدعم الحياة. أن الأمل، لا الخوف، هو أساس الإنشاء في الشئون الإنسانية. والأشياء التي بنت عظمة الإنسان قد انبثقت من محاولة الحصول على الخير، لا من الكفاح ضد ما ظن الناس أنه شر. والسبب في أن التربية الحديثة لا تحقق نتائج عظيمة إلا نادراً، هو أنها لا تستوحي آمالا عظاما إلا فيما ندر.

إن الرغبة السائدة لدى المشرفين على تعليم الصغار، هي المحافظة على تراث الماضي، لا الأمل في خلق المستقبل. أن التعليم لا ينبغي أن يستهدف معرفة لحقائق ميتة، ولكن نشاطا موجها نحو العالم الذي نبذل جهدنا لإنشائه. أنه يجب أن يستلهم وحيه من صورة وضاءة لمجتمع المستقبل ومن الانتصارات التي سيحققها الفكر في الغد، من أفق لا يني يتسع لسيطرة الإنسان على الكون، لا من أسف على ما كان لدى اليونان وفي عصر النهضة من جمال أنقضى وباد.

أو أولئك الذين تسود تعليمهم هذه الروح، سوف يمتلئون حياة وأملا وسعادة، ويحملون في يسر نصيبهم في جعل مستقبل الجنس البشري أقل ظلاما من ماضيه، وكلهم إيمان بالمجد الذي تستطيع جهود البشر أن تحققه.

الفصل السادس

الزواج ومشكلة السكان

لقد تضاءل أثر الديانة المسيحية في حياة الأوربيين تضاؤلاً سريعا في السنين المائة الأخيرة، فلم تنخفض نسبة الذين كانوا يؤمنون بها بالاسم فحسب، بل تضاءلت حدة الإيمان والتشبث بالعقيدة في قلوب المؤمنين أنفسهم إلى حد عظيم، إلا أن ثمة نظاما اجتماعيا لا تزال للتقاليد المسيحية آثارها العميقة فيه، وذاك هو نظام. الزواج. فالقانون، والرأي العام في موضوع الزواج تسيطر عليهما حتى في الوقت الحاضر، وإلى حد بعيد، تعالم الكنيسة التي لا يزال لها أثرها عن هذا الطريق في حياة الناس، رجالاً ونساء وأطفالا، بل في أخص شئونهم الشخصية.

والزواج بوصفه نظاما سياسيا هو ما أريد التحدث عنه، لا الزواج بوصفه موضوعا للأخلاق الخاصة لكل فرد من الأفراد. فالزواج ينظمه القانون، وهو معدود من الأمور التي للهيئة الاجتماعية الحق في التدخل فيها، وأنا لا يهمني إلا أن أتناول بالبحث ما يعمله المجتمع في موضوع الزواج، وبالأحرى إذا كان ما يعمله اليوم يرتقي بحياة الهيئة الاجتماعية، وإن لم يكن يرتقي بها فما هو نوع التغيير الذي يجب أن ندخله على ما يعملون؟

وثمة سؤالان يجب أن نسألهما ونحن نتحدث عن أي نظام من أنظمة الزواج: أولهما: كيف يؤثر الزواج على تطور أصحاب الشأن فيه من الرجال والنساء، وعلى أخلاقهم، والثاني: ما هو تأثيره فلي تنشئة الأطفال وتعليمهم،

وهذان السؤالان مختلفان اختلافا كليا، فقد يرغب الناس بمحض إرادتهم في نظام ما، من إحدى وجهتي النظر هاتين، بينما ينفرون نفورا شديدا في ذلك النظام نفسه من الوجهة الأخرى، وأرى أولا أن أصف القانون الانجليزي، والرأي العام، ومألوف الناس في الوقت الحاضر فيما يتصل بالعلاقات بين الجنسين، ثم أتناول بعد ذلك آثار هذه العلاقات على الأطفال، وأتناول آخر الأمر كيف يمكن تجنب هذه الآثار –السيئة– بنظام يمكن أن يكون له أيضاً أثر أحسن في أخلاق الرجال والنساء وتطورهم.

فالقانون في انجلترا قائم على الأمل في أن الأغلبية العظمى من الزيجات ستستمر طوال حياة الزوجين، وأن الزواج لن تنحل عقدته إلا إذا ثبت أن الزوجة أو الزوج.. وليس كلاهما معا، قد ارتكبا جريمة الزنى. ففي حالة ارتكاب الزوج لهذه الجريمة، فهو ولابد يكون مرتكبا لجريمة القسوة أو الهجر حتى يمكن الطلاق. وحتى إذا تحققت هذه الشروط، فلا يمكن الطلاق عمليا إلا للأغنياء، لأن نفقات الطلاق باهظة جدا[1]. والزواج لا يمكن حله للجنون أو الجريمة، أو القسوة مهما كان شأنها من الشناعة، أو للهجر، أو للزنى يرتكبه الطرفان، وهو لا يمكن فصم عراه لأي سبب مهما كان إذا اتفق الزوج والزوجة على أنهما يريدان فصم عراه، والقانون في هذه الأحوال كلها يعتبر الرجل والمرأة مرتبطين ببعضهما البعض طوال حياتهما. وثمة موظف خاص هو نائب الملك[2]، وظيفته

([1]) كان قانون إعفاء الفقراء **in forma pauperis** يشمل على نص للقضايا التي يعجز فيها الزوج عن دفع نفقات الدعوى، ولكن هذا النص كان عديم الفائدة تقريبا لأسباب مختلفة، وقد أدخل حديثا نص جديد أحسن قليلا من النص القديم، إلا أنه لا يزال أبعد من أن يكون نصا مرضيا.

([2]) النائب العام.

(١) يوضح لنا الخطاب التالي (نقلا عن صحيفة **New Statesman** في عددها الصادر في ٤ ديسمبر سنة ١٩١٥) طبيعة أعمال هذا الموظف:

الطلاق والحرب

إلى محرر "النيوستيتسمان"

سيدي: قد يلذ قراءكم أن يطلعوا على القصتين التاليتين. استطاعت امرأة فقيرة بموجب تسهيلات الطلاق الحديثة الممنوحة لفقراء لندن أن تحصل على حكم nisi –أي يصبح نهائيا إن لم يطعن فيه لتغييره– بالطلاق ضد زوجها الذي طالما كان يضربها ضربا مبرحا يترك آثاره فوق جسدها كله، والذي أعداها بمرض معد شديد الخطر، والذي كان مرتكبا لجريمة تعدد الزوجات، وقد أنجب الزوج بهذا الزواج المتعدد عشرة أبناء غير شرعيين، ولكن يحال بين هذا الحكم وبين أن يصبح حكما نهائيا. أنفق بيت مال الدولة مبلغ مائتي جنيه على الأقل، من أموال دافعي الضرائب، وذلك في استخدام محام ذي مكانة، ومحام بارز من محامي الأحداث، وفي إحضار حوالي عشرة من الشهود من مدينة على بعد مائة ميل لكي يشهدوا على أن هذه المرأة قد ارتكبت جرائم زنى كلما لاحت لها الفرصة في سنتي ١٨٩٥، ١٨٩٨ مما يرجح أن يؤدي إلى اضطرار هذه المرأة بسبب العهر إلى ما هو أشنع من تلك الجرائم. وأن زوجها سوف يستطيع أن يعامل عشيقته بمثل ما كان يعامل زوجته تماما، دون أن يناله أي جزاء، وأن يصيب هذه العشيقة بالمرض الذي أصاب به زوجته من قبل، أن مثل هذا الزواج كان من الممكن في كل بلد متمدين تقريباً– أن تحل عقباته، وأن تصبح الأطفال شرعيين بزواج لاحق، وألا يكسب المحامون الذين استخدمتهم خزانة الدولة هذه الأجور الضخمة التي ابتزوها من جيب المجتمع مقابل عمل يبدو في نظر معظم المحامين في البلاد الأخرى عملا معارضا لصالح الهيئة الاجتماعية معارضة كبرى في جميع آثاره. فإذا كان ثمة محامون يشعرون حقا أن المجتمع ينتفع بهذا اللون من ألوان التقاضي، فلماذا لا يقدمون خدماتهم بالمجان، كما فعل محامو الزوجة، وإذا حق لنا أن يكون لنا نظامنا الاقتصادي في زمن الحرب، فماذا يمنع نائب الملك من الاكتفاء بأحد محامي الأحداث فحسب؟ أما الذي تؤكده التجربة فهو أن أشخاصا كثيرين إذا حدث لهم ما حدث لهذين الزوجين يفضلون ألا ينجبوا أبناء غير شرعيين. ويستتبع ذلك نقصا في نسبة المواليد.

أما الحادثة الأخرى فهي أن طلاقا حصل عليه مستر ا ضد مسز ا ومستر ب. ومستر ب هذا كان متزوجا، فلما سمعت مسز ب بإجراءات الطلاق حصلت على حكم بطلاق معلق decree nisi شرطه: إن لم يعارض فيه الزوج في مدة معينة أصبح طلاقها نهائيا)، ضد مستر ب، الذي كان عرضة في أي لحظة لأن يستدعي للذهاب إلى الحرب، ولكن مسز ب قد تأخرت لعدة أشهر من أن تجعل الطلاق المعلق طلاقا نهائيا، وهذا يمنع المستر ب من أن يتزوج من المسز ا، ذلك الزواج الذي يشعر أن وعد الشرف قد ربطه بتنفيذه، إلا أن القانون يبيح لأي ملتمس، ذكرا كان أو أنثى، الحصول على طلاق معلق، وأن يتأخر في جعله طلاقا نهائيا لأسباب يرجح أن تكون أسبابا مشينة. وقد نقدت لجنة قانون الطلاق هذه الأوضاع نقدا صارما وبخاصة حينما تضاعفت خطورة مثل هذه المشكلة التي بيناها في زمن الحرب، مذ كانت الحرب سببا لقيام سلسلة من قضايا تعدد الأزواج بسبب رغبة جنودنا التي تذكيها في نفوسهم روح البطولة في الحصول على العلاوة التي تمنحها الدولة لانفصال الأزواج عن زوجاتهم الحقيقيات وأسرهم الحقيقية. والزوج الشرعية تكون مرتبطة في أحوال كثيرة برجل آخر بروابط مشابهة. وأنا أسوق هذه الحقائق كي يبحثها الباحثون في صحيفتكم، لما ترددونه كثيرا من الشكوى من انخفاض نسبة المواليد، فإن الشر الناجم عن قوانين الزواج عندنا هو سبب هام من أسباب هذا النقص في نسبة المواليد.

الملخص

أ. س. ب. هاينس

٢٩ من نوفمبر

منع الطلاق حينما يكون ثمة تواطؤ عليه، وحينما يكون الطرفان قد ارتكبا جريمة الزنى.

ويتضمن هذا النظام الهام الآراء التي تعتنقها الكنيسة الانجليزية من نحو خمسين سنة مضت، والتي يعتنقها معظم المنشقين عليها منذ ذلك العهد حتى الآن، وأساس هذه الآراء افتراض أن الزنى فاحشة، وأن هذه الفاحشة حينما يرتكبها أحد طرفي الزواج، فمن حق الطرف الآخر أن يثأر لنفسه إذا كان غنيا، ولكن حينما يكون الطرفان قد ارتكبا الذنب نفسه، أو إذا كان الطرف الذي لم يرتكبه لا يشعر بأي غضب له ما يوجبه، فعندئذ لا يكون ثمة وجود للحق في الثأر، وحالما تفهم هذه الوجهة من وجهات النظر، فإن القانون الذي يبدو أول الأمر غريبا إلى حد ما، يتضح أنه قانون مناسب تمام المناسبة. وإذا شئت تفصيل القول فهو قانون يرتكز على قضايا أربع: أولاها أن الاتصال الجنسي خارج الزواج فاحشة، وثانيتها أن استياء "الطرف البريء" من الزنى فزع قاسط من عمل الإثم، والقضية الثالثة هي أن هذا الاستياء، ولا شيء آخر، قد يعتبر بحق سببا لاستحالة قيام حياة مشتركة، والرابعة أن الفقراء لا حق لهم في المشاعر الرفيعة. ولم تعد الكنيسة الانجليزية، تحت تأثير الكنيسة العليا، تأخذ بالقضية الثالثة من هذه القضايا الأربع، إلا أنها لا تزال تأخذ بالقضيتين الأولى والثانية، ثم لا تفعل شيئا إيجابيا يدل على أنها لا تأخذ بالقضية الرابعة.

وعقوبة الخروج على قانون الزواج هي عقوبة مالية من جهة، لكنها تتوقف بخاصة على الرأي العام، ويعتقد جانب غير كبير من الرأي العام، اعتقادا راسخا، أن العلاقات الجنسية خارج الزواج هي علاقات خبيثة والذين يؤمنون بهذا يظلون بطبيعة الحال في جهل بسلوك أصدقائهم الذين يخالفونهم في ذلك، وهم قادرون على أن يسيروا في الحياة غير عارفين كيف يعيش غيرهم من الناس،

وماذا يفكر فيه هذا الغير. وهذا الشطر الصغير من الرأي العام لا ينظر إلى الأعمال فقط بوصفها أعمالا دنيئة بل هو يصف بالدناءة كذلك الآراء التي تتنافى ومبادئه، وهو قادر على السيطرة على اتجاهات الساسة بعامل تأثيره في الانتخابات، وعلى التحكم في أصوات مجلس اللوردات بسبب حضور الأساقفة، وبهاتين الوسيلتين فهو يتحكم في التشريع، ويجعل أي تغيير في قانون الزواج مستحيلا تقريبا. وفي وسعه أيضا أن يضمن في معظم الأحوال فصل الشخص الذي يخرج علانية على قانون الزواج من عمله، أو كساد حاله بترك حرفائه وعملائه له. والطبيب أو المحامي أو التاجر في مدينة ريفية لا يستطيع أن يكسب رزقه، بل لا يستطيع السياسي أن يصبح عضوا في البرلمان إذا وصم بين الناس بأنه رجل "فاسد الخلق". ومهما يكن السلوك الشخصي للإنسان، فهو لا يمكن أن يدافع علانية عن أولئك الذين وسموا بسمة من سوء السمعة، حتى لا يرمى ببعض ما رموا به، أما الذي لم تشب سمعته شائبة، فقلما يعترض عليه معترض، مهما عرف بعضهم من سلوكه الخاص في هذا الصدد.

ونظرا لطبيعة هذه العقوبة نجد أنها لا تعدل بين أصحاب المهن المختلفة، فالممثل أو الصحفي لا ينالهما منها شيء عادة، والعامل الذي يؤدي عمله في المدينة يستطيع على الدوام تقريبا أن يفعل ما يحلو له، والرجل الذي له موارده الخاصة، يمكنه ألا يبالي على الإطلاق ما دام قد اختار رفقاءه اختيارا ملائما، وذلك إلا إذا أراد أن يشارك في الحياة العامة. والنساء اللائي كان نصيبهن من العناء أكثر من نصيب الرجال من قبل، أصبحن يعانين أقل منهم، بسبب ما يجدن الآن من المجالات الفسيحة التي لا تفرض فيها عقوبات اجتماعية، وبسبب التزايد السريع في عدد النساء اللائي لا يؤمن بالشريعة المصطلح عليها: أما بالنسبة إلى غالبية الرجال ممن هم خارج دائرة الطبقات العاملة، فلا

تزال العقوبة من القسوة إلى الحد الذي يكفي لمنعهم من مقارفة هذا الإثم.

ونتيجة هذا كله أن يشيع هذا الجو من النفاق المهلهل الذي يسمح بكثير من الخروج على القانون، ولا يمنع إلا هذا الذي يجب أن يكون عاما، فالإنسان يستطيع ألا يعيش علانية مع امرأة ليست زوجته، وتستطيع المرأة غير المتزوجة ألا تنجب طفلا، ويستطيع الرجل أو المرأة ألا يقفا أمام محكمة من محاكم الطلاق، وفيما عدا هذه القيود ينفسح ميدان الحرية بصورة كبيرة من الوجهة العملية، وهذه الحرية العملية هي التي تجعل القانون محتملا في نظر الذين لا يرضون عن المبادئ التي يقوم عليها. وليست اللذة هي الشيء الذي يجب على الناس أن يضحوا به لاسترضاء المستمسكين بالآراء المتزمتة، بل ما يجب أن يضحوا به هم الأطفال والحياة المشتركة... والصدق... والأمانة...! ونحن لا يمكننا أن نفرض أن هذه هي النتيجة التي يريدها أولئك الذين يتمسكون بالقانون، ولكننا أيضاً لا نستطيع أن ننكر أن هذه هي النتيجة التي يحققونها بالفعل. فالعلاقات الزوجية الخاصة التي لا تؤدي إلى إنجاب الأطفال أو التي يغشاها ما يغشاها مما نعرف من النفاق، يظل أصحابها بنجوة من العقاب، أما أولئك الأمناء، أو الذين تؤدي علاقاتهم إلى إنجاب الأطفال فهم الذين تنصب عليهم العقوبات الصارمة.

والنفقات التي تتطلبها تربية الأطفال الذين يولدون من زواج تؤدي على الدوام إلى تحديد أدق في عدد أفراد الأسرة، وهذا التحديد على أشده بين أولئك الذين يفهمون مسئوليات الأبوة أحسن الفهم، ويرغبون أكثر من غيرهم في تعليم أطفالهم تعليما طيبا. ويرجع ذلك إلى أن تكاليف تربية الأطفال أشد وطأة عليهم منها على غيرهم. إلا أن الباعث الاقتصادي لتحديد النسل، وإن كان حتى الآن أقوى البواعث على الأرجح، ليؤيده على الدوام باعث غيره،

فالنساء يحصلن على الحرية، لا مجرد تلك الحرية الظاهرية الشكلية، بل الحرية الداخلية التي تساعدهن على التفكير والإحساس في غير تصنع، لا وفقا لقواعد مقررة. وقد تكون النتيجة بالنسبة للرجال الذين أطالوا الحديث في لهجة الواثق عن الغرائز الطبيعية عند المرأة نتيجة مثيرة للدهشة إذا هم أدركوا هذه النتيجة– فكثير من النساء، إذا ما تركت لهن الحرية الكافية لكي يفكرن لأنفسهن، لا يرغبن في أن ينجبن أطفالا، أولا يرغبن في الغالب في أكثر من طفل واحد حتى لا تفوتهن التجربة التي يتيحها لهن إنجاب الأطفال.. وثمة من النساء من هن ذكيات أريحيات اللب، ومن يأبين أن تستعبدهن جسومهن، ذلك الاستعباد الذي ينطوي عليه إنجاب الأطفال. وثمة نساء طموحات ممن يرغبن في حياة لا متسع فيها لرعاية الأطفال، وثمة نساء يؤثرن اللذة وحياة البهجة، ونساء يحببن إعجاب الرجال بهن، فأمثال هؤلاء سوف يؤجلن عملية الحمد –على الأقل– حتى بمضي شبابهن، وجميع هذه الأنواع من النساء يتزايد عددها سراعا، وقد لا نركب الشطط إذا قلنا أن عددها سوف يستمر في الازدياد سنين كثيرة مستقبلة.

ومن سبق الحوادث أن نحكم بأي قدر من الثقة عن الآثار التي سوف تؤدي إليها حرية المرأة في الحياة الخاصة، وفي حياة الأمة، إلا أنني أحسب أنه ليس من سبق الحوادث أن أرى أن هذه الآثار سوف تختلف اختلافا عميقا عن الآثار التي تتوقعها طلائع الحركة النسائية. لقد اخترع الرجال، وكثيرا ما تقبل النساء في الماضي، نظرية تقول بأن النساء هن رعاة النسل، وأن حياتهن تتركز في الأمومة، وأن جميع غرائزهن ورغباتهن موجهة نحو هذه الغاية، سواء شعرن بهذا أو لم يشعرن. وتصور نتاشا– إحدى شخصيات تولستوي، هذه النظرية: فهي امرأة فاتنة، مرحة، تستجيب للعاطفة، حتى إذا تزوجت أصبحت مجرد أم

فاضلة، ليس لها من الحياة الذهنية أيما نصيب. وهذه النتيجة تحظى بموافقة تولستوي الكاملة. ومما يجب التسليم به أنها نتيجة مرغوب فيها رغبة شديدة من وجهة نظر الأمة، مهما يكن رأينا فيها، من حيث علاقتها بالحياة الخاصة. ويجب التسليم أيضا بأنها نتيجة غالبا ما تحدث بين النساء ذوات البنية القوية، واللائي لم يبلغن منزلة عالية في سلم المدنية، إلا أنها في بلاد مثل فرنسا وانجلترا، قد أخذت تتلاشى إلى حد الندرة، بل أن عدد النساء اللائي لا يرضيهن أن يكن أمهات ليتزايد يوما بعد يوم، إذ الأمومة ليست هدفهن. بل أن الخطر من نشوب صدام في المستقبل القريب بين تطورهن الشخصي وبين مستقبل الهيئة الاجتماعية ليزداد يوما عن يوم. وأنه لمن العسير معرفة ما يجب عمله لتخفيف وطأة هذا الصدام، إلا أنني أظن أنه مما يستوجب الاهتمام أن نرى ماذا عساها أن تكون آثار ذلك الصدام إذا لم يعمل شيء لتخفيف وطأته.

وثمة، في الوقت الحاضر معدل اختياري في المواليد من نوع فذ جدا، يرجع إلى هذا المزيج من الحذر الاقتصادي وحرية النساء المتزايدة[1]. فعدد السكان في فرنسا ثابت بالفعل، وتوشك أن تكون هذه هي الحال في انجلترا! تقريبا. وهذا معناه أن بعض الطبقات تنقص مواليدها، بينما البعض يزداد عدد مواليده. وإن لم يحدث تغيير ما، فإن الطبقات التي تنقص مواليدها تصبح منقرضة بالفعل، وسوف يسد النقص في السكان كله تقريبا من الطبقات التي

---

(1) أمدنا المستر سدني وب ببعض الحقائق الطريفة في خطابين أرسل بهما إلى جريدة التيمس في أكتوبر ١١، ١٩٠٦/١٦. وثمة أيضا نبذة فابية عن الموضوع بعنوان الانخفاض في معدل المواليد" للمستر سدني وب (برقم ١٣١) وهناك أيضا بعض المعلومات في أحد منشورات (كاسل ١٩١١) كتبها نيور هولم. مد، م. ر. ك. س بعنوان: الانخفاض في معدل المواليد– أهميته القومية والدولية.

هي آخذة الآن في الزيادة(1). أما الطبقات الآخذة في النقصان فتشمل جميع الطبقات الوسطى وطبقة الصناع المهرة، وأما الطبقات الآخذة في الازدياد فهي الطبقات الشديدة الفقر.. طبقات السكارى ومن لا حيلة لهم، وضعاف العقول- والنساء ضعيفات العقول، بخاصة، قابلات لأن يكون ولودات. وثمة زيادة في تلك الطبقات من السكان الذين لا يزالون يؤمنون بالدين الكاثوليكي إيمانا قويا، كالأرلنديين والبريتون، وذلك لأن الدين الكاثوليكي يحرم تحديد النسل. وأحسن العناصر من بين الطبقات التي يتناقص عددها أسرعها تناقصا، وأولاد الطبقة العاملة ذوو المقدرة الفائقة يرتفعون بما يحصلون عليه من شهادات إلى طبقة الأخصائيين، وهم بطبيعة الحال يرغبون في الزواج من الطبقة التي ينتمون إليها بالتعليم، لا من الطبقة التي نشأوا منها، إلا أنهم لا يستطيعون أن يتزوجوا في شرخ شبابهم، ولا يستطيعون أن يعولوا أسرة كبيرة لأنهم لا يملكون مالا أكثر مما يكسبون بعرق جبينهم، ونتيجة هذا أن تستخلص أحسن العناصر في كل جيل من الطبقات العاملة ثم تعقم تعقيما كاذبا، على الأقل بالقياس إلى البقية الباقية. فالنساء الشابات من أهل الطبقة الأخصائية، ممن أوتين القدرة على الإنشاء والنشاط والذكاء، لا يملن عادة إلى الزواج في سن مبكرة، كما لا يملن إلى أن ينجبن أكثر من طفل أو طفلين إذا تزوجن. لقد كان الزواج فيما مضى الوسيلة الوحيدة الواضحة عند النساء لكسب قوتهن، وقد تضافر ضغط الوالدين، والخوف من أن تصبح الفتيات عانسات، على إجبار كثير من النساء على الزواج، بالرغم من عدم ميلهن على الإطلاق إلى القيام بواجبات الزوجية،

(1) أن انخفاض نسبة الوفيات، ولاسيما وفيات الأطفال، الذي حدث في نفس الوقت الذي انخفضت فيه نسبة المواليد كان من العظم حتى الآن بحيث يكفي لتزايد عدد السكان في بريطانيا العظمى، غير أن ثمة جدودا واضحة لانخفاض معدل الوفيات، مع أن معدل المواليد قد ينخفض بسهولة إلى درجة يمكن أن تجعل النقص الحقيقي في عدد السكان أمرا لا يمكن تجنبه.

أما اليوم، فتستطيع الفتاة ذات الموهبة العادية أن تكسب قوتها في يسر، وتستطيع تحقيق حريتها وأن تتمرس بتجارب الحياة دون أن تتقيد بالقيود التي تربطها بزوج أو بأسرة ذات أطفال، وتكون نتيجة ذلك أنها إذا تزوجت، فإنها تتزوج متأخرة.

ونحن، إذا أخذنا مجموعة من معدل الأطفال من سكان انجلترا، ثم فحصنا والديهم، يمكننا أن نجد أن الفطنة والنشاط والذكاء والاستنارة، أقل شيوعا في الوالدين منها في مجموع السكان عامة، وذلك للأسباب التي قدمنا. وقد نجد أن أولئك الذين هم من ذوي الفطنة والنشاط والذكاء والاستنارة لا يستطيعون في الواقع أن يكاثروا أنفسهم، أعني أنه لا يكاد يعيش لكل منهم في المتوسط أكثر من وليدين بعد سن الطفولة. أما أولئك الذين يتصفون بغير ما يتصف به هؤلاء، فيعيش لكل منهم في المتوسط أكثر من طفلين، وبهذا يكون لهم من الأبناء أكثر مما يلزم للمحافظة على عدد هذه الفئة.

ومن العسير تقدير الأثر الذي ينتجه ذلك في شخصية السكان دون أن يكون لنا علم أكبر بشئون الوراثة مما لدينا في الوقت الحاضر. ولكن طالا أن الأطفال لا ينفكون يعيشون مع والديهم، فلا بد أن يكون للقدرة الأبوية والتعليم المبكر أثر كبير في تطوير شخصياتهم، حتى إذا أطرحنا موضوع الوراثة من حسابنا بالكلية. ومهما كان الرأي في العبقرية، فلا يمكن أن يرقى الشك إلى أن الذكاء، سواء عن طريق الوراثة أو عن طريق التعليم، من شأنه أن يجري في الأسر، وأن انحلال العائلات التي يشيع فيها الذكاء لابد أن ينحط بمستوى الساكن الذهني. والظاهر أنه مما لا شك فيه انه إذا بقى نظامنا الاقتصادي ومقاييسنا الأخلاقية دون أن يطرأ عليها تبديل، فلسوف يحدث تبديل سريع ولكن إلى أسوأ في أخلاق الناس في الجيلين أو الأجيال الثلاثة القادمة في جميع

البلاد المتمدينة، كما سوف يحدث نقص حقيقي في عدد السكان في أكثرها مدنية.

ويرجع جدا أن يصحح النقص في السكان نفسه، في الوقت المناسب، بتخلصه من تلك الخصائص التي تؤدي في الوقت الحاضر إلى معدل منخفض في المواليد، وسيكون للرجال والنساء الذين يمكنهم أن يحافظوا على إيمانهم بالمذهب الكاثوليكي ميزة حيوية (بيولوجية)، وسينشأ بالتدريج شعب له حصانته ضد هجمات العقل، شعب يؤمن إيمانا لا يتزعزع بأن تحديد النسل وزر يفضي بصاحبه إلى الجحيم، أما النساء اللائي لهن اهتماماتهن العقلية، واللائي يحفلن بالفنون أو الآداب أو الشئون السياسية، أو اللائي يطمحن إلى حياة حافلة، أو يقدرن حريتهن حق قدرها.. هؤلاء النساء سيقل عددهم بالتدريج إلى حد الندرة، وسيحل محلن طراز من النساء الوديعات المولعات بالأمومة، لا يلبث عددهن أن يزداد بمقضي الزمن، نساء ليس لهن أي اهتمامات بما يدور خارج بيوتهن، ولا يستشعرن أي كراهية لأعباء الأمومة. فهذه النتيجة التي حاول الرجال عبثا في أجيال من تسلطهم على النساء أن يصلوا إليها خليقة بأن تكون الثمرة النهائية لتحرير المرأة، لمحاولتها اقتحام ميدان أوسع من هذا الميدان الذي حصرتها فيه في الماضي غيرة الرجال.

ولعلنا نستطيع أن نجد أن شيئا من هذا نفسه، إذا أمكن التأكد من الحقائق التاريخية، قد حدث في الإمبراطورية الرومانية. فلقد ظلت على الدوام أسباب انحلال نشاط الرومانيين وذكائهم في القرن الثاني والقرن الثالث والقرن الرابع من التاريخ المسيحي يغشاها شيء من الغموض قد يشتد وقد يخف، إلا أن ثمة من الأدلة ما يؤيد الظن بأن خير عناصر الرومان أخفقت حينئذ، كما أخفقت خير العناصر عندنا الآن في تعويض النقص في معدل المواليد بين

صفوفها، وأن العبء في استمرار بقاء الشعب الروماني كان يرجع عادة إلى من هم أقل حيوية من أبنائه. وقد يكون ثمة ما يغرينا بالظن بأن المدنية، حينما تكون قد ارتفعت إلى ذروة معينة، تصبح رخوة، ويكون من شأنها أن تنحل، ليحل محلها نوع من هذا الوهن الفطري، نوع من الإخفاق في التوفيق بين حياة الغريزة والحياة الذهنية العميقة من فترات الثقافة العالية، ولكن أمثال هذه النظريات الغامضة تنطوي دائما على شيء زلق خرافي يجعلها لا قيمة لها في تفسير الأمور العلمية، أو إذا اتخذناها مرشدا لنا إلى الأمور العملية.

ولنبن أولا عما نريد. أنه لا أهمية لتزايد عدد السكان، وعلى العكس من ذلك، لو كان عدد سكان أوربا لا يزيد ولا ينقص لكان من الأيسر كثيرا التقدم الاقتصادي بالإصلاح، ومنع الحرب، والذي يؤسف له في الوقت الحاضر ليس النقص في معدل المواليد في ذاته، بل ما تشاهده من أن النقص هو على أشده في أحسن عناصر السكان. على أننا محقون في أن نخشى أن ننتهي في المستقبل إلى ثلاث نتائج وخيمة: أولاها، نقص مطلق في عدد السكان الانجليز والفرنسيين والألمان، وثانيتها، خضوعهم لشعوب أقل منهم مدنية، والقضاء على مأثوراتهم، وثالثتها: عودتهم إلى الزيادة ولكن على مستوى أحط من المدنية بعد أجيال لا يبقى منها إلا المحرومون من الذكاء والبصيرة. فإذا أردنا ألا ننتهي إلى هذه النتائج، وجب علينا أن نقف هذه الوسيلة التعسة من وسائل الانتخاب في معدل المواليد بشكل ما...

وهذه المشكلة هي من المشاكل التي تنطبق على جميع الحضارة الغربية، وليس ثمة صعوبة في التماس حل نظري لها، ولكن الصعوبة الكبرى هي إقناع الناس بقبول هذا الحل وتطبيقه عمليا، وذلك لأن الآثار التي يخشون حدوثها ليست آثارا مباشرة، ولأن الموضوع ليس من الموضوعات التي اعتاد الناس أن

يستعملوا فيها عقولهم. وإذا قدر للناس أن يأخذوا فيه بحل معقول، فالراجح أن يكون السبب هو التنافس بين دول العالم جميعا. وواضح أنه إذا اتخذت دولة ما -ولتكن ألمانيا- وسيلة معقولة لمعالجة هذا الأمر، فإنها ستفوز بمزية كبرى على الدول الأخرى، إلا إذا حذت هذه الدول حذو ألمانيا. ويحتمل أن يصبح اهتمامنا بقضايا عدد السكان أكثر مما هو الآن، بعد أن تضع الحرب أوزارها، وعلى الأرجح أن دراستنا لها ستكون من ناحية التنافس الدولي. فهذا الباعث يختلف عن الباعث العقلي والباعث الإنساني في أنه قد يكون من القوة بحيث يكفي للتغلب على ما يعترض به الناس على العلاج العلمي لمشكلة معدل المواليد.

لقد كانت غرائز الناس، رجالا ونساء، تؤدي من نفسها، في الزمن الماضي، وفي جميع التواريخ والمجتمعات، إلى ما هو أكثر من المعدل الكافي للمواليد، وما قرره مالتوس عن مشكلة عدد السكان كان صحيحا إلى الزمن الذي كتب ما كتبه فيه، وهو لا يزال صحيحا بالقياس إلى الشعوب شبه المتحضرة، وبالقياس إلى أحط العناصر في الشعوب المتمدينة. لكنه أصبح رأياً فجا بالقياس إلى نصف سكان أمريكا وأوربا الغربية الأكثر مدنية، أولئك الذين لم تعد الغريزة كافية للمحافظة حتى على أن يظل السكان دون نقص أو زيادة..

وفي وسعنا تلخيص أسباب ذلك بحسب أهميتها، على النحو الآتي:

١- عظم ما تتكلفه تربية الأبناء إذا كان آباؤهم ذوي ضمير حي.

٢- ازدياد عدد النساء اللائي لا يرغبن في أن يكون لهن أطفال، أو اللائي لا يرغبن في أن يكون لهن أكثر من طفل أو طفلين، حتى لا تضطرب بذلك خطتهن في الحياة.

٣- نظرا لزيادة عدد النساء على عدد الرجال يبقى نساء كثيرات بلا زواج، وهؤلاء، وإن لم يكن ممنوعات في الواقع من الاتصال بالرجال، فهن ممنوعات بالقانون من إنجاب الأطفال، ونجد في هذه الطبقة عددا ضخما لا ينفك في ازدياد ممن يكسبن قوتهن بالعمل على الآلة الكاتبة، أو العمل في المحال التجارية وما إليها، وقد أتاحت الحرب للنساء مجالات كثيرة للعمل كن محرومات منها من قبل، والراجح أن هذا التغيير ليس تغييرا مؤقتا كله.

فإذا وجب أن نقف هذا العقم في أحسن عناصر السكان، كان أول ما لابد من عمله وأولاه بالرعاية هو إزالة الأسباب الاقتصادية لتحديد النسل، وعلى مجموع الأمة أن يتحمل جميع النفقات التي تتطلبها تربية الأطفال، فغذاؤهم وملابسهم وتعليمهم لا ينبغي أن توفر فقط لأشد الطبقات فقرا، بوصفها عملا من أعمال البر، بل يجب توفيرها لجميع الطبقات بوصفها عملا من الأعمال المتعلقة بالصالح العام، وفضلا عن ذلك فإن المرأة التي تستطيع أن تكسب مالا، والتي تتخلى عن كسبه بسبب الأمومة، ينبغي أن تأخذ من الدولة، بقدر الإمكان، كل ما كانت تحصل عليه لو لم تقعد بها الأمومة عن كسبه، والشرط الوحيد الواجب توفره في حالة إعالة الدولة للأم والأطفال يجب أن يكون سلامة الوالدين جسمانيا وعقليا من جميع النواحي التي يحتمل أن تؤثر في الأطفال، ويجب ألا نمنع من حرموا هذه السلامة من إنجاب الأطفال، إنما الواجب أن يستمروا، كما هو الحال في الوقت الحاضر، في تحمل نفقات أطفالهم بأنفسهم.

ويجب أن يكون معلوما أن القانون لا يهتم من الزواج إلا بموضوع الأطفال، وأنه لا ينبغي ألا يبالي بما نسميه "الأخلاق" التي تقوم على العادة

وعلى نصوص التوراة، لا على أي اعتبار حقيقي لاحتياجات المجتمع، والعدد الزائد من النساء، اللائي يشفقن، لأسباب كثيرة، من إنجاب الأطفال يجب أن ندرأ عنهن أسباب هذا الإشفاق. وإذا كان من واجب الدولة أن تقوم بنفقة الأطفال، فمن حقها، على أسس من علم إصلاح النسل (اليوجنية)(١)، أن تعرف من هو والد كل طفل، وأن تشترط قدرا من الاستقرار في صلة الرجل بالمرأة، ولكن ليس ثمة داع لاشتراط هذا الاستقرار طوال حياتهما، أو توقع قيامه، أو تحتيم أي سبب للطلاق غير موافقة الزوجين على وقوعه، فهذا قد ييسر للمرأة التي يجب أن تظل في الوقت الحاضر بلا زواج إنجاب أبناء إذا أرادت هي هذا، وبهذه الطريقة يمكن أن نتفادى خسارة هائلة لا داعي لها، كما يمكن أن نتفادى قدرا كبيرا من التعاسة.

وليس ثمة داع لقيام مثل هذا النظام في الحال، إذ من الممكن أن يقوم بالتجربة بين طبقات معينة من المجتمع، وهي الطبقات التي تصلح لتطبيقه أكثر من غيرها. ومن الممكن أن نتوسع فيه بعد ذلك بالتدريج، على ضوء ما نستخلصه من التجربة، فإذا وجدنا أن معدل المواليد ارتفع ارتفاعا كبيرا أمكن زيادة تحديد الشروط اليوجنية التي فرضناها من قبل تحديدا لذلك.

وثمة بالطبع، صعوبات عملية مختلفة تعترض مثل هذا المشروع: كمعارضة الكنيسة له، ومعارضة المستمسكين بالأخلاق التقليدية، ثم الخوف من إضعاف مسئولية الآباء، وما يستلزمه الأطفال من نفقة. على أننا نستطيع التغلب على ذلك كله، إلا أن ثمة عقبة يبدو أننا يستحيل علينا تذليلها في انجلترا تذليلا تاما، ذلك أن الفكرة برمتها فكرة تنافي الديمقراطية، لأنها تعتبر بعض الناس أفضل من بعض، ولأنها قد تقتضي أن تقدم الدولة لأبناء فريق من الناس تعليما أرقى

(١) اليوجنية **eugenics** علم إصلاح النسل.

مما تقدمه لأبناء الآخرين، وهذا يناقض جميع مبادئ السياسة التقدمية في انجلترا، ونحن لهذا السبب لا نكاد نتوقع أن مثل هذه الوسيلة من وسائل معالجة مشكلة عدد السكان سوف تتقبل بحذافيرها في هذه البلاد. وقد يمكن حدوث شيء مثل هذا في ألمانيا، وما دام الأمر كذلك، فهو يؤكد السيادة الألمانية بما لا يمكن أن يؤكدها مجرد الانتصار الحربي، أما عندنا فلا يمكن إلا أن نأمل أن نراه مأخوذا به بطريقة جزئية، وفي طبقة دون طبقة، إلى حد ما، والراجح ألا يتم هذا إلا بعد أن يتغير البناء الاقتصادي للمجتمع تغيرا يزيل معظم الفروق المصطنعة التي تحاول الأحزاب التقدمية القضاء عليها بحق.

وإلى هنا كنا نناقش موضوع تكاثر النسل أكثر مما ناقشنا أثر الصلات الجنسية في تنمية تطور الرجال والنساء أو عرقلة هذا التطور. والذي يبدو أننا بحاجة إليه، من ناحية بقاء الجنس هو رفع الأعباء الاقتصادية الناجمة عن الأطفال رفعا تاما عن جميع الذين لا يكونون غير لائقين جسمانيا ولا عقليا، وأن يوفر القانون أوفى قدر ممكن من الحرية يتفق وما يعرفه الناس من معنى الأبوة والأمومة. وهذه التعديلات نفسها بالضبط تبدو لازمة حينما نتناول المشكلة من وجهة نظر الرجال والنساء الذين يعنيهم الأمر..

فمن حيث الزواج، ويشبه الزواج في ذلك جميع الروابط التقليدية بين الكائنات البشرية، نلاحظ أن تبدلا شاسعا يأخذ مجراه بصورة شاملة لا مفر منها، وبصورة ضرورية لا يسلم منها أحد، بوصفها مرحلة من مراحل التطور في حياة جديدة، إلا أنه تبدل سيظل غير مرضي عنه رضاء تاما حتى يتم. وجميع الروابط التقليدية كانت قائمة على السلطة– سلطة الملك، وصاحب الإقطاعية، والكاهن، والأب، والزوج. وقد أخذت هذه الروابط كلها، بسبب ما كانت تقوم عليه من السلطة، تنحل، أو هي قد انحلت بالفعل، وخلق روابط

أخرى لتحل محل تلك الروابط هو حتى الآن أمر جد ناقص. ولهذا السبب كان للروابط البشرية في الوقت الحاضر تفاهتها غير العادية، وهي تقوم بأقل مما كانت تقوم به من قبل لهدم أسوار ال، أنا، القاسية.

لقد كان المثل الأعلى للزواج في الماضي يقوم على سلطة الزوج، هذه السلطة التي كانت الزوجة تعترف بها كحق عليها لزوجها، فكان الزوج حرا، أما الزوجة فكانت مستعبدة باختيارها، وكان من المسلم به، في جميع الأمور التي تهم الزوج والزوجة على السواء، أن يكون حكم الزوج هو الحكم النهائي. وكان على الزوجة أن تكون وفية، بينما لم يكن على الزوج، اللهم إلا في المجتمعات الشديدة التدين، إلا أن يلقي حجابا من الحشمة على خياناته. ولم يكن تحديد النسل ممكنا إلا بوسيلة ضبط الشهوات، ولم يكن للزوجة حق معترف به في المطالبة بضبط الشهوة، مهما تكن قد قاست من كثرة الأبناء.

وطالما كانت سلطة الزوج عقيدة يؤمن بها الرجال والنساء على السواء. بحيث لا تقبل المناقشة، كان هذا النظام مرضيا، وإن لم يكن كل الرضا، فقد كان يتيح لكل من الطرفين قدرا معينا من حاجتهما الغريزية، لا يمكن تحقيقها عند المتعلمين في الوقت الحاضر إلا نادرا. فإرادة الزوج وحدها هي ما كان يجب أن يقام له وزن، ولم يكن ثمة حاجة إلى هذه التنظيمات العسيرة التي نحتاج إليها حينما لا يكون بد من الوصول إلى قرارات مشتركة يتفق عليها طرفان متكافئان، ولم تكن رغبات الزوجة تؤخذ بنظرة الجد إلى الدرجة التي تجعلها تتعارض وحاجيات الزوج، ولم تكن الزوجة نفسها، ما لم تكن أنانية غالية في أنانيتها، لتهتم بتطورها النفساني، ولم تكن ترى في الزواج شيئا إلا أنه طائفة من الواجبات. ولأنها لم تكن تهتم بالسعادة أو تنتظر قدرا كبيرا منها، كان ما تقاسيه أقل مما تقاسيه الزوجة في زمننا هذا إذا لم تتحقق سعادتها: لقد كان ما تقاسيه

خاليا من أي عنصر من عناصر السخط أو المفاجأة، ولم يكن يتحول بسهولة فيكون مرارة أو شعورا بالضرر.

لقد كان للمرأة القديسة المضحية بنفسها، التي كان أسلافنا يسبحون بحمدها، مكانها في مجتمع ذي فكرة معينة، فكرة تصور هذا المجتمع قائما على الترتيب التدريجي للسلطات، وهي الفكرة التي كانت سائدة في العصور الوسطى، أنها من هذا الطراز نفسه من طرز التفكير التي تجعل لكل فرد مكانه في المجتمع، من الخادم الأمين، إلى التابع الوفي، إلى ابن الكنيسة المستمسك بتعاليمها. لقد اختفى هذا الطراز من طرز التفكير بحذافيره من العالم المتحضر، ونحن نرجو أن يكون قد اختفى إلى الأبد، بالرغم مما نعلمه من أن المجتمع الذي قام عليه كان مجتمعا حيا، ومن بعض نواحيه، مجتمعا مفعما بالنبل. لقد قضت المثل العليا الجديدة للعدالة والحرية على النظام القديم قضاء بدأ بالدين، ثم بالشئون السياسية، ثم بالعلاقات الفردية المتعلقة بالزواج وبالأسرة آخر الأمر. فحينما بدأنا نتساءل: "لماذا ينبغي أن تخضع المرأة للرجل!" وحينما لم تعد الإجابات المستخلصة من التقاليد ومن التوراة كافية لأن يقتنع بها أحد... حينذاك لم يعد ثمة أي احتمال في الإبقاء على تلك التبعية القديمة، أي تبعية المرأة للرجل، وظاهرا أن هذا السؤال لا يكاد يوجه إلى أي إنسان يمكنه أن يفكر تفكيرا حرا موضوعيا حتى يجيب من فوره بأن حقوق النساء هي نفسها حقوق الرجال سواء بسواء. ومهما حدث من الأخطار أو المصاعب، ومهما ثار من الاضطراب العابر في أثناء الانتقال إلى المساواة بينهما فإن هذه المطالب المعقولة هي من الضرورة ومن الوضوح بحيث لا يمكن أن يأمل معارضوها في نجاح معارضتهم لها زمنا طويلا.

أن الحرية المتبادلة المطلوبة الآن تجعل هذا الأسلوب القديم من أساليب

الزواج شيئا مستحيلا، إلا أننا حتى الآن لم نطور أسلوبا جديدا للزواج يمكن أن يكون متنفسا صالحا للغريزة معادلا للأسلوب القديم، ويمكن أن يكون معوانا للنمو الروحي مثله، والملاحظ في الوقت الحاضر، أن النساء اللائي يؤمن بأن الحرية شيء لابد من الحصول عليه، يؤمن كذلك بصعوبة الحصول عليها، فالرغبة في السيطرة عنصر أصيل في العواطف الجنسية عند معظم الرجال، ولاسيما في هؤلاء الأقوياء الذين لا يعرفون إلا الجد. وهي من العواطف التي لا تزال حية عند كثير من الرجال الذين تتنافى آراؤهم والاستبداد تنافيا تاما، ونتيجة هذا أن تنشب حرب، في سبيل الحرية من جهة، وفي سبيل الحياة من جهة أخرى، والنساء يحسسن بأن واجبهن يقتضي حماية ذواتهن، والرجال يستولي عليهم شعور صامت في كثير من الأحيان بأن كبت الغريزة المطلوب منهم مناقض للقوة والمبادأة، واصطدام هذه الأمزجة المتعارضة يجعل الامتزاج الحقيقي للشخصيات مستحيلا، فالرجل والمرأة يبقيان وحدتين جامدتين منفصلتين، يسألان نفسيهما على الدوام عما إذا كان زواجهما قد أثمر أية ثمرة ذات قيمة. وهذا من شأنه أن تصبح علاقاتهما تافهة ووقتية، أنها تصبح علاقات التذاذ أكثر منها علاقات اقتناع بحاجة عميقة، علاقات استثارة، وليست غايات تدرك، وبهذا تظل الوحشة الأصلية التي ولدنا فيها دون أن تخف وطأتها، ويظل جوعنا إلى الألفة الداخلية دون أن تنطفئ غلته.

وليس محتملا أن نصل إلى علاج سهل، ولا يكلفنا كثيرا، لهذا العناء الذي يتأثر به أشد التأثير أكثر الرجال والنساء مدنية، والذي هو ثمرة للشعور المتزايد بالفردية التي تنشأ بالضرورة عن التقدم الذهني، وإني ليساورني الشك في إمكان وجود علاج جوهري لهذه المشكلة إلا في صورة من صور الدين، يكون الإيمان بها إيمانا ثابتا وصادرا عن إخلاص بحيث يسيطر حتى على حياة الغريزة. أن

الفرد ليس نهاية كينونته ولا الغاية منها: فخارج الفرد، توجد الهيئة الاجتماعية، ومستقبل البشرية، وهذا الكون المترامي الذي لا تبلغ فيه أمانينا ولا مخاوفنا مثقال ذرة. والرجل والمرأة اللذان يحترم كل منهما في صاحبه معنى الحياة، واللذان يتساوى في كل منهما الشعور بعدم أهميتها بالقياس إلى حياة الإنسانية كلها.. أن الرجل والمرأة اللذين هذا شأنهما يمكن أن يصيرا رفيقين دون أن يتدخل أحدهما في حرية الآخر، ويمكن أن يحققا اتحاد الغريزة دون الإضرار بحياة الروح أو بعقلها، وكما كان الدين يسيطر على صورة الزواج القديمة، فكذلك ينبغي أن تسيطر الديانة على صورته الجديدة، إلا أنها ينبغي أن تكون ديانة جديدة أساسها الحرية والعدالة والحب، لا السلطة والقانون ونيران الجحيم.

وقد طرأ على العلاقات بين الرجل والمرأة أثر سيئ من الحركة الرومنسية[1]، بما لفتت إليه الأنظار إلى ما ينبغي أن نعتبره خيرا عارضا وليس الغرض الذي من أجله تقوم تلك العلاقات. فالحب هو ما يعطي للزواج قيمته الحقيقية، وهو أحد الأسباب العليا التي تجعل حياة الإنسان تستأهل أن يعيشها، شأنه في ذلك شأن الفن والفكر، بيد أن خير أنواع الزيجات هي تلك التي يكون لها غرض يرمي إلى ما وراء الحب، وإن لم يكن ثمة زواج صحيح بدون حب، فحب اثنين من الناس بعضهما بعضا هو شيء محدد تحديدا شديدا،

---

(1) الحركة الرومنسية هي تلك الحركة العاطفية التي طرأت على الآداب في القرن التاسع عشر في كل من فرنسا وألمانيا. والتي كانت ثورة ضد المذهب الكلاسي، مذهب القيود والتزمت الذي أحياه الكاردينال ريشيليو في فرنسا في القرن السابع عشر، وكان من أقطابه في فرنسا كروني وراسين وموليير، والذي بلغ ذروته في عهد لويس الرابع عشر، فلما كانت الثورة الفرنسية، وزال عهد نابليون، أخذ شباب الأدباء الفرنسيين، وعلى رأسهم فكتور هوجو يقومون بحركة رد فعل صاخبة، للانطلاق من قيود الكلاسية المتزمتة إلى حرية الرومنسية الطليقة، وآفاقها الرحبة.

ومنفصل أشد الانفصال عن الهيئة الاجتماعية، بحيث لا يمكن أن يكون الغرض الأساسي لحياة صالحة. أنه ليس في نفسه مصدرا كافيا لألوان النشاط، وليس فيه الإمكانيات الكافية لخلق حياة يمكن أن نجد فيها الرضا المطلق. أنه يمنحنا لحظاته العظمى، ثم التي أقل منها عظمة، هذه اللحظات غير المرضية، لأنها اقل من سابقتها عظمة، أنه يصبح، عاجلا أو آجلا، ذكرى من الذكريات، قبرا للمناهج الميتة، لا نبعا لحياة جديدة، وهذا الشر لا يسلم منه أي هدف من الأهداف التي يمكن تحقيقها في ظل عاطفة منفردة سامية، والأهداف الوحيدة السديدة هي تلك التي تتغلغل في المستقبل، الأهداف التي لا يمكن أن يتم انجازها كاملا، بل تظل دائما مستمرة النماء، ولا نهائية بلا نهائية المساعي التي تبذلها البشرية، ولا يمكن أن يكون للحب جديته وعمقه اللذان في مستطاعه تحقيقهما إلا حينما يكون موصولا بهدف لا نهائي من هذا القبيل.

والجدية في العلاقات الجنسية عند الغالبية العظمى من الرجال والنساء حرية بأن تتحقق على أحسن صورها عن طريق الأطفال. والأطفال عند معظم الناس هم حاجة أكثر منهم رغبة، ونحن لا نوجه الغريزة عادة توجيها شعوريا إلا نحو ما من عادته أن يأتي لنا بالأطفال، ورغبتنا في الأطفال خليقة بأن تزداد حينما نكون في وسط العمر، أي حينما نكون قد اجتزنا فترة المغامرات من فترات حياتنا، وذلك عندما يبدو أن صداقات الشباب قد أصبحت أقل أهمية مما اعتدنا أن تكون.. حينما يبدأ شبح الشيخوخة الطاعنة الخالية من الأولاد يطل برأسه فيقض مضاجعنا، وحينما يأخذ شعورنا، بأن لا نصيب لنا في المستقبل، يجثم على صدورنا فيضيق عليها الخناق. ثم يبدأ هؤلاء الذين كانوا في شبابهم لا يدركون على الإطلاق أن الأطفال قد يقومون بوفاء حاجاتهم في الكبر.. يبدأ هؤلاء في التحسر على ما كان من كراهيتهم السابقة لهذا الأمر

الطبيعي ويبدأون يحسدون معارفهم الذين كانوا يحسبونهم من قبل تافهين. إلا أنه من المستحيل على الشباب، في كثير من الأحيان، ولأسباب اقتصادية، وبخاصة على أحسن هؤلاء الشباب، أن ينجبوا أطفالا دون أن يضحوا بأمور ذات أهمية حيوية لحياتهم هم أنفسهم.. وهكذا ينصرم حبل شبابهم، ثم لا يشعرون بحاجتهم إلى الأطفال إلا بعد فوات الأوان.

وقد ازدادت حاجيات الناس التي لا تطابق رغباتهم ازديادا كبيرا، بازدياد اختلاف الحياة الحاضرة عما كانت عليه تلك الحياة البدائية القديمة التي هي المصدر الذي نشأت عنه غرائزنا، والتي لا تزال تتفق إلى حد بعيد وهذه الغرائز، أكثر مما تتفق وحياتنا في الوقت الحاضر. والحاجة التي لا تستكفي تجر على صاحبها آخر الأمر من الآلام ومن الانحراف الخلقي بقدر ما كانت تجره عليه لو أنها كانت قد اقترنت برغبة شعورية. ولهذا السبب ولصالح الأمة أيضا، كان حقا علينا إزالة المؤثرات الاقتصادية المنفرة من إنجاب الأطفال. وليس ثمة داع مطلقا لأن نفرض الأبوة على هؤلاء الذين يشعرون بالكراهية لها، ولكن الضروري هو ألا تقيم العراقيل في طريق أولئك الذين لا يبطنون لها مثل هذه الكراهية.

وأنا لا أعني، حينما أتحدث عن أهمية المحافظة على جدية العلاقات بين الرجال والنساء، الإيهام بأن العلاقات غير الجدية هي علاقات ضارة دائما، والأخلاق التقليدية قد أخطأت حينما عنيت هذه العناية الشديدة بالنص على ما ينبغي ألا يكون أكثر من عنايتها بالنص على ما ينبغي أن يكون. والمهم هو أن الرجال والنساء ينبغي أن يكتشفوا، إن عاجلا وإن آجلا، أحسن العلاقة التي تطيقها طبيعتهم. وليس من الممكن دائما معرفة ما عسى أن تكون خير هذه العلاقات مقدما، أو التأكد من أننا لم نضل عن خيرها إذا نبذنا كل شيء

يمكن أن يساورنا الشك فيه. والإنسان في الشعوب البدائية يفتقر إلى أنثى، بينما تفتقر الأنثى إلى ذكر، وليس لديهم مثل تلك المفاضلة التي توجد عندنا، والتي تجعل هذا أو هذه رفيقا مناسبا لصاحبه أكثر من غيره، ولكن بازدياد التعقيد في الأمزجة الذي ينتج عن الحياة المتمدينة، يصبح من الصعب أكثر فأكثر العثور على الرجل أو المرأة اللذين يجلبان السعادة، كما يصبح من الضروري أكثر فأكثر ألا نعقد الأمور تعقيدا فلا نعترف بأخطائنا.

إن قانون الزواج الحالي هو ميراث ورثناه من عصر أكثر بساطة ويسرا من عصرنا، وهو يرتكز في جملته على مخاوف لا أساس لها، وعلى كراهية لكل ما هو دقيق وصعب في حياة العقل. ولقد قضى على كثيرين جدا من الرجال والنساء بمقتضى هذا القانون، فيما يتصل بعلاقاتهم الظاهرة، بمعاشرة أزواج يختلفون عنهم في طباعهم أشد الاختلاف، وهم مع ذاك يدركون إدراكاً مريرا استحالة الهروب من هذه الحال. ففي مثل تلك الظروف ينشد أحد الزوجين في كثير من الأحوال علاقات أسعد مع شخص آخر، إلا أن هذه العلاقات لا معدي لها من أن تكون سرية، وبدون حياة مشتركة، وبلا أطفال. وبصرف النظر عما في تلك السرية من بلاء عظيم، فإن لمثل هذه العلاقات بعض المساوئ التي لا مفر منها تقريبا، فهي قمينة بأن تؤكد تأكيدا لا نصيب له من الصحة، بأن الجنس شيء مثير مقلق، ولا يكاد يكون من المحتمل أن تنتج هذه العلاقات اكتفاء حقيقيا للغريزة، وهذا المزيج من الحب، والأطفال، والحياة المشتركة، هو وحده الذي يخلق أحسن العلاقات بين الرجل والمرأة. والقانون في الوقت الحاضر يحصر الأطفال والحياة المشتركة في حدود الزواج الواحد غير المتعدد، لكنه لا يمكن أن يحبس الحب، وهذا القانون، بأضراره الكثيرين على أن يفصلوا بين الحب، وبين الأطفال والحياة المشتركة، يعرقل حياتهم، ويمنعهم من الوصول

إلى الحد الكامل لتطورهم الممكن، ويجلب على أولئك الذين لا يرضون بهذه التفاهة عذابا لا داعي له على الإطلاق.

ومجمل القول أن حالتنا الراهنة، من قانون، ومن رأي عام، ومن نظام اقتصادي، من شأنه الانحطاط بمناقب شعبنا، وذلك بجعلها خير شطري السكان آباء لأكثر من نصف الجيل التالي، وفي الوقت نفسه فإن ما تطالب به المرأة من الحرية يجعل هذه الصورة القديمة من صور الزواج عائقا دون تطور الرجال والنساء على السواء. فلابد إذن من نظام جديد إذا أردنا أن نقي الأمم الأوربية من الانحلال، وإذا أردنا أن تكون للعلاقات بين الرجال والنساء سعادتها القوية، وجديتها الفطرية التي كانت تلازم خير الزيجات في الماضي. ويجب أن يقوم النظام الجديد على فكرة أن إنجاب الأطفال هو خدمة للمجتمع، ووجوب عدم تعريض الآباء للعقوبات المالية الفادحة. ولابد من اعتراف هذا النظام بأن القانون، أو الرأي العام يجب ألا يقحما نفسيتهما في العلاقات الخاصة بين الرجال والنساء، إلا حينما يعني الأمر صالح الأطفال، ويجب أن يزيل البواعث التي تجعل علاقاتهما سرية وبلا أطفال. ويجب أن يعترف بأنه، وإن تكن الزيجة الواحدة التي تستمر طول الحياة هي أحسن الزيجات حينما تكون زيجة ناجحة، فإن التعقيد المتزايد الذي طرأ على احتياجاتنا يزيد في احتمال إخفاق هذه الزيجات إخفاقا لا يحسمه إلا الطلاق. والحرية هنا، شأنها في كل مكان، هي أساس الفطنة السياسية، وحينما نكون قد حققنا الحرية للجميع وجب أن نترك بقية ما نرغب فيه بعد ذلك لضمائر الأفراد ودينهم رجالا ونساء.

الفصل السابع

الدين والمذاهب الدينية

تكاد جميع التغيرات التي طرأت على العالم منذ نهاية العصور الوسطى يعود إلى الاكتشافات العلمية الحديثة وانتشارها، ولقد كان هذا هو السبب الأساسي للنهضة. ولحركة الإصلاح، وللثورة الصناعية، ولقد كان هذا أيضاً هو أهم العوامل التي انحلت بسببها عري الدين الذي يلزم إتباعه بطائفة من العقائد، فدراسة الأصول القديمة، وتاريخ الكنيسة الأول، وطبيعيات كوبرنيكوس واكتشافاته الفلكية، أو نظرية دارون في علم الحياة، وعلم السلالات المقارن، كل هذا بدوره نسف جزءا من صرح المذهب الكاثوليكي، حتى لم يبق منه آخر الأمر، في نظر جميع المفكرين المثقفين تقريبا، إلا هذه البقية من اللباب الروحي، والأمل الغامض، والشعور غير الواضح المعالم بالالتزام الخلقي، وهي البقية التي تبدو أشد قابلية للوقوف في وجه الحدثان، وربما أمكن أن تظل نتيجة هذا مقصورة على الأقلية المتعلمة، لولا مقاومة رجال الدين للتقدم السياسي في كل مكان تقريبا بنفس الشدة التي قاوموا بها التقدم الفكري. ولقد دفعت السياسة المحافظة برجال الدين إلى مناضلة جميع القوى الكامنة في الطبقات العاملة، كما نشرت حرية الفكر في أوساط واسعة كان يمكن –لولا ذلك– أن تظل مدى قرون مستمسكة بسننها القديمة. وانحلال عري الدين الذي يلزم الناس بعقائد معينة، سواء كان هذا الانحلال خيرا أو شرا، هو واحد من أهم الحقائق التي لا تقبل الجدل في العالم الحديث، ثم هو انحلال لم يكد يسفر عن آثاره بعد، ويستحيل علينا أن نتكهن عما سوف تكون هذه الآثار، إلا أنها سوف تكون

آثاراً عميقة واسعة المدى بلا شك.

وللدين ناحيته الشخصية، وناحيته الاجتماعية، وهو عند البوتستنت شخصي قبل كل شيء، وعند الكاثوليك اجتماعي قبل كل شيء. والدين لا يصبح قوة رهيبة في تكييف المجتمع إلا عندما تندمج ناحيتاه هاتان اندماجا خالصا- والمذهب الكاثوليكي من يوم أن نشأ من عهد قسطنطين إلى عصر الإصلاح، كان يمثل اندماجا ربما لم يكن يدخل في روع أحد لو لم يكن قد حدث بالفعل.. اندماج المسيح وقيصر.. اندماج أخلاقية الاستسلام الذليل، وكبرياء رومة الإمبراطورية، فمن كان يحب الأولى استطاع أن يلتمسها في سكون الأديرة[1]، ومن أحب الثانية كان في وسعه أن يجد متمناه منها في الأبهة التي اشتهر بها أساقفة العاصمة، ولا يزال نفس الجانبين من الكنيسة ممثلين في القديس فرنسيس[2]، وانوسنت الثالث[3]، ولكن الجانب الشخصي من الدين أخذ، منذ عصر الإصلاح، يبتعد شيئا فشيئا خارج نطاق المذهب الكاثوليكي، بينما أخذ الدين، الذي ظل كاثوليكيا، يصبح بالتدريج أنظمة ومراسم سياسية، وتسلسلا تاريخيا، وقد أضعف هذا الانقسام سلطان الدين، فلم تعد تشد من عزم الهيئات الدينية تلك الحماسة وسلامة النية التي اتصف بها رجال عرفوا بالقوة في ناحية الدين الشخصية، ولم يجد هؤلاء من سلطان النظم الكنسية ما يساعد على نشر تعاليمهم وتوطيد دعائمها.

---

(1) **Thebaid** وتعني الصحراء ولا سيما الصحراوات المطيفة بمصر وبها كثير من الأديرة.

(2) **St. Francis.**

(3) انوسنت **Innocent** أو الطيب هو اسم لعدد من بابوات رومه، وانوسنت الثالث هو لوتاربوده كونتي (١١٦١- ١٢١٦) الذي وصل فيه سلطان البابوية ذروته، وقد حرم ملكي أسبانيا وفرنسا ووضع كلتا المملكتين تحت الحرمان، كما اضطر جون ملك انجلترا بوجوب تنصيبه عن طريق البابا. (المترجمان).

لقد خلق المذهب الكاثوليكي، في أثناء العصور الوسطى، أعظم مجتمع نظامي، وأعظم بناء داخلي منسجم من الغريزة، والعقل، والروح، عرفهما العالم الغربي. ويمثل القديس فرنسيس، وتوماس أكويناس، ودانتي، ذروة هذا المجتمع من حيث التطور الفردي. وتمثل الكاتدرائيات، وطوائف المستجدين الدينية[1]، وانتصار البابوية على الإمبراطورية، أقصى ما بلغته من النجاح السياسي، إلا أن العمل الذي أنجزه هذا المذهب كان عملا محصورا لم يبلغ حد الكمال: فالغريزة، والعقل، والروح، كل أولئك كان يشكو مما يحول بينه وبين الاندماج في النسيج العام، ورجال المهن كانوا يجدون أنفسهم خاضعين للكنيسة بأساليب كانوا ينفرون منها، والكنيسة كانت تستخدم سلطانها للنهب وإيقاع المظالم بالناس. لقد كان هذا البناء الكامل عدوا للتطور الجديد، وبعد أيام دانتي كان من واجب كل ما هو حي في العالم أن يناضل أولا في سبيل حقه في الحياة ضد ممثلي النظام القديم. وهذا النضال لما ينته حتى اليوم، ولن يكون ممكنا قيام مجتمع نظامي جديد، وبناء داخلي جديد، يشغلان المكان الذي شغلته الكنيسة مدى ألف عام إلا عندما ينتهي هذا النضال تماما في عالم السياسة وفي عالم الفكر.

وتكابد حرفة الكهنوت من أمرين، تشاركها في أحدهما بعض الحرف الأخرى، وأما الثاني فخاص بها دون غيرها. أما الأمر الذي تختص به سائر الناس. فلو أخذنا أية مجموعة من الناس العاديين وجعلناها بمعزل عن الباقين، ثم قلنا لهم أنهم يفوقون غيرهم فضيلة لكانت النتيجة المحتومة أن تهبط هذه المجموعة إلى ما دون المستوى العادي من الناحية الخلقية، وهذا أمر قديم مألوف فيما يتعلق بالأمراء، وبهؤلاء الذين جرى العرف على تلقيب كل منهم بالـ "أكبر"، ولكنه ليس أقل صحة فيما يتعلق برجال الكهنوت الذين ليسوا بطبيعة

---

(1) طوائف دينية كانت تستجدي قوتها أشبه بفقراء المتصوفة.

الحال أحسن كثيرا من المعدل كما يظن الناس. أما المصدر الثاني الذي يعود بالضرر على حرفة الكهنوت فهو الأوقاف الخيرية، موجود عين موقوفة على من يناصرون مؤسسة ثابتة من شأنه أن يزيع أحكام الناس فيما يتعلق بقيمة هذه المؤسسة. ويزداد هذا الزيغ حينما يصاحب وجود هذه العين وضع اجتماعي معين وفرص لاستغلال نوع تافه من السلطة. ويبلغ الزيغ أشد حالات السوء حينما يربط القانون بين المؤسسة وبين عقيدة قديمة يكاد يستحيل تغييرها، عقيدة بعيدة كل البعد عن التفكير الطليق في زمننا الحاضر. فهذه الأسباب كلها تعرض للدمار قوة الكنيسة المعنوية.

وليس الخطأ ناشئا عن كون عقيدة الكنيسة غير سليمة بقدر ما هو ناشئ عن مجرد وجود عقيدة، والناس يعرضون أمانتهم الذهنية للخطر بمجرد تقبلهم لعقيدة تافهة تتحكم في اقتصادهم ووظائفهم وسلطتهم، وهم يقولون لأنفسهم أن قبولهم الشكلي لعقيدة ما، يبرره الخير الذي يساعدهم تقبلهم لها على فعله. ويفوتهم إدراك أن أي نقص يعتور سلامة التفكير لدى أولئك الذين تتسم حياتهم العقلية بالحيوية يضع حدا لقدرتهم على فعل الخير، وذلك بما يصيبهم به من فقدان تدريجي للقدرة على تبين وجه الحق بسهولة في أي شيء، وقد كان لصرمة النظام الحزبي نفس هذا الشر في الشئون السياسية ولأن هذا الشر حديث العهد نسبيا، فإن كثيرين يلمسونه، وهم يعتقدون أنه شر لا أهمية له فيما يتعلق بالكنيسة، إلا أن الشر فيما يتعلق بالكنيسة أعظم منه في الشئون السياسية. لأن الدين أكثر أهمية من السياسة، ولأن أئمة الدين يجب أن يتنزهوا عما يدنسهم تنزها تاما، وهذا أمر أكثر لزوما لهم منه للساسة.

والشرور التي تحدثنا عنها تبدو شيئا مرتبطا بوجود هيئة من رجال الكهنوت المحترفين لا تنفصل عنه. فإذا أردنا ألا يكون الدين شيئا ضارا في عالم

سريع التغير، وجب أن يتولى القيام عليه رجال تكون لهم أعمال أخرى خلال الأسبوع. رجال يقومون بعملهم الديني بدافع الحماسة، دون أن يتقاضوا على ذلك أجرا، كما تفعل جماعة الأصدقاء(1)، ولا ينتظر أن يتخلق أمثال هؤلاء الرجال، لمعرفتهم الحياة الاعتيادية، بأخلاق تقادم عليها العهد، ولم يعد أحد يعدها تناسب الحياة العامة. وهم لكونهم أحراراً لن يرتبطوا بالوصول إلى نتائج تقررت مقدما، بل سيكون في مقدورهم أن يفكروا في المشاكل الأخلاقية والدينية تفكيرا طبيعيا غير مصطنع، وبلا ميل. وإذا استثنينا المجتمعات الجامدة كل الجمود، وجدنا أن الناس لا يمكن أن يحيوا حياة دينية، أو أن يجدوا عونا روحيا حقيقيا إلا إذا تحرروا من كابوس رجال الكهنوت المحترفين.

فهذه هي الأسباب التي ترجع إليها، إلى حد بعيد، تفاهة ما يفيد المجتمع مما في الدين وفي الآداب من خير، على أيدي كبار رجال الدين، ونحن لا ننكر أن من بين المؤمنين المحترفين عددا كبيرا مخلصون كل الإخلاص، لا يزالون يشعرون بهذا الإلهام الذي كانت المسيحية تنير به البصائر قبل أن يضعف من شأنها تقدم العلوم، ولهؤلاء المؤمنين المخلصين قيمة كبيرة للعالم، لأنهم يبقون على الاعتقاد بأن الحياة الروحية هي من الأهمية في المرتبة القصوى للرجال والنساء على السواء، وقد كان لبعض هؤلاء المؤمنين، في جميع البلاد المتحاربة الآن، من الشجاعة ما جعلهم يدعون إلى السلام والمحبة باسم المسيح، وقد قاموا بما مكنهم من تخفيف مرارة الكراهية، وهم بهذا يستحقون الثناء كل الثناء، لأن الدنيا بدونهم كانت تصبح شرا مما هي.

إلا أن الروح الجديد المنشود لا يمكن أن يجيء إلى دنيانا حتى على أيدي أعظم المؤمنين المخلصين الشجعان من رجال الديانة التقليدية، ولن يمكن أن

(1) Society of Friends.

يعود الإيمان بالدين على أيديهم إلى أولئك الذين كفروا به بسبب أن عقولهم كانت عقولا حية، وليس لأن أرواحهم كانت أرواحا ميتة. والذين يؤمنون بالدين التقليدي يرنون بأبصارهم بالضرورة إلى الماضي يلتمسون فيه الإلهام أكثر مما يلتمسونه في المستقبل. فهم يبحثون عن الحكمة في تعاليم المسيح، تلك التعاليم التي مهما تكن مثيرة للإعجاب، إلا أنها تعد غير وافية تماما لمواجهة كثير مما جد في الحياة الحديثة من أمور اجتماعية وروحية، فالأناجيل لم يرد فيها ذكر للفنون أو لمسائل الفكر أو مشكلات الحكم، وأولئك الذين يحاولون بكل ما في وسعهم، كتولستوي مثلا، أن يجعلوا الأناجيل هاديهم إلى الحياة، يضطرون إلى اعتبار الفلاح الجاهل خير طراز للإنسان، وإلى اطراح المشكلات السياسية جانبا، في فوضى متناهية لا تؤدي إلى شيء عملي.

ولا مناص لنا من اطراح الكثير مما تعودنا أن نرده إلى الدين، إذا أردنا يوما أن نستحدث وجهة نظر دينية جديدة عن الحياة وعن العالم، تحتل من جديد أذهان الأحرار رجالا ونساء وتوقظ مشاعرهم، وأول التغييرات المطلوبة وأعظمها هو إقامة أسس أخلاقية إيجابية، لا أسس تدعو إلى الخنوع والتسليم، أخلاق يتسامى بها الأمل، لا أخلاق يرتكس بها الخوف، أخلاق تحض على أعمال يجب أن ننهض بها، لا أخلاق تنهي عن أعمال لا يصح القيام بها. أن الإنسان لم يخلق في هذه الحياة ليكون كل عمله فيها أن ينسرق منها حثيثا لكي يتجنب غضب الله. أن الدنيا هي دنيانا نحن، ويتوقف علينا نحن أن نجعلها فردوسا أو جحيما، والقوة اللازمة لذلك هي قوتنا، والملكوت والمجد يمكن أن يكونا ملكوتنا ومجدنا إذا توفرت لنا الشجاعة وبعد النظر لخلقهما. والحياة الدينية التي يجب علينا أن نجري وراءها لن تكون شيئا من هذا الوقار العارض أو الحرمات الخرافية، أنها لن تكون حياة حزن أو حياة زهادة، ولن تهتم إلا

قليلا بمبادئ الأخلاق، أنها يجب أن تستلهم الصورة التي يمكن أن تكون للحياة الإنسانية، وأن تسعد ببهجة الإنشاء، مستروحة أنفاسها في عالم شاسع حر قائم على البناء والأمل، أن أساس هذه الحياة إنما ينبغي أن يكون محبة البشر، لا لمظهرهم الذي يروق العين، ولكن لما يتوسمه الفكر مما يمكن أن يبرزوه من الخير المكنون فيهم. أنها لن تدين بسرعة، بل سوف توجه الثناء إلى العمل الإيجابي، أكثر مما توجهه إلى البراءة السلبية من الذنب، أنها ستسبح ببهجة الحياة، وبالود اللباب، وبالبصيرة البناءة.. بهذه المباهج التي ترد إلى الدنيا شبابها وجمالها، وتملأها بالفتوة.

أن "الدين" كلمة لها معان كثيرة، وتاريخ طويل، وقد كان الدين في أول أمره يهتم بطقوس معينة ورثها الناس عن ماض سحيق، وكانوا يقومون بها لأسباب عفى عليها النسيان منذ زمن بعيد.. أسباب كانوا يحوطونها من حين إلى حين بأساطير شتى ليبرهنوا بها على أهميتها، ولا يزال الكثير من هذه الأساطير موجودا. والرجل المتدين هو الرجل الذي يغشى الكنيسة، أنه واحد ممن يشاركون في العشاء الرباني.. أو أحد الذين يركزون(1)، كما يقول الكاثوليك، أما سلوكه خلافا لذلك، أو إحساسه فيما يتعلق فحياة الإنسان ومكانه في هذا العالم فلا علاقة بموضوع ما إذا كان متدينا، بهذا المعنى الساذج، ولكنه المعنى الصحيح من الوجهة التاريخية مع ذلك. وكثير من الرجال والنساء متدينون بهذا المعنى، دون أن يكون في طبيعتهم أي شيء يستحق أن يسمى دينا بالمعنى الذي أقصده من هذه الكلمة، ومجرد اعتيادهم على الصلاة في الكنيسة جعلهم لا يتأثرون بها. أنهم خالو البال عن التاريخ والخبرة الإنسانية اللذين يجعلان من هذه الطقوس شيئا ذا قيمة، ثم هم لا يتأثرون بأقوال الإنجيل التي تتكرر في

(1) يعظ بما في الإنجيل.

أسماعهم بذلاقة.. تلك الأقوال التي تكاد تدين جميع أعمال أولئك الذين يتوهمون أنهم حواريو المسيح.. وكل الطقوس التي يعتادها الناس تلقى هذا المصير ولابد: ومستحيل أن يكون لطقس من الطقوس تأثيره الأول في نفوس من يمارسونه بعد قيامهم به بهذه الكثرة التي تجعلهم يؤدونه بسببها أداء آليا.

ويمكننا أن نقول أن الناس يصدرون في أعمالهم عن أصول ثلاثة ليس بينها وبين بعض كبير فرق، إلا أنها تتميز من بعضها تميزا يكفي لأن يجعلنا نطلق عليها أسماء مختلفة.. والأصول التي أعنيها هي الغريزة، والعقل، والروح... وحياة الروح من بين هذه الأصول الثلاثة هي التي تصنع الدين.

وتشمل حياة الغريزة كل ما يشترك فيه الإنسان مع الحيوانات الدنيا، أي كل ما له دخل في المحافظة على الذات والتناسل والرغبات والنزعات التي ترجع في الأصل إلى هذه الحيوانات، وهي تشمل الزهو وحب التملك، وحب الأسرة، بل والكثير مما يتكون منه حب الوطن، أنها تشمل جميع النزعات التي لها دخل بخاصة في النجاح البيولوجي للفرد نفسه أو لجماعة هذا الفرد، لأن حياة الغريزة بين الحيوانات التي تعيش في جماعات تشمل الجماعة، والنزعات التي تشملها حياة الغريزة قد لا تؤدي في الواقع إلى النجاح، وفي أحيان كثيرة قد تعمل ضده في الواقع، إلا أنها مع ذاك هي تلك النزعات التي يكون النجاح بالنسبة إليها هو علة الوجود، تلك التي تعبر عن طبيعة الإنسان الحيوانية، وعن مركزه في هذه الدنيا المليئة بالمتنافسين.

وحياة العقل هي حياة الجري وراء المعرفة، من مجرد حب الاستطلاع عند الأطفال إلى أعظم الجهود الفكرية، وحب الاستطلاع موجود عند الحيوانات، وهو يخدم فرصا بيولوجيا واضحا، لكنه لا يتعدى –إلا عند الإنسان– حدود الفحص في بعض الأشياء المعينة، لمعرفة مدى صلاحيتها للأكل، أو لتبين

موقفها إن كانت ضارة أو نافعة، وحب الاستطلاع هو النزعة الأولية التي نشأ منها جهاز المعرفة العلمية كله. وقد تبين أن المعرفة في ذاتها من الفائدة بحيث لم يعد حب الاستطلاع هو الباعث على تحصيلها، بل أن هناك بواعث لا عداد لها تتضافر اليوم في تغذية الحياة العقلية، ومع هذا، فلا يزال حبنا المباشر للمعرفة، وكراهيتنا للخطأ، يلعبان دورهما الضخم، ولاسيما عند أولئك الذين يبذون غيرهم في ميدان التحصيل. ولا يمكن أن يحصل أحد من الناس قدرا كبيرا من المعرفة إلا إذا كان مشغوفا بالتحصيل في ذاته، بصرف النظر عن إدراكه للفائدة التي قد تستخدم هذه المعرفة للحصول عليها. فهذه النزعة إلى تحصيل المعرفة، والأفعال التي تتجمع حولها، تولف ما أعني به حياة العقل. وحياة العقل تتألف من الفكر الذي هو.. كله أو جانب منه.. شيء غير شخصي، بمعنى أنه يهتم بالأشياء في ذاتها، لا لعلاقتها بحياتنا الغريزية.

وتتركز حياة الروح حول الشعور غير الشخصي، كما تتركز حياة العقل حول الفكر غير الشخصي، وفي حدود هذا المعنى تكون الفنون جميعا تابعة لحياة الروح، وإن كان الأصل في عظمتها راجعا إلى كونها مرتبطة ارتباطا وثيقا بحياة الغريزة. فالفن يبدأ من الغريزة ثم يرقى في عالم الروح، والدين يبدأ من الروح، ثم يحاول السيطرة على حياة الغريزة والنفخ فيها، ويمكننا أن نستشعر نفس الاهتمام في أفراح الآخرين وأتراحهم كما نستشعره في أفراحنا وأتراحنا، فنحب ونكره بصورة مستقلة عن كل علاقة بأنفسنا، ونهتم بمصير الإنسانية وتطور الكون، دون التفكير في أننا داخلون شخصيا في ذلك كله. أن الاحترام والعبادة، والشعور بما ندين به للبشرية، وما نحسه من جبر وخضوع وفقا للقوانين التي يفسرها الدين التقليدي على أنها إلهام إلهي.. كل أولئك تابع لحياة الروح، وأعمق من أولئك جميعا يستكن الإحساس بسر لا نعلم غير شطر منه،

سر حكمة مبهمة، ومجد خاف، لرؤيا متغيرة الصورة، تفقد فيها الأشياء المشتركة أهميتها الثابتة، حتى لتصبح قناعا رقيقا نرى خلفه الحقيقة القصوى لهذا العالم في صورة غير بينة.. فمصدر الدين هو أمثال هذه المشاعر التي إذا قدر لها أن تتلاشى، لتلاشى من الحياة معظم ما نعده خير ما فيها.

إن الغريزة والعقل والروح، كلها أمور جوهرية لحياة كاملة، وكل منها له ما له من فساد، وكل منها ممكن أن يبلغ مرتبة زائفة من الفضل على حساب صاحبيه الآخرين، ومن شأن كل منها أن يحيف على صاحبيه، أما في الحياة التي يجب أن نجري وراءها فسوف تكون تنمية الثالثة تنمية متساوية الرتب، وبصورة يندمج فيها الثلاثة في كل واحد منسجم. فالغريزة بين غير المتحضرين لها السلطان الأعلى، ويكاد العقل والروح ألا يكون لهما وجود. أما بين المتعلمين في الوقت الحاضر، فقد تطور العقل بصفة عامة على حساب كل من الغريزة والروح، ونتج عن ذلك حالة من التوحش وموات القلب، حالة من الندرة في الرغبات الشخصية وغير الشخصية تؤدي إلى الاستخفاف والتلف الذهني. فأما بين المتقشفين ومعظم أولئك الذين قد نسميهم قديسين، فقد تطورت الروح على حساب الغريزة والعقل، ونشأت عن ذلك صورة يستحيل أن يسيغها أولئك الذين توفرت لهم حياة حيوانية سليمة، وأولئك الذين توفر فيهم حب التفكير الإيجابي السليم. ونحن لا نستطيع أن نجد الحكمة أو الفلسفة التي تأتي بالحياة الجديدة للعالم المتمدين في أي من هذه التطورات الثلاثة التي تم التطور في كل منها في ناحية واحدة فحسب.

ومن النادر أن نجد بين الرجال المتحضرين والنساء المتحضرات في الوقت الحاضر من تعمل فيهم الغريزة والعقل والروح بصورة متجانسة. وقليلون جدا من اهتدوا إلى الفلسفة العملية التي تعطي مرتبتها الصحيحة لكل من الثلاثة،

والثابت على وجه الإجمال أن الغريزة لاتني تصطرع إما مع العقل، وإما مع الروح، والعقل والروح لا ينفكان يحارب كل منهما الآخر. وتضطر هذه المعركة الرجال والنساء إلى توجيه الكثير من نشاطهم إلى داخل ذواتهم، بدلا من أن يستطيعوا صرف هذا النشاط بأكمله إلى داخل أعمال موضوعية. وحينما يحصل إنسان على شيء من السلام الداخلي المزعزع بقهر جانب من طبيعته، فإن قواه الحيوية تصاب بالعطب، ولا يكون نموه في كمال عافيته كما كان. فإذا أريد للناس أن يكونوا أصحاء، فلا مندوحة من أن نسوي فيهم بين الغريزة، وبين العقل، وبين الروح.

إن الغريزة هي مصدر الحيوية، وهي الرباط الذي يربط بين حياة الفرد، وحياة الجنس، أنها أساس تلك الحاسة العميقة للاتحاد بالآخرين، وهي الوسيلة التي تغذي بها الحياة الجماعية حياة الوحدات المنفصلة. بيد أن الغريزة بمفردها تجعلنا عاجزين عن الهيمنة على قوى الطبيعة، سواء في أنفسنا، أو في بيئتنا الطبيعية، ثم هي تجعلنا مرتبطين إلى النزعة غير المفكرة نفسها التي تنمو بواسطتها الأشجار. وفي قدرة العقل أن يحررنا من هذا الرباط، وذلك بقوة الفكر غير الشخصي الذي يساعدنا على أن نقدر تقديرا محكما الأغراض البيولوجية الخالصة التي تنجذب الغريزة نحوها على غير هدى انجذابا قد يكون قويا وقد يكون ضعيفا. إلا أن العقل، في تصرفه تلقاء الغريزة هو مجرد عقل انتقادي: ففي كل ما لا علاقة بالعاطفة نجد أن نشاط العقل، إذا لم يكبح، يكون عرضة لأن يصبح نشاطا هداما، ولأن يولد استخفافا. والروح ترياق لاستخفاف العقل: فهي تجعل الغلبة للعواطف التي تنبع من الغريزة، وهي بهذا تجعلها لا تتأثر على الإطلاق بالنقد العقلي، وحينما تشيع الروح في الفكر، فإنه يفقد سمته القاسية المخربة، ولا يكون سببا في التعجيل بموت الغريزة، بل هو لا

يعمل إلا على التعجيل بتطهيرها من الإصرار وتحجر القلب، ثم تحريرها من سجن الظروف المفاجئة. أن الغريزة هي التي تهبنا القوة، وإن العقل هو الذي يهبنا وسيلة توجيه القوة إلى الغايات المنشودة، والروح هي التي توحي بالفوائد غير الشخصية للقوة التي تكون من نوع لا يستطيع العقل أن يحط من شأنه بالنقد. وهذا مجمل للأدوار التي يمكن أن يقوم بها كل من الغريزة والعقل والروح في حياة متناسقة.

والغريزة والعقل والروح يساعد كل منها الآخرين حينما يكون تطورها حرا ولا يقف بسبيله شيء، ولكن حينما يدب الفساد في واحد منها، فلن يقتصر الفساد عليه فحسب، بل إن فساده سينتقل إلى الآخرين أيضا، وعلى ذلك فينبغي للثلاثة جميعا أن تنمو جنبا إلى جنب، وإذا أردنا لها أن تبلغ كامل نموها عند أي رجل أو امرأة، فيجب ألا نعزل هذا الرجل أو تلك المرأة بل يجب أن يكون كل منهما فردا في مجتمع لا يعطل فيه النمو، أو يسير فيه في طريق غير سوي.

وتتألف حياة الغريزة، إذا لم يكبح جماحها العقل أو الروح، من دورات غريزية تبدأ بنزعات أفعال محددة متفاوتة، ثم تصبح حالة إشباع لحاجات معينة عن طريق النتائج التي انتهت إليها هذه الأفعال الدافعة. والنزعة والرغبة لا يوجهان نحو الدورة بأجمعها، ولكن نحو بدايتها فقط، أما بقية الدورة فتترك للأسباب الطبيعية.. فنحن نرغب في أن نأكل، لكنا لا نحتاج إلى التغذية إلا إذا كنا أعلاء، ومع هذا فإن الأكل، إن لم يكن المقصود منه التغذية، يكون مجرد متعة مؤقتة، وليس جزءا من نزعتنا العامة إلى الحياة. والناس يرغبون في الاتصال الجنسي، ولكن رغبتهم في إنجاب الأطفال ليست رغبة قوية ولا هي رغبة كثيرة الحدوث. إلا أن الاتصال الجنسي، إذا لم يدفع إليه أمل في إنجاب الأطفال،

وتحقيق هذا الأمل من حين إلى حين، يبقى عند معظم الناس متعة منفصلة قائمة بذاها. لا تربط حياهم الشخصية برباط الحياة الإنسانية، متعة غير مستمرة باستمرار الأغراض الرئيسية التي يعيشون بمقتضاها، وغير قادرة على جلب هذا الإحساس العميق بالعملية كلها التي تبلغ تمامها بإنجاب الأطفال. ويشعر معظم الناس، ما لم تضمر النزعة بسوء الاستعمال، برغبة في خلق شيء ما كبير أو صغير، بحسب قدراهم، وعدد قليل هو الذي يستطيع إشباع هذه الرغبة: وبعض السعداء في مقدورهم أن ينشئوا إمبراطورية، أو أن يبتكروا علما، أو أن ينظموا قصيدة، أو يصوروا صورة، ورجال العلم الذين لا يجدون من الصعوبة في إيجاد متنفس لملكة الخلق عندهم مثل الذي يجده غيرهم، هم أسعد ذوي المواهب العقلية في العالم الحديث، وذلك لأن نشاطهم الخلاف يتيح الرضا التام لعقولهم، ولأرواحهم، ثم لغريزة الإبداع عندهم كذلك(١). ونحن نرى فيهم بداية الطريق الجديد للحياة التي يجب أن نعمل على إيجادها. ونحن قمينون أن نجد في سعادهم جرثومة السعادة المستقبلة لجميع الجنس البشري، أما غير هؤلاء، باستثناء عدد قليل، فغرائزهم الخلاقة معطلة، أنهم لا يستطيعون أن يبنوا بيوهم بأيديهم، ولا أن يغرسوا حدائقهم أو أن يوجهوا عملهم إلى إنتاج ما يمكن أن يقودهم اختيارهم الحر إلى إنتاجه. وبهذه الطريقة، تكبح غريزة القلق وتنحرف جانبا، تلك الغريزة التي كان ينبغي أن تؤدي إلى حياة العقل والروح، وهي تنحرف في أحيان كثيرة جدا إلى التدمير، بوصفه العمل الوحيد الفعال الذي يمكنها القيام به. ومن هزيمتها ينشأ الحسد، ومن الحسد تنشأ النزعة إلى تدمير القدرة الخلاقة عند من كانوا أوفر حظا... وهذا مصدر من أكبر مصادر الفساد

(١) كان واجبا أن أضيف الفنانين إلى من ذكرت، لولا ما يبدو من أن معظم الفنانين المحدثين يلقون من الصعوبة في سبيل الإبداع أكثر مما يلقاه عادة رجال العلم.

في حياة الغريزة.

ولحياة الغريزة أهميتها، لا بالقياس إليها هي بالذات فحسب، ولا بسبب الفائدة المباشرة للأفعال التي توحي بها، ولكن لأنها إن كانت غير مرضية، فإن الحياة الفردية تصبح مفككة ومنفصلة عن حياة الإنسان العامة. وذاك أن جميع الإحساس الحقيقي العميق بالاتحاد مع الآخرين يتوقف على الغريزة، على التعاون أو الاتفاق في بعض الأغراض الغريزية. ويتضح هذا بأجلي صورة في علاقات الرجال بالنساء، والآباء بالأبناء. لكنه صحيح أيضاً في العلاقات الأوسع مدى. أنه يصدق على المجموعات الكبيرة التي تسودها عاطفة قوية مشتركة، بل هو يصدق حتى على أمة بأسرها في أوقات الشدة. أنه جزء مما يجعل الدين بوصفه نظاما اجتماعيا شيئا ذا قيمة. وحيثما فقدنا هذا الإحساس تماما، فإن الناس يبدون بعيدين عنا وبمعزل منا، وحيثما عطلناه تعطيلا قويا فإن غيرنا من الناس يصبحون عرضة لعدائنا الغريزي. وقد تلبس العزلة، أو العداء الغريزي قناعا من الحب الديني، الذي يمكن أن تضيفه على جميع الناس، بصرف النظر عن علاقتهم بنا. إلا أن الحب الديني لا يمكن أن يسد الثغرة التي تفصل بين الإنسان والإنسان، أنه ينظر من العدوة الأخرى لهذه الثغرة، أنه يرمق الآخرين بعين الحنان أو الرأفة غير الشخصية، لكنه لا يعيش مع الحياة نفسها التي يعيشونها... والغريزة وحدها هي التي يمكن أن تفعل ذلك، لكنها لا تستطيع أن تفعله إلا عندما تكون مثمرة وسليمة ومستقيمة. وضروري لكي تبلغ هذه النهاية أن تتم الدورات الغريزية في غالب الحالات، وألا يعترضها معترض في وسط الطريق، فالأغراض التي تصطرع معها لأسباب اقتصادية، أو لأسباب أخرى، تقطع عليها سبيلها في الوقت الحاضر باستمرار، كما يقطعه عليها الجري وراء الملذات التي تقتلع أحسن أجزاء الدورة قابلة، ثم تعطل الجزء

الباقي. وبهذه الطريقة تفقد الغريزة أهميتها وخطوتها، وتصبح عاجزة عن أداء أي عمل حقيقي، كما تفرط مطاليبها في تجاوز حدها على الدوام، ولا تعود الحياة كلا يسير في حركة واحدة، بل تصبح سلسلة من الحركات المفككة، بعضها سار، ومعظمها مفعم بالوهن وتثبيط العزيمة.

وحياة العقل، وإن كانت حياة فاضلة إلى آخر حدود الفضل إلا أنها لا تستطيع أن تضمن سلامة حياة الغريزة إلا عندما تفضي إلى منفذ غير وعر لغريزة الخلق. وهي، بصفة عامة، في غر هذه الحالة، تكون منفصلة انفصالا شاسعا عن الغريزة، شديدة العزلة عنها، شديدة الافتقار إلى النمو الداخلي، بحيث لا تصلح لأن تكون مركبا للغريزة، أو وسيلة لترقيتها أو تهذيبها. والفكر في جوهره انطوائي وغير شخصي، أما الغريزة فهي في جوهرها شخصية مرتبطة بظروف خاصة: وبين الاثنين، ما لم يبلغا كلاهما مستوى رفيعا، حرب لا يمكن إخمادها بسهولة، وهذا هو السبب الأساسي في قيام مذهب الحيوية[١]، والمستقبلية[٢]، والذرائع[٣]، من الفلسفات التي تصف نفسها بأنها فلسفات حية مليئة بالفتوى. وهي كلها تمثل المحاولة لإيجاد أسلوب من الفكر لا يكون معاديا للغريزة، والمحاولة في ذاتها تستحق الثناء، إلا أن الحل الذي تقترحه أبعد من أن يكون حلا مجديا، والذي يقترحونه يساوي إخضاع الفكر للغريزة، ورفض السماح للفكر بتحقيق مثله الأعلى. والفكر الذي لا يرتفع فوق ما هو شخصي لا يكون فكرا بأي معنى صحيح.. بل يكون مجرد استعمال متفاوت في الذكاء للغريزة. والفكر والروح هما اللذان يسموان بالإنسان فوق مستوى البهائم. ونحن بأطراحها جانبا قد نفقد الميزة الحقيقية للإنسان، ثم لا نستطيع

---

(1) Vitalism.
(2) Futurism.
(3) Praqmatism.

الحصول على ميزة الحيوانات. والفكر إنما ينبغي أن يبلغ نماءه الكامل قبل محاولة التوفيق بينه وبين الغريزة.

وحينما يجتمع الفكر المهذب والغريزة غير المهذبة في وقت واحد، كما هي الحال عند كثير من ذوي العقول الراجحة، تكون النتيجة إنكارا تاما لأي خير يمكن أن يتحقق بمساعدة الغريزة. وبعض أمثال هؤلاء يغفلون الغريزة بقدر ما يسعهم، وبسبب ما فطروا عليه، ويصبحون من أهل النسك، بينما يسلم بها غيرهم بوصفها ضرورة، ثم يدعونها بمعزل، ومنفصلة عن كل ما له في حياتهم أهمية حقيقة. وكل من هذين الطريقين يحرم الغريزة من حيويتها، أو يمنعها من أن تكون رابطة بين الإنسان وبين غيره من الناس، وكل منهما ينتج إحساسه بالوحشة الطبيعية.. هوة يمكن أن تتحدث عبرها عقول الآخرين وأرواحهم.. لا غرائزهم. لقد كانت غريزة الوطنية عند كثيرين جدا من الناس، عندما نشبت الحرب، أول غريزة أقامت جسرا على طرفي الهوة.. لقد كانت أول غريزة جعلت الناس يشعرون بوحدة عميقة حقيقية مع غيرهم. وقد ظلت هذه الغريزة، لمجرد كونها جديدة وغير مألوفة في شدتها، غير متأثرة بالفكر، ولا مشلولة أو مسلوبة الحيوية بالشك والانفصال البارد. والإحساس بالوحدة الذي أحدثته يمكن استحداثه بواسطة الحياة الغريزية في الأوقات العادية، إذا لم يكن الفكر والروح يناصبانها العداء. وطالما كان هذا الإحساس بالوحدة مفقودا، فلا يمكن أن تكون الغريزة والروح في تناسق، ولا يمكن أن يكون لحياة المجتمع قوة وبذور النمو الجديدة.

ومن شأن حياة العقل، بسبب انعزالها، أن تفصل بين الإنسان وبين غيره من الناس فصلا داخليا، وذلك طالما تكون غير متوازنة وحياة الروح. ولهذا السبب يستطيع العقل إذا استقل عن الروح، أن يسبب فساد الغريزة، وأن

يلحق بها الهزال، لكنه لا يستطيع أن يضيف أي قدر من الخير إلى حياة الغريزة، ومن هنا عداوة بعض الناس للفكر. إلا أن محاولة الوقوف في سبيل نمو الفكر لا تخدم غرضا ما، فللفكر إصراره الخاص، وإذا صرف عن وجهته التي من شأنه أن يتجه إليها بطبيعته، فإنه يتجه إلى وجهات أخرى حيث يكون أشد ضررا، والفكر في ذاته يشبه الشيء الإلهي: فإذا كان النزاع بينه وبين الغريزة غير قابل للتوفيق، كان الفكر هو الذي يجب أن ينتصر، ولكن هذا النزاع نفسه قابل للتوفيق: وكل ما يلزم لذلك هو أن الفكر والغريزة كليهما يجب أن يستمدا الحيوية من حياة الغريزة.

ولكي تحصل الحياة الإنسانية على الحيوية فلا بد من أن تكون النزعات الغريزية قوية ومستقيمة، ولكن لكي تكون الحياة الإنسانية صالحة فلا بد أن تسيطر على هذه النزعات وتتولاها بالرقابة رغبات أقل شخصية، وأقل قسوة.. أقل قابلية للإفضاء إلى النزاع من تلك الرغبات التي توحي بها الغريزة وحدها. ونحن في حاجة إلى شيء كلي وغير شخصي أولا وقبل كل شيء مما ينشأ عن مبدأ النمو الفردي، وهذا هو ما تمنحنا إياه حياة الروح.

وتقدم لنا الوطنية مثالا من هذا النوع من الرقابة التي نفتقر إليها، والوطنية خليط من عدد من المشاعر والنزعات الغريزية: كمحبة الوطن، ومحبة أولئك الذين لهم مثل عاداتنا ومظهرنا، ونزعة التعاون في جماعة، والإحساس بالكبرياء بالأعمال التي قامت بها الجماعة التي ينتمي إليها الإنسان، فكل هذه النزعات والرغائب، مثلها مثل كل ما هو تابع لحياة الغريزة، نزعات ورغائب شخصية، بمعنى أن المشاعر والأفعال التي تلهمنا إياها نحو الآخرين تتقرر بالعلاقة التي تربط هؤلاء الآخرين بنا، وليس بما عليه هؤلاء في ذاته. وتتحد هذه النزعات والرغائب كلها لتنتج حب الإنسان لوطنه ذلك الحب المنغرس بصورة أعمق في

صميم فؤاده، والمتحد بقوته الحيوية بصورة أدق من أي حب غير منغرس في الغريزة. ولكن إذا لم تتدخل الروح لكي تعمم محبة الوطن فإن قصور الحب الغريزي يجعل محبة الوطن هذه مصدرا لكراهية الأوطان الأخرى. والذي تستطيع الروح القيام به هو أن تشعرنا بأن البلاد الأخرى جديرة بمحبتنا بقدر حبنا لوطننا، وأن الحرارة الحيوية التي تجعلنا نحب هذا الوطن تشعرنا بأنه يستحق هذا الحب، وأن فقد طبيعتنا وحده هو الذي يمنعنا من حب البلاد كلها كما نحب بلدنا. وبهذه الطريقة يمكن أن يمتد الحب الغريزي إلى المخيلة، ويمكن أن ينمو إحساس بقيمة الجنس البشري جميعه، إحساس أكثر حياة وأعمق من أي إحساس آخر يمكن أن يحس به أولئك الذين يكون حبهم الغريزي ضعيفا. أما العقل فلا يستطيع شيئا أكثر من أن يرينا أنه من غير المعقول أن نحب بلادنا أكثر مما نحب البلاد الأخرى. أن في وسعه أن يضعف الوطنية، إلا أنه لا يستطيع أن يقوي محبتنا للبشرية جميعا، والروح وحدها هي التي تستطيع أن تفعل ذلك بإفساح المجال للحب الذي يتولد في الغريزة وإشاعته في آفاق العالم. فهي تكبح وتطهر كل ما هو جامح أو متحجر أو شخصي بصورة صعبة الاحتمال في حياة الغريزة.

وإفساح المجال عن طريق الروح على هذا النحو نفسه ضروري لأنواع الحب الغريزي الأخرى، إذا أردنا ألا يضعفها الفكر أو ألا يفسدها. ومن الممكن أن تكون المحبة بين الزوجين شيئا طيبا جدا، وحينما يكون الرجال والنساء بدائيين بدرجة كافية، فلا يلزمهم إلا الغريزة والحظ الطيب لكي يصل هذا الحب إلى درجة محدودة معينة من الكمال. ولكن عندما يبدأ الفكر في تأكيد حقه في نقد الغريزة فإن البساطة القديمة تصبح مستحيلة. والحب بين الزوج والزوجة، الذي تدعمه الغريزة غير المكبوتة وحدها، هو حب ضيق

وشخصي إلى حد لا يستطيع معه أن يقف لسهام النقد إلا إذا شدت حياة الروح من أزره. والفكرة الرومنسية عن الزواج –وبالأحرى تلك الفكرة العاطفية التي يعترف آباؤنا وغيرهم أنهم يؤمنون بها– تتلاشى بمجرد سيرنا في شارع قام على جانبيه عدد من (الفللات) يسكن كلا منها زوجان لم يكادا يتخطيان عتبة بابهما لأول مرة حتى أخذا يهنئان نفسهما بما سوف ينعمان به ثمة من حب ترفرف عليه أجنحة الوئام، دون أن يعكر صفوهما معكر، ودون أن يكون لهما شأن بهذا العالم الخارجي البارد..! فهذا الانطواء، وذاك العبوس، والأسماء الطريفة التي نطلقها على ما يتصف به أولئك الذين يحسبون أنفسهم خلف جدران أربعة في آلاف وآلاف من المنازل الخلاوية الصغيرة من ألوان الجبن والتهيب الذميم.. كل هذا ينكشف في برود وبلا رحمة لأولئك الذين تسيطر فيهم عقولهم على حساب أرواحهم.

وليس شيء صالح في حياة أحد من الناس إلا ما تستطيع طبيعته أن تقوم به على الوجه الأكمل. وكلما تقدم الناس، أصبحت الأشياء التي كانت صالحة من قبل غير صالحة، وذلك لمجرد إدراكهم أن أشياء خيرا منها هي في الإمكان. وهذا هو نفس الحال بالقياس إلى الغريزة: فكثير مما كان جيدا حقا عندما كان العقل أقل تطورا أصبح الآن رديئا في نظر أولئك الذين رزقوا حياة عقلية قوية، وما ذلك إلا لارتقاء درجة علمهم بحقيقة هذا العالم، والرجل الذي يحب حبا غريزيا يشعر أن عاطفته لا نظير لها، وأن مالكة فؤاده لها من المحاسن التامة ما لم يتيسر مثله لامرأة من قبل. والرجل الذي ملك ناصية الفكر غير الشخصي، يدرك، عندما يشغفه الحب، أنه واحد من ملايين كثيرة جدا من الرجال الذين يشغفهم الحب مثله في تلك اللحظة، وأنه ليس ثمة أكثر من رجل واحد من هذه الملايين كلها يمكن أن يكون على حق إذا زعم أن حبه أسمى من حب

الجميع، وأنه لا يخلق به أن يظن نفسه هذا الواحد. أنه يدرك أن حالة الوقوع في الحب عند أولئك الذين لا تتأثر غريزتهم بالفكر ولا بالروح هي حالة من التوهم تخدم أهداف الطبيعة، وتجعل الرجل عبدا لمبدأ بقاء الأنواع، لا خادما مختارا للأهداف غير الشخصية التي يرى أنها أهداف صالحة، والفكر يرفض هذه العبودية، لأنه ما من هدف يمكن أن تنتويه الطبيعة إلا ويأبى الفكر أن يتنازل، أو أن يغضي عن حقه في التفكير فيه بأمانة. أن دين الفكر الذي أخذت تحترق في لهبه اللافحة حثالة العالم اليوم هو ما يتردد في خاطر كل رجل مفكر: "خير للعالم أن يهلك من أن أؤمن، أنا، أو أي إنسان آخر، بأية كذبة من الأكاذيب". وهذا دين جيد، ينبغي أن يتم عمله التدميري، لكنه ليس كل ما تمس حاجة الإنسان إليه، فالنمو الجديد ينبغي أن يتبع الهدم، والنمو الجديد لا يمكن أن يجيء إلا عن طريق الروح.

أن لكل من الوطنية، والحب بين الرجل والمرأة، حينما يكونان مجرد شيء غريزي، نفس هذه العيوب: لهما نصيبهما من العزلة، ومن الجدران الأربعة المغلقة، ومن عدم المبالاة بالعالم الخارجي، أو مناصبة هذا العالم العداء. فالوطنية والحب بين الرجل والمرأة هما اللذان يدفعان الفكر إلى التنديد بالناس، وهما الأصل في هذا التلهي الضاحك بما اعتاد الناس أن ينطووا عليه من أقدس المشاعر. ولا بأس بذلك التنديد وهذا التلهي، ولكن البأس في موت الغريزة، ذلك الموت الذي قد يتسببان فيه، إذا بقى لهما السلطان الأعلى. أن لذلك التنديد وهذا التلهي ما يبررهما، لا بوصفهما الكلمة الأخيرة للحكمة. ولكن بوصفهما المخرج الذي ينفذ الناس من آلامهم خلاله، إلى حياة جديدة تتطهر فيها الغريزة، وتغذيها، مع ذاك، رغبات أعمق، وبصيرة روحية أبعد مدى.

والرجل الذي تجيش جوانبه بحياة الروح ينظر إلى الحب، بالقياس إلى نفسه

وإلى غيره، نظرة تختلف جد الاختلاف مما ينظر إليه الرجل الذي يسيطر عليه العقل سيطرة تجعله بمعزل من الناس. أنه يرى، في اللحظات التي تتألق فيها بصيرته. أن في البشر جميعا شيئا جديرا بالحب، شيئا مبهما جذابا.. صرخة في صميم الليل.. رحلة يتحسس القائمون بها طريقهم في الظلام.. نصرا محتمل النوال. فإذا أحبت غريزته راح يرحب بمساعدتها في النظر إلى قيمة الكائنات البشرية الذين يحبهم والشعور بهذه القيمة. وفي هذه الحالة تصبح الغريزة مددا للبصيرة الروحية، فالذي تنبئه الغريزة به، تؤيده البصيرة الروحية، مهما كان إدراك العقل للدقائق، والتحديدات، والجدران المغلقة التي تمنع الروح من إرسال أشعتها. وتقدس روحه في الناس جميعا ما تريه غريزته ما هو من موضوع حبه.

وحب الآباء لأبنائهم محتاج إلى إعادة التجديد نفسه. فالحب الغريزي الذي لا تشوبه شائبة، ولا يكبح جماحه الفكر، ولا تشوبه الروح، هو حب انطوائي، متحجر العاطفة، جائر. والوالد الذي يحب أبناءه هذا الحب الغريزي الخالص لا يشعر بأن ثمة أية فائدة تعود على الآخرين تستأهل أن تلحق الضرر بأولاده. والشرف والأخلاق التقليدية تضع تحديدات هامة معينة عملية لهذه الأنانية التي يؤثر بها الآباء أبناءهم، وذلك مذ كان المجتمع المتحضر يحتم حدا أدنى قبل أن يمنح احترامه لأي إنسان. إلا أن المحبة الأبوية، حينما تكون مجرد محبة غريزية، تتحرى منفعة الأبناء دون أي اعتبار للآخرين، وذلك في الحدود التي يسمح بها الرأي العام. ويستطيع العقل إضعاف نزعة الناس إلى الظلم، وتوهين سطوة الحب الغريزي، إلا أنه لا يستطيع الإبقاء على سطوة الحب الغريزي كلها، وتوجيهها إلى أهداف أكثر انتشارا. والذي يستطيع ذلك هو الروح. فهي تستطيع أن تدع الحب الغريزي دون أن يذهب بروائه شيء، ثم توسع نطاق الولاء المتوقد للأب حتى يشمل العالم كله، وسيحفز الحب الأبوي

نفسه الوالد الذي يملك حياة الروح، فيهب أبناءه الإحساس بالعدالة، والتأهل للخدمة، والوقار، والإرادة التي تضبط الأنانية... هذه الصفات التي يشعر أنها أجدى بكثير من أي ظفر شخصي.

لقد قاست حياة الروح في الأزمة الحديثة بالجمع بينها وبين الدين التقليدي، وبعداوتها الواضحة لحياة العقل، وبما أخذ يبدو من أنها تتركز في إنكار الذات. أن حياة الروح تتطلب الاستعداد لإنكار الذات، حينما تتيح الفرصة، إلا أنها في جوهرها يقينية بقدر ما هي قادرة على أغناء الوجود الفردي، شأنها في ذلك شأن العقل الغريزي، أنها تجلب معها بهجة الرؤيا، وما في هذا العالم من بهجة الغموض والعمق، وبهجة التأمل في الحياة.. وفوق كل شيء.. بهجة الحب العالمي. أنها تحرر أولئك الذين يحصلون عليها من سجن العاطفة الشخصية المثابرة، والاهتمامات الدنيوية، أنها تمنح الحرية وسعة الأفق والجمال لأفكار الإنسان ومشاعره، ولجميع علاقاتها بالآخرين، أنها تهيئ الحلول لشكوكنا، وتضع حدا لهذا الشعور الذي يخيل لنا أن كل ما في هذه الدنيا هو متاع الغرور. أنها تعيد الانسجام بين العقل والغريزة، وترد الشارد إلى مكانه في حياة الإنسانية. أن الذين ولجوا يوما في عالم الفكر ليؤمنون بأن السعادة والسلام لا يمكن أن يعودا إلى هذه الدنيا إلا عن طريق الروح.

الفصل الثامن

الذي نستطيع عمله

كثير من الناس رجالا ونساء يريدون خدمة الجنس البشري، ولكنهم في حيرة من أمرهم ويبدو مجهودهم كأنما هو قطرة في محيط فيتملكهم اليأس. وأولئك الذين يرغبون في ذلك أشد الرغبة يكون شعورهم بالعجز أقسى ويكونون أقرب للوقوع فريسة للانهيار الروحي بسبب يأسهم.

وطالما كنا نفكر في المستقبل القريب فقط فإن ما نستطيع عمله يبدو ضئيلا، والراجح أنه من المستحيل أن نضع حدا للحرب القائمة. ولن نستطيع القضاء على السلطان المفرط الذي تتمتع به الدولة والملكية الخاصة كما أنه ليس في مكنتنا أن نبث روحا جديدا في التعليم خلال أيام قليلة. ففي مثل هذه المسائل قد نرى الضرر ولكننا لن نستطيع أن نفعل شيئا للقضاء عليه سريعا بالوسائل السياسية العادية. ويجب علينا أن نسلم بأن العالم يحكم اليوم بروح خبيث غير الروح الذي ينبغي أن يحكم به، وأن تغيير هذا الروح أمر لا يمكن أن يتم بين يوم وليلة. أن أملنا يجب ألا ينصب على الغد القريب ولكن على الوقوف الذي يصبح فيه ما يؤمن به الآن عدد قليل من الناس اعتقادا شائعا يؤمن به الكثيرون. فإذا توفرت لدينا الشجاعة والصبر لجعلنا من الأفكار التي تراودنا والآمال التي تدور بصدورنا حافزا يلهم الناس –إن عاجلا أو آجلا– فيصبح الفتور واليأس نشاطا وهمة. لذلك كان أول واجب علينا هو أن نحدد في أذهاننا تحديدا جليا نوع الحياة التي نعتقد أنها خير للبشر، ونوع التغيير الذي نريد إحداثه في هذا العالم.

أن القوة البالغة التي يمكن أن يصل إليها ذوو التفكير الحيوي لأكثر بكثير في نهاية الشوط مما قد يبدو للذين يقاسون من الأوضاع السياسية الحاضرة، تلك الأوضاع التي يحار العقل في تفسيرها. لقد كان التسامح الديني يوما ما خاطرا يدور في خلد بعض الفلاسفة الجسورين في خلوتهم. وقد نشأت الديمقراطية كنظرية بين حفنة من الرجال في جيش كرومويل ثم انتقلت معهم إلى أمريكا بعد عودة الملكية، وفي أمريكا كان من ثمارها حرب الاستقلال، ومن هناك حملها لافاييت وفرنسيون آخرون ممن حاربوا مع واشنجتون إلى فرنسا حيث تأقلمت مع تعاليم روسو فنفخت في الفرنسيين روح الثورة. والاشتراكية -أياً كان رأينا في مزاياها- قوة عظيمة نامية تعمل على تغيير الحياة الاقتصادية والسياسية، وهي مدينة بنشأتها إلى عدد قليل جدا من المفكرين المتفرقين. والحركة التي قامت ضد إخضاع المرأة للرجل، تلك الحركة التي أصبحت لا تقاوم ولم يعد بينها وبين النصر الكامل إلا خطوات، قام بها نفر ضئيل من أصحاب النظريات المثالية غير العملية أمثال ماري وولستونكرافت وشلي وجون ستيوارت مل. أن قوة الفكر هي -مع مرور الوقت- أعظم ما لدى البشر من قوى. وأولئك الذين رزقوا القدرة على التفكير والخيال الذي يجعلهم يفكرون فيما يحتاج الناس إليه هم أقرب إلى تحقيق ما يهدفون إليه من خير في الحال وفي المستقبل، وإن كان الراجح ألا يتحقق هذا وهم أحياء.

ولكن ليعلم أولئك الذين يريدون أن يكسبوا الدنيا عن طريق الفكر أنها لن تسارع إلى تأييدهم فيما يريدون. ومعظم الناس يمضون في هذه الحياة دون أن يكثروا من التساؤل، فهم يقبلون المعتقدات والأمور التي يمارسها الناس واهمين أن الدنيا ستكون حليفتهم إذا هم لم يقفوا منها موقف المعارضة.

أن الأفكار الجديدة عن العالم الذي نعيش فيه لا تتفق وهذا التسليم الذي

لا يكلف صاحبه عناء، فهي تتطلب عزلة ذهنية من نوع معين، ومجهودا موحدا من نوع خاص، وقوة الإحساس الداخلي بالسيطرة على الدنيا وما تتمخض عنه من أحداث. أننا لا نستطيع أن نصل إلى فكرة جديدة إلا إذا رضينا إلى حد ما بالوحدة. ولن يكون لهذه الخلوة من فائدة إذا اختلط معناها بالترفع والاعتزال بحيث تموت في الإنسان الرغبة في الاتحاد مع الآخرين، أو إذا تحولت العزلة الذهنية إلى ازدراء. والسبب في ندرة التفكير المثمر في الشئون الإنسانية، وفي أن الجمهرة من أصحاب النظريات هم إما من المحافظين على التقاليد وإما من الذين أدركهم العقم، هو أن المنزلة التي نريد أن يبلغها عقل الإنسان منزلة دقيقة صعبة المرتقي، وأن ما نريده له من خلوة ذهنية تقطعه عن العالم، شيء ليس يسير التحقيق. أن هذا النوع من الفكر السليم نادر وصعب ولكن لا يعجز عن أن يؤتي ثماره، فلا داعي إذن لأن يقعدنا الخوف من العجز عن أن فكر، إذا توفرت لدينا الرغبة في أن نأتي بأمل جديد إلى هذا العالم.

وليس الذي يعنينا عند البحث عن نظرية سياسية تصلح لوقت معين هو ابتكار مدينة فاضلة أو يوتوبيا جديدة، ولكن الذي يعنينا هو اكتشاف خير اتجاه للحركة. فإن الاتجاه الذي يصلح لوقت ما قد يختلف ظاهريا اختلافا كبيرا عن الاتجاه الذي يصلح لوقت آخر.

لهذا كان التفكير المثمر هو التفكير الذي يرشدنا إلى الاتجاه الصحيح في الوقت الحاضر. وثمة مبدآن عامان يصلحان دائما للحكم على أي الاتجاهات هو الاتجاه الصحيح، أما هذان المبدآن فهما:

١- وجوب العمل على تشجيع النمو والحيوية لدى الأفراد والجماعات إلى أقصى حد ممكن.

٢- وجوب مراعاة ألا يكون نمو جماعة أو فرد على حساب جماعة أخرى أو

فرد آخر إلا إلى أقل قدر ممكن.

والمبدأ الثاني من هذين المبدأين، عندما يطبقه الفرد في معاملاته مع الناس، هو مبدأ "الاحترام" الذي يعني أن حياة أي شخص آخر لها نفس الأهمية التي نعلقها على حياتنا. وهو نفسه عندما يطبق بطريقة غير شخصية في الشئون السياسية، مبدأ الحرية، أو على الأصح يكون مشتملا على مبدأ الحرية كجزء منه. والحرية في ذاتها مبدأ سلبي، فهي تتطلب منا ألا نتدخل في شئون الغير، ولكنها لا تهيئ لنا أساسا نبني عليه. فهي ترينا أن كثيرا من النظم السياسية والاجتماعية لا خير فيها، ولكنها لا تدلنا على ما ينبغي أن نحله محلها. ولهذا السبب كان علينا أن نجد مبدأ آخر يكمل مبدأ الحرية، إذا كنا لا نريد أن تكون نظريتنا السياسية معولا للهدم فقط.

والجمع عمليا بين المبدأين اللذين ذكرناهما ليس أمرا سهلا. فقدر كبير من الطاقة الحيوية في العالم تندفع في طرق عدوانية. وقد أثبت الألمان أن الطاقة الحيوية تتوفر لديهم بشكل غير عادي، ولكن لسوء الحظ تأخذ هذه الطاقة صورة لا تتفق وحيوية جيرانهم. وفي أوروبا على العموم طاقة حيوية أكبر مما في أفريقيا، ولكن هذه الطاقة تستعمل لاستنزاف كل أنواع الحياة من أفريقيا عن طريق التصنيع، حتى ذلك النوع من الحياة التي تمد مشروعات أصحاب الملايين من الأمريكان بالأيدي العاملة الرخيصة. ولقد كانت حيوية الرجال في الماضي عائقا في سبيل تطور المرأة، ومن الممكن أن يصبح النساء في المستقبل القريب في نفس الوضع بالنسبة للرجال. ولمثل هذه الأسباب كان مبدأ "الاحترام" من الأهمية بمكان كبير على الرغم من أنه في حد ذاته ليس كافيا، وهو كفيل بأن يدلنا على كثير من التغييرات السياسية التي يحتاج إليها العالم، ولعل الذي نحتاج إليه، لكي نبلغ بكلا المبدأين إلى حد الرضا تقريبا، هو عملية

توحيد وتكامل، توحيد حياتنا كأفراد وتكاملها أولا، ثم توحيد حياة الأمة وحياة العالم وتكاملهما بعد ذلك، دون ما تضحية للفردية. فينبغي أن تتسم حياة الفرد وحياة الجماعة بل حياة الجنس البشري كله بنوع من الوحدة، لا أن تكون عددا من الشظايا المتفرقة. وعندما تصبح المسألة على هذه الصورة فإن نمو الفرد لا يجد ما يعوقه، ولا يتعارض مع نمو الأفراد الآخرين. ويمكننا بهذه الطريقة أن نوائم بين المبدأين.

وتتكامل حياة الفرد بوجود غرض إنشائي متصل أو اتجاه لا شعوري. فالغريزة وحدها لا تكفي لأن تهيئ الوحدة لحياة الرجل المتمدين أو المرأة المتمدينة. بل يجب أن يكون هناك هدف غالب، أو طموح، أو رغبة في الخلق الفني أو العلمي، أو عقيدة دينية، أو روابط عاطفية قوية دائمة. ووحدة الحياة عسيرة على أولئك الذين قاسوا مرارة نوع معين من الإخفاق، ذلك الإخفاق الذي نتج عن كبت لما كان يجب أن يصبح النزعة السائدة لديهم، فأصارها عقيما. وتسبب معظم المهن هذا النوع من الإخفاق من بداءة اشتغال أصحابها بها. فإذا اشتغل الإنسان بالصحافة فقد يجد نفسه مضطرا لأن يكتب في جريدة لا يميل إلى سياستها، وهذا يقضي على كبريائه المهنية وإحساسه باستقلاله. ويجد معظم المشتغلين بالمهن الطبية أن النجاح عسير جدا دون الالتجاء إلى التهويش الذي يحطم ما قد يكون لديهم من ضمير علمي. ورجال السياسة لا مفر لهم من قبول برامج الأحزاب التي ينتمون إليها على علاتها، وليس هذا فقط، بل هم مضطرون أيضاً إلى الظهور بمظهر القديسين إرضاء للمتدينين، ولا يكاد يفوز بعضوية البرلمان سوى المرائين. فليس في أية مهنة احترام للكبرياء الذاتية التي بدونها لا يمكن أن يظل الإنسان مكتملا، إذ تسحق الدنيا هذه الكبرياء لأنها تدل على الاستقلال، والناس يرغبون في استعباد الآخرين أكثر مما

يرغبون في الحرية لأنفسهم. أن الإحساس الداخلي بالحرية لا حدود لقيمته والمجتمع الذي يحافظ على هذه الحرية لهو مجتمع مرغوب فيه رغبة لا نهاية لها.

أن جوهر النمو في الإنسان لا يقضي عليه، بالضرورة الحيلولة بينه وبين عمل شيء معين، ولكن الذي يقضي عليه هو إرغامه على أن يعمل شيئاً آخر. وإن ما يحطم النمو هو الأشياء التي تولد في النفس الشعور بالعجز في المجالات التي تصبو النزعة الحيوية إلى أن يكون لها أثرها فيها. وأسوأ هذه الأشياء هو ما تقبله الإرادة، فكثيرا ما يحدث بسبب جهل المرء حقيقة نفسه، أن تكون إرادة الإنسان في مستوى أقل من نزعته، فتكون نزعته تواقة للخلق، بينما إرادته تهدف نحو حياة عادية تكفل له دخلا يكفيه، كما تكفل له احترام معاصريه: صورة للحياة المهنية الطيبة وضعت أمام عينيه وهي لا تزيد في حقيقتها عن تلك الصور الرخيصة التي ينتجها فنان لإرضاء الجمهور. هذا في حين أن كثيرا من الناس ممن ليسوا فنانين فيهم شيء من النزعة المحددة المعالم التي لدى الفنان الأصيل، ولأن النزعة مستقرة في أعماق النفس لا يرتفع لها صوت، ولأن ما يسمونه بالرأي السليم يكون عادة ضدها، ولأن الشباب في مستهل حياته لا يستطيع أن يتبع نداء نزعته إلا إذا كان مستعدا لأن يفضل إحساساته الغامضة غير المؤكدة على حكمة الشيوخ وحنكتهم ونصائح الأصدقاء، تكون النتيجة أنه في تسعة وتسعين في المائة من الحالات تتحطم من مبدأ الأمر النزعة الإنشائية التي كان من الممكن أن تنبثق منها حياة حرة مليئة بالحيوية. فيرضى الشباب أن يكون آلة بدلا من أن يكون عاملا، أن يكون وسيلة يستعملها الآخرون لتحقيق أغراضهم بدلا من أن يعمل ما تصبو إليه طبيعته هو، وفي اللحظة التي يرضى فيها بهذا الوضع يموت شيء في نفسه ولن يستطيع بعد ذلك أبدا أن يصبح رجلا مكتملا، ولن يعود إليه أبدا احترامه لنفسه كاملا، ولا

هذه الكبرياء الكريمة التي ربما كانت قد أبقت على سعادته الروحية على الرغم من المصاعب والمزعجات الخارجية، إلا إذا بدل من طريقة حياته وأدخل عليها تغييرا أساسيا.

أن أوامر التحريم التي تأتي من الخارج، والتي لا تستجيب لها إرادة الإنسان، لأقل ضررا بما لا يقاس من المؤثرات الخفية المتسللة التي تضل الإرادة وتغريها. أن فشل الشاب في حب عميق قد يحز في نفسه ويؤلمه ألماً شديدا، ولكن الضرر الذي قد يحدثه الإخفاق في الحب لشاب مملوء حيوية لا يقاس بالضرر الذي يصاب به إذا تزوج من أجل المال. أن تحقيق هذه الرغبة المعينة أو تلك ليس هو المهم: ولكن المهم هو الاتجاه، هو نوع الفاعلية التي يسعى إليها، فعندما تقف الإرادة في وجه النزعة، تصبح النزعة عاجزة، إذ تفقد الأمل الذي يجعل منها قوة دافعة. والإرغام الذي يأتي من الخارج لا يترك هذا الأثر الضار، إلا إذا نتج عنه نفس الشعور بالعجز، ولن ينتج عنه هذا الشعور إذا كانت النزعة قوية جريئة. إن ما يصيب رغبات الإنسان الخاصة من خيبة أمل لا يمكن تجنبه حتى في أحسن مجتمع ممكن تصوره، ما دامت رغبات بعض الناس تؤدي –إذا لم تكبح– إلى اضطهاد الآخرين وفنائهم. وفي أي مجتمع فاضل ما كان يسمح لنابليون أن يحترف المهنة التي اختارها لنفسه، ولكنه ربما كان وجد السعادة كرائد من الرواد في غرب أمريكا، ولم يكن ممكنا أن يكون سعيدا لو أنه عمل كاتبا في المدينة. وليس ثمة نظام اجتماعي محتمل يرغمه على أن يكون كاتبا في المدينة.

ويتطلب تناسق حياة الفرد أن تجمع حياته بين ما قد يكون لديه من نزعات إنشائية وبين تعليم يعمل على الكشف عن هذه النزعات. ويتطلب تناسق المجتمع أن تشترك النزعات الإنشائية المختلفة لدى أشخاص مختلفين في

العمل معا نحو نوع من الحياة المشتركة، أو هدف مشترك –عن وعي أو غير وعي– يجد فيه كل فرد من أفراد المجتمع ما يساعده على تحقيق غايته. وتتكون معظم أنواع النشاط المنبعثة من نزعات حيوية من جزءين: أحدهما إنشائي، وهو الذي يعمل على نمو الشخص نفسه، والأشخاص الآخرين الذين لديهم نفس النزعة أو نفس الظروف، والثاني اقتنائي وهو الذي يعرقل حياة الآخرين ممن لديهم نزعات أو ظروف مختلفة. ولهذا قد يكون جزء كبير من القوى الحيوية الخالصة –رغم كونها كذلك– أداة تعمل ضد الحياة، كما فعلت حركة البيوريتان (الطهريين) في انجلترا إبان القرن السابع عشر مثلا، أو كما تفعل القومية في أوروبا كلها اليوم. فمن السهل أن تؤدي الحيوية إلى النزاع والظلم وبالتالي إلى ضياع الحيوية. وتعمل الحروب عندما تندلع نيرانها على توحيد الشعب وتنسيقه ولكنها تعمل على انحلال العالم، وبمضي الزمن، تعمل على انحلال الشعب نفسه، إذا كانت حربا شديدة الوطأة كالحرب الحالية.

وقد بينت الحرب للناس بوضوح أنه مستحيل قيام تفاهم مؤكد في حياة أي مجتمع ما دامت العلاقات بين الدول المتمدينة يسودها الاعتداء والريبة، ولهذا السبب لن تقوم قائمة لأي حركة قوية حقيقية للإصلاح إلا إذا كانت حركة دولية، إذ أن أية حركة من هذا النوع إذا كانت مجرد حركة قومية يكون ما لها الإخفاق بسبب الخوف من الخطر الخارجي. وعلى أولئك الذين ينشدون عالما أفضل، أو حتى تغييرا أساسياً داخل أوطانهم، أن يتعاونوا مع من لديهم نفس الأهداف في الدول الأخرى، وأن يبذلوا معظم جهدهم للقضاء على ذلك العداء الأعمى الذي زادته الحرب حدة. ولن نجد ما يحقق غاية أملنا في تلك المحاولات الجزئية للإصلاح التي تؤدي إليها القومية وحدها. فالمشكلة سواء كانت دولية أو وطنية أو كانت متعلقة بحياة الفرد، هي المحافظة على الناحية

الإنشائية في النزعات الحيوية، والعمل في نفس الوقت على توجيه الناحية المدمرة الموجودة حاليا وجهة أخرى.

ويمكن تقسيم نزعات الناس ورغباتهم إلى إنشائية واقتنائية، إذ أن بعض نشاطنا موجه لخلق أشياء غير موجودة، وبعضه موجه نحو الحصول على أشياء موجودة أو الاحتفاظ بها. أن النزعة الإنشائية المثالية هي نزعة الفنان، وأحسن مثل للنزعة الاقتنائية هي الملكية. وأفضل حياة هي التي تلعب النزعة الإنشائية فيها الدور الأكبر، والتي تلعب النزعة الاقتنائية فيها دورا صغيرا جدا، وخير الأنظمة هي التي تؤدي إلى أكبر قدر ممكن من الإنشاء، وإلى أقل قدر ممكن من الاقتناء الذي يتفق والمحافظة على النفس إذ أن الاقتناء قد يكون لغرض الدفاع كما قد يكون لغرض التعدي، فهو في القانون الجنائي عنصر دفاعي، وعند المجرمين أداة تعدي. وقد توافق على أن القانون الجنائي أقل فظاعة من المجرم، وأن الاقتناء الدفاعي لا يمكن تجنبه طالما كان هناك اقتناء اعتدائي، إلا أنه حتى الاقتناء الدفاعي البحت في أنقى صوره ليس في ذاته مدعاة للإعجاب، إذ في اللحظة التي تصبح فيها العوامل الاقتنائية على شيء من القوة تصير معادية للنزعات الإنشائية، أن أياً ممن عرفوا النزعة الإنشائية القوية تبينوا قيمة هذه الوصية التي تقول: "لا تفكر فيما ستأكل أو تشرب أو ماذا تلبس" بمعناها الحرفي الدقيق: أن الانشغال بالاقتناء هو الذي يمنع الناس من الحياة الحرة النبيلة. والدولة والملكية هما الرمزان الكبيران للاقتناء، ولهذا السبب فهما يعملان ضد الحياة، ونتيجتهما الحرب. فالاقتناء هو أخذ شيء أو الاحتفاظ به ومنع الآخرين من التمتع به، والإنشاء هو إضافة شيء جميل إلى الدنيا فيتمتع به الناس لوجوده. ولما كانت العروض المادية في الدنيا يجب أن توزع على الناس، ولما كان بعض الناس بطبيعتهم مغتصبين، فلابد من وجود الاقتناء

الدفاعي الذي ينبغي تنظيمه في المجتمع الفاضل على أساس من العدالة الخالصة. ولكن كل هذا ليس سوى مظهر للحياة الفاضلة أو النظام السياسي الفاضل، حيث يزيد الإنشاء في جملته على الاقتناء وتصبح العدالة بين الناس هي الأمر الطبيعي.

وينبغي أن يكون المبدأ السائد في السياسة وفي الحياة الخاصة هو العمل على تنمية كل ما هو إنشائي، وبالتالي الإقلال من النزعات والرغبات الاقتنائية. والدولة في شكلها الحالي رمز للنزعات الاقتنائية إلى حد بعيد، فهي في الداخل تحمي الغني ضد الفقير، وفي الخارج تستعمل القوة لاستغلال الشعوب الضعيفة ولمنافسة الدول الأخرى. ونظامنا الاقتصادي كله قائم على الاقتناء وحده، ومع ذلك فإن إنتاج السلع إنشاء، ولولا أنه عمل آلي بحت وممل لكان من الممكن أن يصبح أداة لتنشيط النزعة الإنشائية، ويمكن أن نجني كثيرا في هذا الاتجاه لو أن منتجي كل سلعة كونوا نوعا من المجتمع الديمقراطي المستقل فيما بينهم، تحت إشراف الدولة، فيما يختص بثمن السلعة، لا في طريقة إنتاجها.

أما التعليم والزواج والدين فهي في أساسها أمور إنشائية، ولكن تدخل الدوافع الاقتنائية أفسدها جميعا. فالتعليم يعتبر عادة وسيلة لإبقاء الحالة على ما هي عليه، وذلك بغرسه للتحيز، بدلا من خلقه للفكر الحر وللنظرة النبيلة للأمور، عن طريق إيجاد المشاعر الكريمة وبث روح المغامرة العقلية. وفي الزوج نجد الحب، وهو إنشائي، مقيدا بسلاسل الغيرة وهي اقتنائية. والدين الذي ينبغي أن يعمل على تحرير التصور الروحي الإنشائي، يوجه جهوده إلى كبت حياة الغريزة ومكافحة الفكر الهدام. وفي كل ما تقدم يحل الخوف الناشئ عن عدم ثبات الملكية محل الأمل الذي توحي به القوى الإنشائية. ونحن نعلم أن الرغبة في اغتصاب مال الغير شيء من الوجهة النظرية. ولكن خوف الناس من

أن يغتصب ماهم لا يقل سوءا. ومع ذلك فإن هذين الدافعين يتحكمان فيما بينهما في تسعة أعشار الشئون السياسية والحياة الخاصة.

أن النزعات الإنشائية لدى مختلف الناس متناسقة أصلا، إذ أن ما ينشئه شخص لا يمكن أن يكون عائقا في سبيل ما يرغب شخص آخر في إنشائه. والنزعة الاقتنائية هي التي تسبب النزاع، وعلى الرغم من أن النزعتين الإنشائية والاقتنائية متضادتان من الناحية الخلقية والسياسية إلا أنهما من الناحية السيكولوجية متقاربتان، فقد تنقلب أي منهما فتصبح الأخرى حسب الحوادث والظروف والفرص. وينبغي دراسة تكوين النزعات والأسباب التي تعمل على تحويلها، كما يجب أن نعمل على أن يكون التعليم والنظم الاجتماعية بحيث يدعمان النزعات المتجانسة عند مختلف الأشخاص. وبحيث يضعفان تلك التي ينشأ عنها صدام. وأنا لا أشك أن ما يمكن تحقيقه في هذا الاتجاه لا يكاد يقف عند حد.

أن النزعة لا الإرادة هي التي يمكن أن تستمد حياة الفرد وحياة المجتمع عن طريقها ما للاتجاه الواحد من قوة ووحدة. والإرادة نوعان، أحدهما موجه إلى الخارج الآخر موجه إلى الداخل. والأول تثيره العقبات التي يصادفها الشخص سواء كانت ناشئة عن معارضة أشخاص آخرين أو عن صعوبة فنية في العمل الذي يقوم به الشخص. وهذا النوع من الإرادة هو تعبير عن نزعة أو رغبة قوية عندما يكون النجاح الفوري مستحيلا، وهو يوجد لدى من تتسم حياتهم بالنشاط والقوة، ولا يصيبه الانحلال إلا عندما تضعف قواهم الحيوية، وهو ضروري للنجاح في الأعمال الصعبة، وبدونه لا يكاد يتم أي عمل عظيم.

أما نوع الإرادة الموجهة إلى الداخل فليس ضروريا إلا إذا كان هناك تضارب داخلي بين النزعات أو بين الرغبات، والشخص ذو الطبيعة المتناسقة

تناسقا تاماً –وهو أمر يكاد يكون مستحيلا– لا حاجة به إلى هذا النوع من الإرادة. ففي كل الأشخاص تقوم نزعات لا تتفق والهدف الأساسي لكل منهم، ويجب كبت هذه النزعات إذا أريد ألا تصبح حياتهم في مجموعها فاشلة، ولكن هذا أقل حدوثا في المجتمع الذي يهدف إلى الحرية، منه في مجتمع مثل مجتمعنا المليء بالتضارب المصطنع الناشئ عن نظم عفى عليها الدهر، وعن رأي عام مستبد. أن القدرة على استعمال الإرادة الداخلية، حينما تتاح الفرصة، لابد أن يحتاج إليها دائما أولئك الذين يريدون أن تتضمن حياتهم هدفا أساسيا، إلا أن الحاجة إليها تقل، وتصبح في ذاتها أقل أهمية، في ظل نظم أفضل من النظم الحالية. وهذه النتيجة مرغوب فيها جدا، لأن الإرادة، عندما تكبت نزعات لا يكون ضررها إلا عارضا، تضيع قوة كان أجدى على الإنسان أن يوجهها للتغلب على العقبات الخارجية، وإذا كانت النعات المكبوتة قوية وجدية فإن قوى حيوية موجودة تضيع هباء. وليس منتظرا أن تظل الحياة المليئة بأنواع الكبت حياة نشطة، بل لابد أن تصبح قلقة خالية من الحماسة. وتموت النزعة في الغالب إذا ظلت تكبت باستمرار، وإذا لم تمت فقد تعمل في الخفاء على صورة أسوأ بكثير من تلك التي تكبت. ولهذه الأسباب ينبغي أن نتجنب بقدر الإمكان استعمال الإرادة الداخلية، وينبغي أن يكون التناسق في التصرفات نتيجة لتناسق النزعات لا لتسليط الإرادة على النزعة.

ويجب ألا يتطلب توحيد الحياة كبت الرغبات العارضة التي ترفه عن الإنسان، بل على العكس من ذلك ينبغي العمل على تيسير الجمع بين الهدف الأساسي في الحياة وكل أنواع الترفيه التي لا تكون ضارة بطبيعتها. فأمثال تلك الأمور التي من قبيل الإدمان على شرب الخمر وتعاطي المخدرات، والرياضة القاسية، والتلذذ بإيلام الغير، جميعها ضارة في ذاتها، ولكن معظم ألوان الترفيه

التي يتمتع بها الرجل المتمدين عادة، تكون إما غير ضارة مطلقا، وإما أن يكون ضررها عارضا لسبب من الأسباب التي يمكن تجنبها في مجتمع أفضل. وليس المطلوب هو أن يكون المرء متقشفا أو متطهرا غاليا في الطهر، ولكن المطلوب هو أن تكون لديه القدرة على توجيه نزعاته ورغباته نحو أهداف إنشائية عظيمة. وعندما تكون الرغبات والنزعات التي من هذا النوع نشيطة، فإنها تحمل معها، من ذاتها، كل ما يجعل الحياة طيبة.

وعلى الرغم من أنه يجب أن يكون للترفيه والمخاطرة نصيبهما في حياة الإنسان، فإنه يستحيل خلق حياة فاضلة إذا كان هذا الترفيه وتلك المخاطرة هما الهدف الأساسي لهذه الحياة، إذ أن "الذاتية"، أو عادة توجيه الفكر والرغبات نحو حالاتنا العقلية نفسها بدلا من توجيهها نحو موضوع خارج عن أنفسنا، تنتهي بنا إلى أن تصبح حياتنا تافهة قاصرة عن التقدم. والشخص الذي يجعل الترفيه غايته من الحياة، لا يلبث أن يفقد بالتدريج اهتمامه بالأشياء التي تعود أن يستمد منها السرور، لأنه لا يقدرها لذاتها، ولكن لما تثيره في نفسه من إحساسات. وعندما تفقد هذه الأشياء أهميتها بالنسبة له يعتريه السأم، ويبحث عن مثيرات أخرى لا تلبث بدورها أن تفقد أهميتها في نفسه. والترفيه يتألف من مجموعات من اللحظات التي تمر وليس بينها عنصر استمرار أساسي يربطها، أما الهدف الذي يجعل من الحياة وحدة فهو يتطلب بعض النشاط الطويل المدى، وهو أقرب إلى بناء تمثال ضخم منه إلى بناء قصور على الرمال كما يفعل الأطفال.

"وللذاتية" صور أخرى، فضلا عن البحث عن الترفيه، فكثير من الناس عندما يقعون في الحب تهمهم إحساساتهم الشخصية أكثر مما يهمهم الشخص الذي يحبون، ومثل هذا الحب لا يؤدي إلى أي اتحاد حقيقي، بل يترك عوامل

التفرقة قائمة على حالها. وحالما تخبو العاطفة فإن العلاقة تكون قد استنفدت أغراضها، ولا يعود ثمة من دافع لاستمرارها. وقد عملت العقيدة البروتستانتية من ناحية، وقواعد الفضيلة من ناحية أخرى، على زيادة ضرر "الذاتية" إذ وجهتا اهتمام الناس نحو الخطيئة والحالة الروحية بدلا من توجيهه نحو العالم الخارجي وعلاقتنا به.

وليس من بين هذه الصور من "الذاتية" ما يحول دون أن تصبح حياة الشخص تافهة ومطوية. أن الحياة التي تصدر عن نزعات قوية سائدة موجهة نحو أهداف موضوعية هي وحدها التي تستطيع أن تكون وحدة كاملة راضية، أو أن تتحد اتحادا شديدا مع حياة الآخرين.

أن الجري وراء اللهو، مثله في ذلك مثل السعي وراء الفضيلة، كلاهما يعانيان من "الذاتية". والأبيفورية والرواقية تعانيان منها بنفس الطريقة، ومارك أوريليوس إذ يسن القوانين الفاضلة حتى يبدو فاضلا، ليس في الواقع شخصا ترتاح إليه النفس. والذاتية نتيجة طبيعية لحياة يزيد فيها جانب التأمل عن جانب العمل زيادة كبيرة، ويبدو أن الأشياء الخارجية تصبح مجرد أفكار إذ اقتصر الإنسان على تذكرها، أو على الرغبة فيها، دون أن يتمرس بها. أن ماهيتها الذاتية تصبح أقل أهمية لدينا من الأثر الذي تتركه في عقولنا. ومثل هذه النتيجة كثيرا ما يكون مصدرها تقدم المدنية، لأن تقدم المدنية يقلل باستمرار من الحاجة إلى العمل النشيط، ويعطي فرصة أوسع للتأمل. ولكن التأمل لا ينشأ عنه مثل هذه النتيجة السيئة، إذا كان تفكيرا عاملا نشيطا موجها نحو تحقيق هدف ما، والتأمل السلبي هو وحده الذي يؤدي إلى "الذاتية". أن المطلوب هو المحافظة على الاتحاد الوثيق بين التأمل من جهة، والنزعات والرغبات من جهة أخرى، بحيث يصبح دائما هو نفسه نشاطا ذا

هدف موضوعي، وإلا قام بين التأمل والنزعة عداء تكون نتيجته خسارة لكليهما.

ولكي نجعل حياة المتوسطين من الناس رجالا ونساء أقل تفككا وفرقة، ولكي نتيح فرصة أوسع لتحقيق النزعات الإنشائية، فلا يكفي أن نكون على علم بالأهداف التي نريد الوصول إليها، أو أن نتكلم عن محاسن الرغبات التي نود تحقيقها. بل من الضروري أن نفهم أثر النظم والمعتقدات في حياة النزعة، وأن نكشف الطرق المثلى لتحسين هذا الأثر بتغيير النظم. وعندما يتم هذا العمل العقلي ينبغي أن نعمل على ربطه بقوة سياسية فعالة، وإلا كان تفكيرنا عقيما. والقوة السياسية الوحيدة الفعالة التي يمكن أن تساعد في إحداث التغييرات المطلوبة هي "العمل". والتغييرات المرغوب فيها هي من ذلك النوع الذي يتوقع أن يرحب بها "العمل". وبخاصة في الأوقات العصبية التي تعقب الحرب. ومن المؤكد أن التبرم سوف يسود بين العمال في جميع أنحاء أوربا بعد الحرب، كما أنه من المؤكد أيضاً أن تتكون قوة سياسية تغدو وسيلة لإحداث تغيير عظيم شامل.

والعالم المتمدين مفتقر إلى تغيير أساسي إذ أردنا أن نجنبه الانهيار: تغيير في النظام الاقتصادي وفي فلسفة الحياة. وأولئك الذين يشعرون بأن الحاجة ماسة إلى هذا التغيير ينبغي ألا يقعدهم اليأس فيظلوا مكتوفي الأيدي. وبوسعنا أن نكتشف نوع التغيير المطلوب وأن بنشر به بين الناس– ذلك النوع من التغيير الذي يحافظ على كل ما هو إيجابي في المعتقدات الحيوية السائدة في عصرنا، ونحن إذا استأصلنا ما هو سلبي تافه يتبقى لدينا نسق موحد يستطيع أن يضم كل العناصر غير الرجعية البحتة. وعندما يتضح لنا نوع التغيير المطلوب، يصبح من الممكن بحث عناصره بتفصيل أوفى. إلا أنه لا فائدة من الجري وراء

التفاصيل قبل أن تضع الحرب أوزارها مادمنا لا نعرف صورة العالم الذي سوف يتخلف عن هذه الحرب. والأمر الوحيد الذي يبدو مؤكدا هو أن العالم الجديد الذي سيأتي بعدها سيكون في حاجة إلى قدر كبير من الآراء الجديدة، وذلك لأن آراء السلف التقليدية لن تكون لها قيمة تذكر. وواضح أن أكثر تصرفات الناس أهمية لا تصدر عن الدوافع التي تؤكد لنا الفلسفات السياسية التقليدية أنها تصدر عنها. فالنزعات التي أدت إلى الحرب وعاونت على استمرارها تأتي من مصدر أشد غورا مما تصدر عنه معظم المناقشات السياسية. كما أن معارضة الحرب، لدى القلة التي عارضتها، إنما تنبعث من نفس هذه الأعماق. والنظرية السياسية التي تستطيع أن تصمد في أوقات الشدة هي تلك التي تحسب حساب النزعات التي توجد وراء التفكير الظاهري، وأن تجتذب هذه النزعات وتعمل على جعلها نزعات منتجة بدلا من أن تكون نزعات مدمرة.

أن للنظم الاقتصادية أثرا بعيدا في الرقي بالحياة أو تدميرها. والنظام الصناعي الحالي هو أكثر الأنظمة التي ظهرت في الوجود تدميرا للحياة، باستثناء نظام الرق. ولا سبيل إلى التخلص من الآلة والإنتاج الكبير، بل يجب الإبقاء عليهما في أي نظام آخر يحل محل النظام الذي نعيش في ظله. وخير ما ينبغي أن يتجه إليه الإصلاح المنشود هو على الأرجح نظام "الاتحاد الصناعي الديمقراطي".

ولفلسفات الحياة –إذا كانت واسعة الانتشار– تأثير بعيد المدى في حيوية المجتمع. وأكثر الفلسفات التي يقبل عليها الناس في الوقت الحاضر هي تلك التي تقول بأن دخل الإنسان هو أهم العوامل التي تؤثر في سعادته، وهذه الفلسفة –بغض النظر عن نقائصها الأخرى– فلسفة ضارة لأنها تحث الناس على استهداف غاية بدلا من تشجيع نزعات إنشائية تتمثل فيها فردية كل

شخص على حدة. كما أن الفلسفات الأكثر تهذيبا، كتلك التي يغرسها التعليم العالي في النفوس، غالبا ما تحول الاهتمام إلى الماضي بدلا من تحويله إلى المستقبل، وإلى السلوك المهذب بدلا من النشاط الإيجابي. ولن يجد الناس في مثل هذه الفلسفات تلك القوة التي تعينهم على سهولة حمل عبء التقاليد وعبء المعرفة التي تتزايد بلا انقطاع.

إن العالم في حاجة إلى فلسفة أو دين يعمل على تنمية الحياة. ولكنا إذا أردنا أن نساعد على نمو الحياة فيجب أن يكون لدينا شيء آخر نقدره غير الحياة نفسها. فإن الكائن الحي الذي ليس ليه من هدف سوى الحياة نفسها. حيوان ليس فيه من القيم الإنسانية الحقيقية شيء، وحياة هذا هدفها لا تستطيع أن تحمي الناس بصفة مستديمة من الملل والشعور بأن كل شيء باطل. فلكي تكون الحياة إنسانية بكل ما في هذه الكلمة من معنى، يجب أن نجعلها تهدف إلى تحقيق غاية تبدو –بصورة ما– خارج نطاق الحياة البشرية، غاية غير شخصية وفوق مستوى البشر، مثل الله أو الحقيقة أو الجمال. وليست الحياة نفسها غاية لمن يعملون على تنمية الحياة خيرا مما يعمل لذلك غيرهم. فهم يهدفون إلى ما يبدو أنه تجسد تدريجي، إلى خلق عنصر أبدي في حياتنا البشرية، لها سمة الخلود الذي يبدو لأخيلتنا كأنه لا يكون إلا في جنة لا كدح فيها ولا إخفاق، جنة لا يعدو عليها الزمن المفترس الذي تصل مخالبه إلى كل شيء. أن اتصالنا بهذا العالم الخالد –ولو كان عالما من صنع مخيلتنا– يمدنا بقوة وسلام وطيد لا تستطيع القضاء عليهما مرارة الكفاح والإخفاق السطحي اللذين يعرضان لنا في حياتنا الموقرة والتأمل السعيد فيما هو خالد هو ما يسميه سبينوزا، محبتنا الله محبة ذهنية، تلك المحبة التي هي مفتاح الحكمة لمن عرفوها ولو مرة واحدة.

إن ما يجب علينا أن نؤديه من عمل يختلف بالقياس إلى كل منا وفق كفاياته، وما يتهيأ له من فرص، ولكن ما يجب علينا عمله، أو ما يجب علينا تركه، لا يمكن أن يتجلى لنا إلا إذا كان فينا قدر من الحياة الروحية، ونحن بإيجاد رابطة بيننا وبين عالم الخلود، وبتكريس حياتنا لإشاعة جانب من الروح الإلهي في هذا العالم المضطرب، نستطيع أن نجعل من حياتنا أداة إنشائية حتى في هذا الوقت المضطرب وحتى في هذا الخضم الجياش بألوان القسوة والنضال والكراهية التي تنتابنا من كل جانب. أن جعل حياة الفرد حياة إنشائية في مجتمع يقوم على الاقتناء، أصعب من جعلها إنشائية في المجتمع الذي تستطيع الجهود البشرية أن تقيمه في المستقبل. ولابد من أن يعاني أولئك الذين كتب عليهم أن ينهضوا بتجديد العالم الأمرين من الوحشة والمعارضة والفقر وقدح القادحين. ولهذا يجب أن تكون لديهم القدرة على الحياة التي قوامها الصدق والمحبة، والتي يحدوهم فيها الأمل الذي لا يقهر، كما يجب أن يكونوا أمناء حكماء لا يهابون شيئا وأن يحدوهم غرض واحد لا يتغير. أن جماعة من الرجال والنساء هذه صفاتهم سينتصرون ولابد، وسينتصرون أول الأمر على الصعوبات وألوان الحيرة التي تكون في حياة كل فرد منهم. ثم ينتصرون بعد وقت قد يكون طويلا جدا، على من حولهم. فالحكمة والأمل هما الشيئان اللذان يحتاج إليهما العالم، وعلى الرغم من أن العالم يقف الآن في سبيلهما، إلا أنه سيقدرهما قدرهما آخر الأمر.

فعندما اجتاح البرابرة روما ونهبوها سماها القديس أوجستين "مدينة الله واستعاض بالأمل الروحي عن الحقيقة المادية التي أصابها التدمير. ثم عاش الأمل، وظل مصدرا للحياة خلال القرون التي تلت أوجستين، بينما انحدرت روما فأصبحت قرية من العشش والزرائب. ونحن أيضا في حاجة إلى أمل جديد لنبني بتفكيرنا عالما أفضل من ذلك العالم الذي يقود نفسه إلى الدمار.

والمجهود المطلوب منا بذله في هذه الظروف السيئة أكبر مما لو كانت الظروف عادية، ولن ينقذ الأجيال القادمة من الموت الذي أصاب جيلنا هذا الذي نعرفه ونحبه إلا شعلة علوية من الفكر والروح.

وقد كان من حسن حظي أن اتصلت بصفتي مدرسا بعدد من الشباب من مختلف الجنسيات، شبان فيهم الأمل وفيهم الطاقة الإنشائية اللازمة لتحقيق جزء على الأقل من الجمال الذي يتردد صداه في نفوسهم، والذي هم به يعيشون، فجرفهم تيار الحرب، وأصبح بعضهم في هذا الجانب، وأصبح بعضهم في الجانب الآخر، وبعضهم لا يزال في ميدان القتال، وبعضهم قد قضى نحبه، وأصبح بعضهم عاجزا مدى الحياة. ومن أولئك الذين سيبقون على قيد الحياة بعد الحرب كثيرون ممن يخشى أن يكونوا قد فقدوا حياتهم الروحية، وأن يكون قد خبا فيهم ذلك الأمل فتضيع هذه الطاقة هباء، وتصبح أيامهم الباقية في هذه الحياة رحلة مرهقة إلى القبر. وتلقاء هذه المأساة كلها نرى عددا ليس بالقليل ممن يقومون بمهمة التعليم وكأنهم لا يحسون بها.

فهم يثبتون بمنطقهم القاسي الذي لا يرحم أن هؤلاء الشبان قد ضحى بهم تضحية لم يكن منها بد في سبيل بعض الغايات العامة الباردة... يقولون ذلك دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة البحث، ثم لا يلبثون أن ينعموا ببرد الراحة بعد انفعالة طارئة. وأمثال هؤلاء قد ماتت فيهم الحياة الروحية ولو أنها كانت حية لاندفعت للقاء أرواح أولئك الشبان يحدوها حب مكين كحب الأب والأم، غير شاعرة بأن ثمة ما يفصل نفوسهم من نفوسهم، مؤمنين بأن مأساة هؤلاء الشبان هي مأساتهم، ولارتفع صوت يصيح "كلا، أن هذا ليس حقا، أنه ليس عدلا، أن هذه القضية لا يمكن أن تكون قضية مقدسة تلك التي تخبو فيها زهرة الشبان وتدمر. أننا نحن الكبار الذين أجرمنا، فنحن الذين أراسلنا هذا

الشباب إلى ميدان القتال بسبب شهواتنا الخبيثة، وبسبب مواتنا الروحي، وإخفاقنا في أن نعيش كرماء مع الناس، نعيش يحدونا دفء قلوبنا، وبهدي من إيحاء أرواحنا الذي لا ينضب.. فلننج بأنفسنا من هذا الموت، لأننا نحن الأموات لا هؤلاء الشباب الذين قضوا نحبهم بسبب خوفنا نحن من الحياة. أن أشباحهم أكثر منا حياة، وهي تصمنا في أعين الأجيال كلها بوصمة الخزي والعار. فمن أطيافهم لابد أن تنبثق الحياة، ونحن الذين ينبغي أن تبث أطيافهم الحياة فينا".

الفهرس